منشورات جامعة دمشق

كلية الشّريعة

إعجاز القرآن الكريم

تأليف

الدّكتور

نصَّار أسعد نصَّار

الأستاذ في كلية الشَّريعة بجامعة دمشق

١٤٤٥ - ١٤٤٦هـ

٢٠٢٤ - ٢٠٢٥م

جامعة دمشق

وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

إعجاز القرآن الكريم

وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

منشورات جامعة دمشق

كلية الشّريعة

إعجاز القرآن الكريم

تأليف

الدّكتور

نصَّار أسعد نصَّار

الأستاذ في كلية الشَّريعة بجامعة دمشق

١٤٤٥ - ١٤٤٦هـ

جامعة دمشق

٢٠٢٤ - ٢٠٢٥م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ ۖ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾

[العنكبوت: ٥٠-٥١]

«لقد أعجزَتْهُم مزايا ظهرتْ لهم في نظمِهِ، وخصائصُ صادفوها في سياقِ لفظِهِ، وبدائعُ راعتهم مِن مبادئِ آيِهِ ومقاطِعِها، ومَجاري ألفاظِها ومواقعها، وفي مضْربِ كلِّ مثلٍ، ومساقِ كلِّ خبرٍ، ومع كلِّ حُجّةٍ وبُرهانٍ وصفةٍ وتِبيانٍ. وبَهرهُم أنَّهم تأمَّلوهُ فلم يجدوا فيه كلمةً ينبو بها مكانُها، ولفظةً يُنكر شأنُها، أو يُرى أنَّ غيرَها أصلحُ هناك أو أشبه، أو أحرى وأخْلَق. بل وجدوا اتّساقاً بَهرَ العُقولَ، وأعجزَ الجمهورَ، ونظاماً والتئاماً، وإتقاناً وإحكاماً، لم يدعْ في نفسِ بليغٍ منهم موضعَ طمعٍ، حتّى خرسَتِ الألسنُ عن أنْ تدَّعيَ وتقولَ، وخَذيتِ القُروم - خضعت الفحول - فلم تملكْ أنْ تَصولَ».

أبو بكر الجُرجاني (ت ٤٧١ هـ) «دلائل الإعجاز»

فِهْرسُ المُحْتَوى

فِهْرسُ المُحْتَوى..... ٥

مقدمة ٩

الفصل الأوَّل: التّعريف بمعجزات الأنبياء عليهم الصَّلاة والسَّلام ١٣

المبحث الأوَّل: تعريف المعجزة ودلائل النّبوة.....١٥

المطلب الأوَّل: تعريف المعجزة والإعجاز..... ١٥

أوَّلاً، المُعجِزة والإعجاز في اللغة والاصطلاح ١٥

ثانياً، إعجاز القرآن الكريم وفاعلية التَّحدّي وحِكْمته..... ١٩

المطلب الثَّاني: دلائل النّبوة ومعجزات الأنبياء..... ٢٥

أوَّلاً، دلائل النّبوة وأعلامُها..... ٢٥

ثانياً، معجزات الأنبياء وأعلام نبوَّاتهم..... ٢٦

المبحث الثَّاني: التَّعريف بمصطلحاتٍ ذات صلةٍ.....٣١

المبحث الثَّالث: معجزة خاتَمِ النَّبِيِّين ﷺ ودلائل نبوته ٤١

المطلب الأوَّل: دلائل نبوته ﷺ وتحقق شرائط الإعجاز..... ٤١

تحقق شرائط الإعجاز في القرآن الكريم ٤٣

المطلب الثّاني: ثبوت إعجاز القرآن الكريم ٤٥

أوَّلاً، إحجامهم عن المعارضة دليل إعجازه..... ٤٥

ثانياً، التجاؤهم إلى المحاربة دليل عجزهم..... ٤٦

ثالثاً، اعترافهم بالعجز دليل الإعجاز ٤٧

رابعاً، صنيعه بالقلوب، وتأثيره في النَّفوس..... ٤٩
المبحث: الرَّابع الإعجاز بالصّرْفة والإخبار بالغُيوب.....٥٣
المطلب الأوَّل: الإعجاز بالصَّرْفة..... ٥٣
أوَّلاً، تعريف الصَّرْفة وبيان معناها..... ٥٣
ثانياً، موقف العلماء مِن الصَّرْفة وما يلزم مِن القول بها ٥٥
ثالثاً، الصَّرْفة أحد وجوه الإعجاز..... ٥٧
المطلب الثّاني: الإعجاز بالإخبار عن الغُيوب..... ٦١
أوَّلاً، دلالة الأخبار الغيبية على صدق دعوى النّبوّةِ ٦١
ثانياً، وجه الإعجاز في المعارف والأخبار الغيبيّة ٦٢
ثالثاً، أنواع الغيوب في القرآن الكريم..... ٦٣
الفصل الثَّاني: الفصاحة والبلاغة في القرآن الكريم..... ٧٣
المبحثُ الأوَّل: معايير الفصاحة والبلاغة واستبانة الحجّة للقرآن الكريم .٧٥
١) تعريف الفصاحة وما يُحتكم إليه فيها..... ٧٥
٢) مرْجِعُ الفصاحةِ والدَّليل عليه ٧٧
المطلب الثَّاني: فصاحةُ الكلمة المفردة والمنظومة ٨٠
أوَّلاً، فصاحةُ الكلمة المُفردة ٨٠
ثانياً، فصاحةُ الكلمةِ المنظومة..... ٨٦
المطلب الثّالث: البلاغة والبيان في التَّأليف ٨٩
أوَّلاً، معنى البلاغة وصفتها وحقيقتها. ٨٩
ثانياً، معنى البيان والغايةُ منه..... ٩١
المطلب الرّابع: دور الشِّعر في استبانة الحُجَّة للقرآن الكريم ٩٣

أوَّلاً، الاستبانة وتأصيلها عند الجُرجانيّ (ت٤٧١هـ). ٩٣
ثانياً، الاستبانة وتطبيقها عند الباقلَّانيّ (ت٤٠٣هـ)..... ٩٥
المبحث الثَّاني: بلاغة النَّظم والتَّأليف في القرآن الكريم ١٠٣
المطلب الأوَّل: النَّظم عند أبي عُثْمان الجاحظ.....١٠٥
المطلب الثَّاني: النَّظم عند أبي سُلَيْمانَ الخَطَّابِيّ ١٠٨
أوَّلاً، قِوامُ الكلام، وتحقُّقه في القرآن الكريم، وتعذر معارضته ..١٠٨
ثانياً، عمود البلاغة وسرّ الإعجاز في القرآن الكريم.....١٠٩
المطلب الثّالث: النَّظمُ عند أبي بكر الباقلّانيّ ١١٢
أوَّلاً، تآلف الألفاظ وتآخي المعاني. ١١٢
ثانياً، شمول التَّآلف والتّآخي، وعمومه. ١١٤
ثالثاً، إحكام نظمه وإيجاز بيانه والعجز عن مثله.....١١٦
رابعاً، ظهورُ الحِكْمةِ في التّرتيب والمعنى.....١١٨
المطلب الرَّابع: النَّظم والتّأليف عند أبي بكرٍ الجُرجانيّ.....١٢٠
أولاً، معيار فصاحة الألفاظ ودليله. ١٢٠
ثانياً، التَّلاؤمُ اللَّفظيّ والفصاحة.....١٢٣
ثالثاً، بلاغةُ الكلام، وكيفيّة نظمه. ١٢٤
رابعاً، تعريفُ النَّظم وابْتِناؤُه. ١٢٥
خامساً، مرجع المزيّة في الفُروقِ والوجوهِ النّحوية.....١٣٢
سادساً، أمثلة على مراعاة الفروق الدَّقيقة بين المعاني النَّحويّة ...١٣٣
سابعاً، الفرق بين الإخبار بالاسم أو بالفعل ١٣٥
ثامناً، مثال على اختلاف المعنى بسبب التَّقديم والتَّأخير ١٣٧

المبحثُ الثَّالث: وجوُه نظم القرآن الكريم المعجزة.....١٤٣
الفصلُ الثّالث: خصائصُ أسلوبِ نظمِ القرآن الكريم وبيانه.....١٥٧
المبحث الأوَّل: خصائصُ أسلوب نظمِ القرآن الكريم وتأليفه.....١٥٩
أوَّلاً، خروجُ نظمه عن المعهود من أساليبِ كلام العرب، ومباينته للمألوف مِن ترتيب خطابهم. ١٥٩
ثانياً، سلامة نهجه مِن الاختلال والاختلاف.....١٦٠
ثالثاً، نظمه آياته المُبدِع. ١٦١
رابعاً، نظمه الموسيقي المعجز "جهاته وتجلياته".....١٦٤
المبحثُ الثَّاني: خصائصُ أسلوب القرآن الكريم البيانيَّة ١٧٩
الخاصّة الأولى، إقناع العقل وإمتاع العاطفة.....١٧٩
الخاصَّة الثَّالثة، تكرارُ الألفاظ والمعاني.....١٨٤
الخاصّة الرّابعة، تداخل موضوعات القرآن الكريم وعدم تبويبِها. ١٨٨
الخاصَّة الخامسة، أداء فواصله دوراً وظيفيّاً. ١٨٩
الخاصّة السَّادسة، ارتباط آيه بعضها ببعضٍ.....١٩٨
الخاصَّة السَّابعة، ضربُ الأمثالِ في القرآن الكريم ٢٠٣
الخاصَّة الثَّامنة، التَّخييل والتَّصوير في القرآن الكريم.....٢٠٦
أهم المراجع ٢١١

* * *

مقدمة

الحمد لله ذِي الجلال والإكْرام، والفضل والإنعام، الذي نهج لنا سبل الرّشاد، **فابتعث** الرّسل سفراء إلى خلقه، وأمناء على وحيه= يما خصّهم به مِن مواهبه، ومَنَّ به عليهم مِن كراماته، ثُمَّ جعلهم - فيما خصّهم به مِن مواهبه، ومَنَّ به عليهم مِن كراماته - مراتبَ مختلفةً، ومنازل مُفترقةً. فكرَّم بعضهم بالتّكليم والنّجوى، وأيَّد بعضهم بروح القُدس، وخصّه بإحياء الموتى، وإبراء أولي العاهة والعَمى، وفضَّل نبيَّنا مُحمَّداً ﷺ، فحَبَاه مِن درجات النّبوّة بالحظّ الأجزَل، ومِن الأصحاب والأتباع بالنَّصيب الأوفر. وابتعثه بالدّعوة التّامة، والرّسالة العامّة، وعصمه مِن كلّ جبارٍ، حتّى أظهر به الدّين، وأوضح به السّبيل، وأنهج به معالم الحقِّ، ومَحق به منار الشِّرك، واضمحلّ به الضّلالُ وخُدَعُ الشّيطان وعبادةُ الأصنام، مُؤيّداً **بدلالةٍ على الأيام باقيةٍ**، وعلى مَرِّ الشّهور والسّنين دائمةٍ، يزداد ضياؤها على كرّ الدّهور إشراقاً، وعلى مرّ الليالي والأيام ائتلاقاً، دون سائر رُسله - الذين قهرتهم الجبابرة، واستذلَّتهم الأمم الفاجرة، فتعفَّتْ بعدهم منهم الآثار، وأخملت ذكرهم الليالي والأيام - ودون مَن كان منهم مُرْسلاً إلى أمّةٍ دون أمّةٍ، وخاصّةٍ دون عامّةٍ، وجماعةٍ دون كافَّةٍ.[1] = وأنزل الكُتب، وكان خاتمها الفرقان، جعله قيِّماً غير ذي عِوجٍ، وبيِّناً لا يَأْتيهِ الباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ ولا مِنْ خَلْفِهِ، تَنْزيلٌ مِنْ حَكيمٍ حَميدٍ، وقطع منه

---

(١) يُنظر: **جامع البيان**، أبو جعفر الطَّبري (ت ٣١٠ هـ) (١/ ٤). **ومصداقه** قوله ﷺ: «ما مِنَ الأَنْبِياءِ نَبِيٌّ إِلَّا أُعْطِيَ ما مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ البَشَرُ، وَإِنَّما كانَ الَّذي أوتيتُ وَحْيًا أَوْحاهُ اللهُ إِلَيَّ، فَأَرْجو أَنْ أَكونَ أَكْثَرَهُمْ تابِعًا يَوْمَ القيامَةِ». **البخاري**، كِتابُ فَضائِلِ القُرْآنِ، بابٌ: كَيْفَ نَزَلَ الوَحْيُ (٤٩٨١). **مسلم**، كِتابُ الْإِيمانَ، بابُ وُجوبِ الإيمانِ بِرِسالَةِ نَبِيِّنا مُحَمَّدٍ ﷺ (٢٣٩).

بمعُجز التّأليف أطماع الكائدين، وأبانه بعجيب النّظم عن حيل المُتكلِّفين، وجعله متلوّاً لا يُملّ على طول التّلاوة، ومسموعاً لا تمجّه الآذان، وغضّاً لا يخْلق على كثرة الرّد، ولا تنقضي عجائبه، ولا تنقطع فوائده، ونسخ به سالف الكُتب، وجمع الكثير مِن معانيه في القليل مِن لفظه.[1] وإنَّ ما أورده ﷺ على العرب مِن الكلام الذي أعجزهم عن الإتيان بمثله، أعجبُ في الآية، وأوضحُ في الدّلالة مِن إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص؛ لأنَّه أتى أهلَ البلاغةِ وأربابَ الفصاحةِ ورؤساءَ البيان المُتقدِّمين في اللّسان بكلامٍ مفهومِ المعنى عندهم، فكان عجزُهم أعجبَ مِن عجز مَن شاهد مِن المسيح عليه السلام إحياء الموتى؛ لأنَّهم لم يكونوا يطمعون فيه، ولا يتعاطون علمه، وقريشٌ كانت تتعاطى الكلام الفصيح والبلاغة والخطابة، فدلّ على أنَّ العجزَ عنه إنَّما كان لأنَّه **عَلَمٌ على رسالته** وصحةِ نبوته. وهذه حُجّةٌ قاطعةٌ، وبرهانٌ واضحٌ.[2] فلله الحمد والمِنّة أنْ كرّمنا بتصديق رسوله ﷺ، وشرّفنا باتِّباعه، وجعلنا مِن أهل الإقرار والإيمان به، وبما دعا إليه، وجاء به.

وبعد، فهذه مباحث في إعجاز القرآن الكريم وفق الخطّة الدّرسيّة الجديدة للسّنة الرّابعة في كليّة الشّريعة، بجامعة دمشق، وذلك في ثلاثة فصولٍ: **الفصل الأوَّل**: التَّعريف بمعجزات الأنبياء عليهم الصَّلاة والسَّلام. المبحث الأوّل: تعريف المعجزة ودلائل النّبوة. المبحث الثّاني: التَّعريف بمصطلحات ذات صلةٍ. المبحث الثّالث: معجزة خاتَم النَّبيِّين ودلائل نبوته. المبحث الرَّابع: الإعجاز بالصّرْفة والإخبار بالغُيوب. **الفصل الثَّاني**: الفصاحة والبلاغة في القرآن الكريم. المبحث الأوّل: معايير الفصاحة والبلاغة. المبحث الثّاني:

---

(١) يُنظر: **تأويل مشكل القرآن**، لابن قتيبة (ت ٢٧٦ هـ) (ص ١١).

(٢) يُنظر: **الاعتقاد**، أبو بكر البيهقي (ت ٤٥٨ هـ) (ص ٢٦١).

بلاغة النَّظم والتَّأليف في القرآن الكريم. المبحث الثّالث: وجوُه نظم القرآن الكريم المُعجزة. الفصل **الثَّالث**: خصائصُ أسلوبِ نظمِ القرآن الكريم وبيانه. المبحث الأوّل: خصائصُ أسلوب نظمِ القرآن الكريم وتأليفه. المبحث الثّاني: خصائصُ أسلوب القرآن الكريم البيانيّة.

الخميس: ٧/ ١٢/ ١٤٤٥هـ

١٣/ ٦/ ٢٠٢٤م

وكتبه

أبو أويس

نضار أسعد نضار

وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

الفصل الأوَّل

التّعريف بمعجزات الأنبياء عليهم الصَّلاة والسَّلام

المبحث الأوَّلُ: تعريف المعجزة ودلائل النّبوة.

المبحث الثَّاني: التَّعريف بمصطلحات ذات صلةٍ.

المبحث الثَّالث: معجزة خاتَم النَّبِيِّين ودلائل نبوته.

المبحث الرَّابع: الإعجاز بالصّرْفة والإخبار بالغُيوب.

وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

المبحث الأوَّل

تعريف المعجزة ودلائل النّبوة

أرسل الله ﷻ الرّسل وبعث الأنبياء عليهم الصَّلاة والسَّلام، وأيّدهم بآياتٍ تظهر صدقهم فيما جاؤوا به، ودلائل تثبت صحة ما دعوا إليه. وفي هذا المبحث مطلبان، **الأوَّل**: تعريف المعجزة والإعجاز. **الثَّاني**: دلائل النّبوة ومعجزات الأنبياء.

المطلب الأوَّل: تعريف المعجزة والإعجاز

بدايةً لا بدّ مِن تعريف المعجزة لغةً واصطلاحاً، وما تتصف به مِن أمورٍ، وشروطها المستفادة مِن تعريفها، وتحقّق ذلك في القرآن الكريم.

أوَّلاً، المُعجِزة والإعجاز في اللغة والاصطلاح

المُعجِزة، في اللّغة: «عَجزَ»[1] له معنيان: يدُلُّ **أَحَدُهُما** على **الضَّعْفِ**: **عَجِزَ** عنِ الشَّيْءِ، يَعْجزُ عَجْزاً، فهو عاجِزٌ، أيْ ضَعيفٌ. **والآخَرُ** على **مُؤَخَّرِ الشَّيْءِ**: وهو **العَجُزُ**، وجمعه أَعْجازٌ، وأصلُه **التَّأَخُّر عن الشَّيءِ**، وحُصولُه عند عَجُزِ الأَمر، أَي: **مُؤخّره**، وصار في **العُرْف** اسْماً **للقُصور** عن فِعلِ الشّيءِ، وهو ضدّ القُدْرة. يُقال: أعْجازُ الأمور، أيْ: أواخِرُها.[2] والجامع للمعنيين: **التَّأُخُّرُ، وسببه القصور**. والعلاقة بينهما متبادلة **فما تأخر** فلضَعْفه أو للتَّثبيط، وما **ضَعُف أو ثُبِّط** تأخَّر. **والمُعْجِزَةُ**: واحِدةُ مُعْجِزاتِ الأنْبياءِ عَلَيْهِمُ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ.

---

(١) بفَتْحِ الجيم وكَسْرِها. **المُغْرِب في ترتيب المُعْرِب** للمُطَرِّزيّ (ت٦١٠هـ) (ص٣٠٥).

(٢) **مقاييس اللغة** (٤/ ٢٣٢). **المفردات في غريب القرآن** (ص٥٤٧).

وفي **الاصطلاح**: أمْرٌ خارِقٌ للعادَةِ، مقرونٌ بالتَّحدّي، سالمٌ عن المُعارَضَةِ.[1] ومحترزات التَّعريف، **قيل**:

- **أمرٌ**؛ لأنَّ المُعْجِز قد يكون إتياناً **بغير المعتاد**، وقد يكون **منعاً** مِن المعتاد.
- **وخارقٌ للعادة**؛ ليتميّز به الدّعي عن غيره.
- **ومقرونٌ بالتَّحدّي**؛ لِئلّا يتخذَ الكاذبُ مُعْجِزَة مَنْ مضى حُجّة لنفسه، وليتميّز عن الإرهاص والكرامات.[2]
- **وسالمٌ عن المُعارَضَةِ**؛ ليتميّز عن السِّحر والشَّعْوَذَة.[3]

ووجه تسمية ما يدلّ على **نبوة نَبِيٍّ** معجزةً؛ كونها اسمَ فاعلٍ مِن الفعل الثّلاثي: «**عَجز**» ومصدرُه: «العَجْز»، فـ «مُعْجِزَةُ النَّبيِّ»: **ما أَعْجَزَ به الخصمَ عند التَّحدِّي**، والهاءُ فيها للمُبالغةِ.[4] فسُمِّيت مُعْجِزَةً؛ لعجْزِ مَن يقعُ عندهم ذلك عن مُعارضتها.[5] قال **القاضي عِياض** (ت٥٤٤هـ): معنى تَسْمِيَتِنا ما جاءتْ به الأنبياءُ «مُعْجِزَةً» هوَ أنَّ الخلق عجزوا عن الإتيان بمثلِها، وهي على **ضربينِ**:

الأوَّل: **مِن نوعِ قُدرَة البشر**، فعجزوا عنه، فتعجيزُهُم عنه **فِعْلٌ لله ﷻ، دَلَّ على صِدْقِ نبيِّه**، كتعجيزِهم عنِ الإتْيانِ بمثْلِ القرآن على رأي مَن يقول بالصَّرْفة.

---

(١) **الإتقان في علوم القرآن** (٤/ ٣).

(٢) الإرهاص: ما يظهر من خوارق دالة على بعثة نبيٍّ قبل أنْ يُبْعَث. كتظليل الغمام لرَسول الله ﷺ قبل بعثته. **التعريفات** (ص١٦). **الكليات** (ص٧٨).

(٣) **محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين من الحكماء والمتكلمين**، للفخر الرَّازي (ص٢٠٧).

(٤) **مختار الصَّحاح** (ص٢٠١). **القاموس المحيط** (ص٥١٦). **الكليَّات** (١/ ١٤٩).

(٥) **فتح الباري** (٦/ ٥٨١ -٥٨٢).

وضربٌ خارجٌ عن قدرتهم، فلمْ يقدِروا على الإتيانِ بمثلِه، **كإحياءِ الموتى**، وقلب العصا حيّةً، وإخْراجِ ناقَةٍ مِن صخْرَةٍ، وانشقاقِ القمرِ، مِمَّا لا يُمْكِنُ أنْ يفْعلهُ أحدٌ إلّا الله ﷻ. فكون ذلك على يَدِ النَّبيِّ مِنْ فِعْلِ اللهِ تعالى **وتحدِّيهِ** مَن يُكذّبه أنْ يأْتيَ بمِثْلِه **تعجيزٌ له**. والمعجزات التي ظهرت على يد نبيِّنا ﷺ ودلائل نبوته وبراهين صدقه مِن **هذين النَّوعين معاً**.(١)

ويستفاد ممَّا سبق أنَّ للمعجزة صفاتٍ تتسم بها، وشروطاً تتوفر فيها.

أمَا صفاتها، أنْ تكون:

- خارقةً لِما هو مألوف مِن سُنن كونيّة، كـ كون النَّار تُحْرِق، والماء يُغْرِق.
- ومقرونةً بتحدّي مَن أُرسل إليهم النَّبيّ أنْ يأتوا بمثل ما تحدّاهم به.
- مع وجود الدَّافع للمُنازلة والمُعارضة، مِن عيب الآلهة، وتسفيه الأحلام...
- ومِن جنس ما تفوَّقوا به. كما في تحدّي موسى عليه السلام لسحرة فرعون، فالمُقْتَضي قائمٌ، وهو تحدّيهم مِن جنس ما أَلِفوه. والمانع مُنتفٍ؛ وهو تفوقهم بما تحدّاهم به.

أمَّا شروطها فخمسةٌ، هي:

١- أَنْ تَكونَ مِمَّا **لا يَقْدِرُ عليه إلَّا الله** ﷻ. كفَلْقِ البحرِ، وما شاكلها مِن الخوارق. وما كان خلاف ذلك لم يكنْ مُعْجِزَةً لمَن ادَّعاهُ، ولا دالًّا على صدقِه؛ لِقُدْرَةِ الخلقِ على مثله.

---

(١) **الشِّفا بتعريف حقوق المصطفى** وحاشية الشُّمُنِّي (١/ ٢٥٢).

٢- أنْ **تخرق العادة**، كأنْ يقلبَ العصا ثُعْباناً؛ كي لا يدّعي مُدّعٍ أنَّ آية صدقه - مثلاً - مَجيءُ اللَّيْلِ بعدَ النَّهارِ، فهذه الأفعالُ - وإنْ كان لا يقدِرُ عليها إلَّا اللهُ ﷻ - لم تُفْعَلْ مِن أجله، فقد كانتْ قبلَ **دعْواهُ على ما هِيَ عليه حين ادعى**، ودعواهُ في دلالَتِها على نُبُوَّته كدعْوى غيره.

٣- أنْ يَسْتَشْهِدَ بها مُدّعي الرِّسالَةِ على اللهِ ﷻ، كأنْ يقول: آيَتي أنْ يَقْلِبَ اللهُ ﷻ هذا الماءَ زَيْتاً، فإذا فعل اللهُ ﷻ ذلك حصل المُتَحَدَّى به.

٤- أنْ تقع على وَفْقِ دعْوَى المُتَحَدِّي بها، المُسْتَشْهَدِ بكونِها معجزةً له، فإذا وقعت على خلاف دَعْواهُ كانت آيةً دالّةً على كذبه.(١)

٥- ألَّا يَأْتِيَ أحَدٌ بمثل ما أتى به المُتَحَدِّي على وجه المُعارضة.

فإنْ تمَّ الأمرُ المُسْتَشْهَدُ به وفق الشّروط المُتقدِّمةِ، فهي **معجِزةٌ** دالَّةٌ على نُبُوَّةِ مَنْ ظهرتْ على يده. فإنْ عارضه أحدٌ **بمثل ما جاء به**، بطل كَوْنُه نَبيّاً، وخرج عن كَوْنِه مُعجِزاً، ولم يدُلَّ على صدقه؛ ولهذا قال ﷻ عن القرآن، وهو مُعْجِزَةُ خاتم النَّبيين ﷺ الكُبرى: ﴿فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ﴾ [الطور:٣٤].(٢)

٦- وأضاف بعضهم **شرطاً**، وهو أنْ تكون **المعجزة في زمان التَّكليف**؛ لأنَّ ما يقع في الآخرة مِن الخوارق ليست بمعجزةٍ؛ ولأنَّ ما يظهر عند ظهور

---

(١) مِن ذلك ما يُرْوَى أَنَّ مُسَيْلِمَةَ الكَذَّابَ تَفَلَ في بِئْرٍ لِيَكْثُرَ ماؤُها، فَغارَتِ الْبِئْرُ وَذَهَبَ ما كانَ فيها مِنَ الماءِ، فهَذا مِنَ الآياتِ المُكَذِّبَةِ لِمَنْ ظَهَرَتْ على يَدَيْهِ؛ لأنَّها وقَعَتْ على خِلافِ ما أَرادَهُ المُتَنَبِّئُ الكَذَّابُ. يُنظر: **الإشراف في منازل الأشراف**، لابن أبي الدّنيا (٤٨٤). **الجامع لأحكام القرآن** (١/ ٧١).

(٢) يُنظر: **الجامع لأحكام القرآن** (١/ ٦٩ -٧١).

أشراط السَّاعة وانتهاء التَّكاليف لا يشهد بصدق الدّعوى؛ لكونه زمان نقض العادات وتغيّر الرّسوم.[1]

ثانياً، إعجاز القرآن الكريم وفاعلية التَّحدّي وحِكْمته.

(١) **الإعْجاز**، في اللّغة: **الفَوْتُ والسَّبْقُ**، مصدر مِن الفعل الرّباعيّ: «أعجز»، يُقالُ: **أعْجَزَني** فُلانٌ، أيْ: فاتَني. **وأعْجَزَ فلاناً**: صَيَّرَه عاجِزاً، أيْ: عن إدراكِه واللّحوق به.[2]

و"**إعجاز القرآن**" مُركَّب إضافي، معناه بحسب اللّغة: إثباتُ القرآنِ عجزَ الخلق عن تحدّيه. فهو مِن **إضافة المصدر لفاعله**،[3] والتَّقدير: إعجازُ القرآنِ الخلقَ عن الإتيان بما تحدَّاهم به. فالمفعول محذوف للدّلالة على عموم مَن تحدّاهم مِن المُكلَّفين، وهم الإنس والجنّ. وكذلك ما تعلق بالفعل محذوفٌ للعلم به، وهو القرآن أو بعضه، كما دلّت آيات التّحدّي.

وتعجيز القرآن **وإعجازه** – مَن تحدّاهم عن الإتيان بمثله، أو مثل آيةٍ منه – **ليس مقصوداً لذاته**، بل **المقصود لازمه** وما ينتج عنه، وهو إظهار أنَّ هذا الكتاب **وَحْيٌ** مِن عند الله ﷻ، ومقتضى ذلك: إثبات صدق مَن أُنزل عليه – ﷺ– فيما جاء به قومه مِن الرِّسالة، ودعاهم إليه مِن الإسلام.[4]

---

(١) **شرح المقاصد في علم الكلام**، سعد الدين التَّفتازاني (ت٧٩١ هـ) (٢/ ١٧٧).

(٢) **العين** (١/ ٢١٥). **تهذيب اللغة** (١/ ٢١٩-٢٢٠). **لسان العرب** (٥/ ٣٦٩). **معجم اللّغة العربية المعاصرة** (٢/ ١٤٥٩).

(٣) "إعجاز"، مصدرٌ يعمل عمل فعله، أيْ إنَّه يتطلّب فاعلاً ومفعولاً، فـ«القرآن» مضاف إليه في محل رفع فاعل للمصدر "إعجاز". وأصل الجملة: يُعجز القرآنُ الخلقَ... ينظر: **النَّحو الوافي** (٢/ ٦٨).

(٤) **مناهل العرفان** (٢/ ٣٣١). ويُنظر: **عناية المسلمين بإبراز وجوه الإعجاز في القرآن**، محمد السيّد جبريل (ص٧).

(٢) فعالية التّحدّي وحِكْمته.

كان للآيات الدّاعية إلى التَّحدّي أثرٌ كبيرٌ وحِكمٌ بالغةٌ، فهي الأصل في إثبات إعجاز القرآن والعجز الأبدي عن معارضته، فضلاً عن **الهيمنة** على **العقول، وجذب النّفوس، وقهر المعرضين** عن قبول الحقِّ، إضافةً إلى **حفظ اللّغة، واستخراج علومها، والتّعرّف** على قواعد **النَّقد والتَّحكيم.**

أمّا فعالية التّحدّي، فتظهر بالنَّظر إلى **حال العرب** ومآلهم، وطبيعة النَّفس البشرية، ودور القرآن في ذلك.

بلغ **العرب قُبيل نزول القرآن** الكريم الغاية مِن **تهذيب اللّغة، وكمال الفطرة، ودقّة الحسِّ البياني،** حتى **أوشكوا** أنْ **يصيروا قبيلاً واحداً في اجتماعهم** على **بلاغة الكلمة** وفصاحة المنطق، **وإجابة دعوة فصحائهم وبلغائهم،** هذا مع **تباعد ديارهم، وتعاديهم واختلافهم؛** لأنَّ الكلام **يدفعهم** إلى المنافرة، **ويبعثهم** على المفاخرة، **وما كان** الكلام صناعة قومٍ **إلَّا وجدتهم معه** كالجُمَل المؤلفة **يردُّ بعضها بعضاً، ويدور بعضها على بعضٍ، فيكون كلّ فردٍ** منهم كأنَّه **لفظٌ حيٌّ، وكأنَّ معنى حياته في الألفاظ وفيه معاً.** وهذا **أمرٌ ثابتٌ** ليس فيه منازعةٌ، ولم يظهر في أمّة ظهورَه في جاهلية العرب قبل الإسلام.

وقد جاء القرآن الكريم أفصح كلامٍ وأبلغَه **لفظاً وأسلوباً ومعنى، ليجد السَّبيل** إلى امتلاك **الوحدة العربية** التي كانت **معقودةً بالألسنة** يومئذٍ، ومتى **امتلكها استطاع** أنْ **يصرفها ويُحدِث منها، وقد كانت رأسَ أمره وقِوَامَ تدبيره؛** لصبغتها العقلية ومعناها النَّفسي. وهو **لا ينتهي إلى هذه الوحدة ولا يستولي عليها إلَّا إذا** كان أقوى منها فيما هي قويةٌ به، **بحيث يَشعر أهلها بالعجز والضّعف والاضطراب، شعوراً لا حيلة فيه للخديعة والتَّلبيس على النَّفس.**

ومِن **الطِّباع التي جُبِلت عليها النَّفس،** أنَّها متى **خُذلت** مِن قِبَل ما **تعدُّه أكبرَ**

فخرها، وأجملَ صُنْعِها، وأعظمَ همها، وأصابها الوَهن في ذلك، وضربها الخذلانُ باليأس، فقلَّما **تنفعها** نافعةٌ أو **تعدلها** قوةٌ أخرى؛ وقلَّما تصنع شيئاً **دون التَّراجع والاسترسال** فيما انحدرت إليه ومجاوَزةِ ما لا تستطيع إلى ما تستطيع.

ومِن ثَمَّ لم **تقم للعرب** - بعد أنْ **أعجزهم القرآنُ** - **قائمةٌ** من جهة **الفصاحة** التي هي أكبر أمرهم، ومِن **جهة الكلام** الذي هو سيدُ عملهم، بل **تصدّعوا عنه**، وهم أهلُ البسالة والبأس، وهم مَساعير الحروب ومغاويرها.

حتَّى **النَّفر الذين أسلموا**، لم يستجيبوا لرسول الله ﷺ، ولم ينصروه إلَّا بعد أنْ سمعوا القرآن، **وكاثرَهم وغلبهم على أنفسهم**؛ فكانت **الكلمة منه** تقع مِن أحدهم موقع **الخطبة الطّويلة والقصيدة العجيبة** في قبيلةٍ بأجمعها؛ ولهذا قام كلّ **فردٍ منهم في نصرته** ﷺ وكأنَّه في نفسه **قبيلةٌ** في مقدار حَميّتها ونجدتها، وكأنَّما كانت **أنفسهم تحارب قبل أجسامهم**، يريدون أنْ يموتوا فيحيوا، ويريد أعداؤهم أنْ يحيوا فيموتوا...

أمَّا **حكمة التَّحدّي وذكرِهِ في القرآن**، فقد كان مِن عادة العرب أنْ **يتحدّى بعضهم بعضاً** في المساجلة بالقَصيد والخُطب؛ لأنَّ ذلك مذهبٌ مِن مفاخرهم، يستَعلون به، ويذيع لهم **حسنُ الذّكر وعلو الكلمة**؛ وهم **مجبولون عليه فطرةً**. ولهم فيه المواقف والمقامات في أسواقهم ومجامعهم، فتحدّاهم القرآن **أنْ يأتوا بمثله أو بعضه**.

وكانت **الحكمة من التّحدّي** وأنْ **يُذكر** في القرآن: أنْ **يشهد التَّاريخ** في كلّ عصر **بعجز العرب** عنه، وقد سلك إلى ذلك طريقاً، كأنَّها قضيةٌ مِن قضايا **المنطق التَاريخي**؛ لأنَّهم كانوا في العهد الذي لم **يكن للغتهم خيرٌ منه، ولا خير منهم في الطّبع والقوة**، فكانوا **مَظنّةَ المعارضة** والقدرة عليها؛ حتَّى لا يجيء

بعد ذلك **مُولَّدٌ** أو **أعجميٌّ** أو **كاذبٌ** أو **ذو غفلةٍ**، فيزعم أنَّ **العرب كانوا قادرين** على مثله، وأنَّه غيرُ معجزٍ، ولا **يعجز** عنه إلَّا **الضَّعيف**. فما **أسمى** هذه الحكمة **وأبرع** هذه **السّياسة التَّاريخية** لأهل الدَّهر!.

والطّريقة التي سلكها إلى ذلك: **قصرُ التّحدّي** على **طلب المعارضة بمثله**، ثُمَّ **بعشر** سورٍ، لا **يلتزمون فيها الحكمة ولا الحقيقة**، ليس إلَّا **النَّظم والأسلوب**، ولن تضيق أساطيرهم أنْ تسعها عشرُ سورٍ. ثُمَّ قرْنه **بالتَّأنيب والتّقريع** بالعجز عنه. **ثُمَّ استفزازهم** بعد ذلك جملةً واحدةً، كما يُنفجُ الرَّمادُ الهامدُ: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة:٢٣-٢٤]، **فقَطع لهم أنَّهم لن يفعلوا**، وهي **كلمةٌ** يستحيل أنْ تكون إلَّا **مِن الله** ﷻ، ولا **يقولها عربيٌّ أبداً**، وقد سمعوها، واستقرّت فيهم، ودارت على الألسنة، وعرفوا أنَّها تعجزُهم آخر الأبد، فما فعلوا ولا طمعوا قطّ أنْ يفعلوا.(١)

فلمَّا رأوا هِمَمهم **لا تسمو إليه، ولا تطمع فيه**، وانقطعت السّبل إلى معارضته، بذلوا له السّيف، كما **يبذل المُحرَجُ آخر وُسْعه**، وأخطروا بأنفسهم وأموالهم، وانصرفوا عن **توهين حجَّته إلى تهوينها** على أنفسهم بكلامٍ، فقالوا: **ساحرٌ، وشاعرٌ، ومجنونٌ**، ورجلٌ يكتتِب أساطير الأولين... لكن: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام:١١٥].(٢)

---

(١) بالغ في اهتياجهم وافتزازهم؛ ليُثبت أنَّ القدرة فيهم على المعارضة كقدرة الميت على أعمال الحياة: لن تكون ولن تقع، فقال لهم: "لن تفعلوا"، أي هذا منكم فوق القوة والحيلة والاستعانة والزَّمن، ثُمَّ جعلهم وقوداً، وقرنهم إلى الحجارة، ثُمَّ سمَّاهم كافرين، فلو أنَّ فيهم قوةً بعد ذلك لانفجرت، ولكنّ الرّماد غيرُ النّار.

(٢) **إعجاز القرآن والبلاغة النّبوية** للرافعي (ص١٦٦-١٧٠).

ومِن نِتاج **التّحدّي وفعاليته: حفظ العربية واستخراج علومها**، وكانت **الطَّريقة المعجزة** التي نزل بها القرآن الكريم السّبب في ذلك؛ وما كان **أصل ذلك إلَّا التَّحدّي بها**، فقد مِن **حكمة** هذا التَّحدي أنْ **يدعوهم إلى النَّظر** في **أساليبه ووجه نظمه وتدبُر طريقته**، وأنْ **يرُوزوا** أنفسهم منها، **وَيزنوها به**، حتّى إذا **استيقنوا العجز وأذعنوا له**، كان ذلك سبباً لمَن **يخلُفهم** على اللّغة إلى **استبانة** وجوه الإعجاز وفنون البلاغة، ودافعاً لهم إلى حيث بلغوا **مِن تتبع كلام العرب والاستقصاء فيه**، والكشف عن محاسنه، حتَّى اجتمعت المادة وتلاحقت الأسباب؛ ولولا ما **صنعوا لخرج النَّاس إلى العُجمَة**، ولذهبت هذه الآداب، ولَمَا بقي في الأرض إلى اليوم مَن يقول: إنَّ القرآن معجزٌ!.

وذلك لأنَّ **العرب** لم يكن لهم **مِن البلاغة إلَّا ما فُطروا عليه**، وليس لمَن **بعدهم** منه **إلَّا ما توارثوه عنهم**، وهو شيءٌ تتولاه العصور **بالتّحول والزّيغ**، وتدأب عليه **بالنَّقض والاختلاف**، حتَّى **يخرج عن أصله** إلى أنْ يكون **أصلاً جديداً**، ثُمَّ إلى أنْ تنشق منه أصولٌ أُخرى، وهي الطّريقة التي تنشأ بها اللّغات، وتذهب في الاشتقاق، فلا **يبقى على ذلك مِن البلاغة العربية** شيءٌ، إذ تكون العربية نفسها قد درست وانتثرت بقاياها.

ومِن البيِّن أنَّ أخصَّ **أسباب الارتقاء** كائنٌ في **الغَلبة والتَّميز والانفراد** حيث وُجدت، فلو **جاء القرآن** مثلَ كلام العرب في **الطَّريقة والمذهب**، والصِّفة والمنزلة، لَمَا **صَلُحَ أنْ يكون سبباً** لِمَا أحدثه، ولذهب مع كلام العرب، ثُمَّ لتدافعته العصور والدّول إنْ لم يذهب، ثُمَّ لبقي أمره كبعض ما ترى مِن الأمور الإنسانية؛ لا ينفرد ولا يستعلي.

وبهذا يبَينُ أنَّ آيات **التَّحدي هي الأصل في إثبات إعجاز القرآن**، فقد أثبت بهذه الآيات القليلة **إعجازه على وجه الدّهر**، وضَمن بما وراءها **نشأة العقول**

التي تدرك هذا **الإعجاز** وتقرّ به، وتكون مادة لتاريخه الأبدي، لا تضعف ولا تنحسم؛ وهل بعد هذا مِن ريبٍ في قول الله تعالى يخاطب نبيه ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ [هود:١].(١)

وثمَّة حكمةٌ أُخرى للتّحدّي، قرّر بها القرآن أسمى ما انتهت إليه **عقول الحكماء وأهل التَّشريع** في العصور الأخيرة؛ وهي أنَّه لا **ثقة برأيٍ** إلَّا **بعد تمحيصه ونقده**، ولن يكون **نقداً** إذا كان مِن **أنصارك ومؤازريك**، بل النَّقد ما جاء مِن **المعارضين** لك **والمنكرين** عليك. **ولا يتمّ معناه** إلَّا إذا كان مِن **أقواهم فكراً، وأصحهم رأياً**؛ فإنْ لم **ينتقدك هذا** ومثله، **فتحدّهم**، وارمِهم بالعجز إذا لم يفعلوا؛ فإنَّ **الحُجَّة** تنحاز إلى **الغالب منكما**؛ وحتَّى **الحُجّة الصَّحيحة** فإنَّها في حاجة ماسّة إلى **حُجّة أُخرى**: تؤيِّدها أو تفسِّرها أو تحدّها أو تمنع اللّبس بينها وبين غيرها، فكلّ شيءٍ، إنَّما **صحته وتمامه في معارضته ونقده، إذ المعارضة نصف الحقِّ**، وإنْ هي لم تكن حقّاً؛ لأنَّها **تُبيِّنه وتجلوه**، وتقطع عنه الألسنة.

ومِن هنا يظهر **السّر المعجز** البالغ منتهى **الدّقة** في القرآن الكريم، فهو وحده مِن دون الكتب السَّماوية والأرضية الذي **انفرد بتحدّي الخلق وإثبات هذا التّحدّي فيه**، وبذلك قرّر **أسمى قواعد الحقّ الإنساني**، ووضع الأساس **الدّستوري** الحرِّ **لإيجاد المعارضة وحمايتها**، وأقام **البرهان لمَن آمنوا** على مَن كفروا، وكان **العجز عنه حُجّةً دامغةً معها** مِن القوة كالذي مع **الحُجّة الأخرى** في إعجازه، **فسما بالحُجتين** جميعاً، وذلك هو المبدأ الذي **لا استقلال ولا حرية** بغيره، **وما الصَّوابُ** إلَّا **انتصارٌ في معركة الآراء**؛ ولا الخطأ إلَّا اندحارٌ فيها، لا أقلَّ ولا أكثر، وبهذا وحده **يقوم الميزان العقلي في هذه الإنسانية**.(٢)

---

(١) **إعجاز القرآن والبلاغة النَّبوية** (ص٢٣٩-٢٤٠).

(٢) **تحت راية القرآن** (ص٢٤١).

المطلب الثَّاني: دلائل النّبوة ومعجزات الأنبياء

وفيه مسألتان، الأولى: دلائل النّبوة وأعلامُها، والثّانية: معجزات الأنبياء عليهم الصَّلاة والسَّلام وأعلام نبوَّاتهم.

أوَّلاً، دلائل النّبوة وأعلامُها.

لم يرسل الله ﷻ نبيّاً إلَّا وأيّده بما يدلّ على صدق دعواه، وسمَّى القرآن الكريم ذلك: «آيةً، وبُرهاناً، ودليلاً، وبيِّنة»، وعبر العلماء عنه بـ «**دلائل أو أعلام النَّبوة**»، ولم يَرِدْ فيه تسميتها معجزةً، وهي مصطلحٌ استُعْمل تعبيراً عن العجز عن المعارضة. لذلك لا يُسَمّى **مُعْجِزَةً في اصْطِلاحِ المُتَكَلّمينَ إلّا ما تَحَدّى** الله ﷻ **به الخلقَ** فعجَزوا عَنْ مُعارضَتِه. أمَّا ما كان **مِن قبيل**: «حنين الجذع، ونبع الماء من بين الأصابع»، فهو **عَلَمٌ** على النّبوّة، ودليلٌ على الرِّسالة.[1] وبهذا يتبيّن أنَّ الدَّليلَ **أعمّ** مِن المعجزة.[2] والمُعْجِزات، منها **الحسيّة**، وهي ما يُدرك بالحواس. ومنها **العقليّة**، وهي ما يُدركُ بالعقل، وهي القرآن الكريم، مُعجزة خاتَم النَّبيين الخالدة.

ما يعنيه مصطلح «معجزة عقلية».

ذهب المحققون مِن العلماء إلى أنَّ الدّليل ينحصر في قسمين: **العقلي المحض. والمركب مِن العقلي والنّقلي**، ويُسمى "الدّليل النّقلي"؛ لتوقفه على

---

(١) حديث نبع الماء مِنْ بَيْنِ أَصابِعِهِ ﷺ، ترجم الإمام البخاريّ له: "**بابُ عَلاماتِ النُّبُوَّةِ** في الإسْلامِ"، وعبَّر بـ "عَلامات" لِكَوْنِ ما يورِدُهُ مِنْ ذلكَ **أعَمَّ من الْمُعْجِزَةِ** والْكَرامَةِ. والْفَرْقُ بَيْنَهُما أنَّ الْمُعْجِزَةَ أخَصُّ لأنَّهُ يُشْتَرَطُ فيها أن يتحدّى النَّبِيّ مَنْ يُكَذِّبُهُ. **فتح الباري** (٦/ ٥٨١). **وترجم القاضي عياض** (ت٥٤٤هـ) لتلك الأحاديث، بقوله: باب في معجزات النَّبيِّ ﷺ. **إكمال المعلم** (٧/ ٢٣٩).

(٢) **الرَّوْض الْأنف في شرح السِّيرَة النَّبَوِيَّة لابْنِ هِشام**، للسّهيليّ (ت٥٨١هـ) (٢/ ٢٥٥).

النَّقل في الجُملة. أمَّا **الدّليل النَّقلي المحض**، فلا يُتصور؛ لأنَّ **صِدق المُخبِرِ لا** بُدَّ منه حتّى يُفيدَ الدَّليلُ النَّقْليّ العلمَ بالمَدْلولِ، وهو **لا يَثبُتُ إلَّا بالعَقْلِ**، بأنْ ينظر في المعجزة الدَّالَّة على صدْقه، ولو أُريدَ **إثْباتُه بالنَّقْل لدار أو تَسَلْسَل**. وبناءً على هذه القسمة لا يوجد دليلٌ نقليٌ محضٌ، بل الدَّليل العقلي غير المحض هو **الدَّليل النّقلي المستند إلى العقل**.

وعليه، فـ «**معجزة عقلية**» أيْ: مستندةٌ إلى نقلٍ، وليست عقليةً محضةً. بمعنى أنَّ العقل هو الذي يُثبت صدقية النَّقل، ويُبرهن على صحة ما جاء به.[1]

ثانياً، معجزات الأنبياء وأعلام نبوَّاتهم.

خلق الله ﷻ الإنسان **واستخلفه** في الأرض: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة:٣٠] وخصَّه **بالتّكاليف** الشّرعيّة، ووهبه حرية الاختيار: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان:٣] مع تحمل تَبِعَة كسبه: ﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [المدثر:٣٨]؛ بعد أنْ زوده بما **يَميزُ به** الخَيْرَ مِن الشَّرِّ، والحَقَّ مِن الباطِلِ، وهو العقل والفطرة السّليمة -﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾

---

(١) لذلك قيل: تقسيم الأدلة إلى نقليةٍ محضةٍ، وعقليةٍ محضةٍ، ومركبةٍ مِن العقل والنَّقل، تقسيمٌ غير منضبطٍ. وقيل: قد يقسم الدّليل إلى ثلاثة أقسام، فيقال مقدماته القريبة، قد تكون **عقليةً محضة**، كقولنا: العالمُ مُتغيِّرٌ، وكلّ مُتغيِّرٍ حادثٌ. وقد تكون **نقليةً محضةً**، كقولنا: تارك المأمور به عاصٍ، لقوله تعالى: ﴿أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾ [طه:٩٣] وكل عاصٍ يستحق العقاب، لقوله: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ﴾ [الجن:٢٣]. وقد يكون **بعضها مأخوذاً من العقل وبعضها مِن النّقل**، كقولنا: هذا تاركٌ المأمورَ به، وكلّ تاركٍ للمأمور به عاصٍ. **فالمقدمة الأولى** يحكم بها العقل بواسطة الحسِّ، ولا يتوقف على النَّقل. فلا بأس أنْ يُسمى القسم الأخير بـ «المركب مِن العقلي والنّقلي»، فظهر صحة تثليث القسمة. يُنظر: **المواقف**، للإيجي (١/ ٢٠٣). **شرح المواقف**، للجرجاني (٢/ ٤٩). **كشاف اصطلاحات الفنون**، للتهانوي (١/ ٧٩٨).

وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَاهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ [البلد:٨-١٠] ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم:٣٠]- وأرسل إليه **الرّسل**: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء:١٥] ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر:٢٤]= وكانوا من **جنسه**؛ لأنَّ الجِنْسَ إلى الجِنْسِ أميلُ، وبه آلفُ، ومِن **أقوامهم**؛ لأنَّهم بهم أعرفُ، **وبلسانهم**؛ لأنَّه أبيَنُ لهم: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم:٤]= **مؤيَّدين** بالمعجزات الظَّاهرة والدّلائل الباهرة، تثبت صدق ما جاءوا به ودعوا إليه؛ ليبين الحقّ ويَميز صواب العمل، ولتُسوّى الحقوق ويقام العدل: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ [الحديد:٢٥].

فهذا **نوحٌ** عليه السلام بعد أنْ أعلَمه ربّه جل جلاله: ﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ أمرَه: ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾، ولمَّا طَفِقَ يَصْنَعُها هزِئوا منه: **أتحوّلت نجاراً** بعد النُّبوّة، **تصنع سفينة في البرِّ**؟: ﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ﴾، فيُجيبهم **إجابة الواثق بوعد** الله عز وجل: ﴿إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾، وما إنْ **فرغ مِن بنائها** حتّى **توالت الأحداث**: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ﴾... إلى قوله: ﴿قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ﴾... الآيات [هود:٣٧-٤٣].

وأرسل ﷻ إلى **ثمودَ أخاهُم صالِحاً** عليه السلام: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥ﴾... الآيات، وجعل **آيته خروجَ ناقةٍ** مِن صخرةٍ صماء على ألَّا يمَسُّوها بِسوءٍ، وإلَّا أُخذوا بعذابٍ أليمٍ: ﴿فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوۡاْ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِمۡ وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٧٧ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ﴾ [الأعراف:٧٧-٧٨].

وأظهر الله ﷻ على **يد خليله إبْراهيمَ** عليه السلام **آياتٍ ودلائل عظمية**، منها:

بشارته بغلام تلده زوجته العجوز. ﴿وَلَقَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُنَآ إِبۡرَٰهِيمَ بِٱلۡبُشۡرَىٰ﴾.. إلى قوله تعالى: ﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتۡ فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ ٧١ قَالَتۡ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٞ وَهَٰذَا بَعۡلِي شَيۡخًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عَجِيبٞ ٧٢ قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾... الآيات [هود:٦٩-٧٣].

و**إحياء الطّير** له: ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيۡفَ تُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ قَالَ أَوَلَمۡ تُؤۡمِنۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطۡمَئِنَّ قَلۡبِيۖ قَالَ فَخُذۡ أَرۡبَعَةٗ مِّنَ ٱلطَّيۡرِ فَصُرۡهُنَّ إِلَيۡكَ ثُمَّ ٱجۡعَلۡ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٖ مِّنۡهُنَّ جُزۡءٗا ثُمَّ ٱدۡعُهُنَّ يَأۡتِينَكَ سَعۡيٗاۚ وَٱعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾ [البقرة:٢٦٠].

ومِن أبرز ما أجراه الله عليه مِن خوارق العادات أنَّه بعد **عيبه آلهتهم**: ﴿أَفَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يَضُرُّكُمۡ ٦٦ أُفّٖ لَّكُمۡ وَلِمَا تَعۡبُدُونَ﴾... وانتصارهم لها: ﴿قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمۡ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ﴾، **جاء الأمر الإلهي**: ﴿قُلۡنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ٦٩ وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَخۡسَرِينَ﴾ [الأنبياء:٦٦-٧٠].

وأُوتي موسى عليه السلام تِسْعَ آياتٍ شاهدةٍ على صدقه: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ [الإسراء:١٠١]، وأشهرها **العَصا**: ﴿فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ ۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ﴾ [طه:٢٠-٢١]، وكان السَّحرة قد **دعوا موسى** عليه السلام إلى النِّزال: ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ﴾... إلى قوله: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ﴾ الآيات [الأعراف:١١٥-١١٩].

وأُوتيَ سُلَيْمانُ عليه السلام - وقد كان **مَلِكاً نبيّاً - ضُروباً مِن خوارق الأسبابِ** تنقض ما كان يُعتَقَد في عصره مِن تلازم **الأَسْبابِ والمُسَبَّباتِ**، وهو ما عُرِف **بالحتميّة السَّببية**، فأجرى الله ﷻ على يديه **الرّيح**، غدوّها شهرٌ ورواحها شهرٌ،[1] وسخَّر له **الجنّ**، وجاءه **عرش بلقيس** قبل أنْ يرتدَّ إليه طرْفه، وعلَّمه منطق الطَّير، وأسمعه حديث النَّمل، فكان كلّ شيء في حكمه **بخوارق العادات**، أو **بخرق نظام الأسباب والمُسبَّبات** العادية التي بُنيت عليها نظرية أنَّ المخلوقات نشأت عن الموجد الأوَّل **نشوء العلة عن معلولها**، فكانت حياةُ نبيِّ الله سُلَيْمانَ عليه السلام تجري في ملكه على هدم هذا النَّظر، وقد تحدَّثت الآيات عن ذلك: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ﴾... إلى قوله: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ﴾... الآيات [النمل:١٦-٢٢].[2]

---

(١) قال قتادة: تغدو مسيرة شهر وتروح مسيرة شهر، قال: مسيرة شهرين في يوم. **جامع البيان** (٢٠/ ٣٦٢).

(٢) يُنظر: **المعجزة الكبرى القرآن** (ص٢٩٢).

وكانت ولادة عيسى عليه السلام إبطالًا صارخاً لهذه النَّظرية، فإنَّ المعتاد في حياة المخلوقات، ومنها الحياة الإنسانيّة أنْ الولد يُولد مِن أبوين، وكما عبَّر القرآن: ﴿مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ﴾ [القيامة:٣٧] فجاء عيسى عليه السلام مِن غير أبٍ، وكان ذلك خرقاً للأسباب الطّبيعية الجارية، وأمراً **غريباً** على مريم البتول: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾... ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾... ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾... الآيات [مريم:١٧-٢١].

المبحث الثَّاني

التَّعريف بمصطلحاتٍ ذات صلةٍ

ثمَّةَ مصطلحاتٌ لها صلة بالمُعجزة، مِنها **السِّحر والكرامة**.[1] وفيما يأتي التّعريف بها والفروق بينها، وبيان الماهية والحكم والحدّ.

١) تعريف المصطلحات والفروق بينها.

المعجزة، كما سبق: أمرٌ خارقٌ للعادة، **مقرونٌ بالتّحدّي**، يُجريه الله تعالى على يد **نبيٍّ**.

والكرامة، أمرٌ خارقٌ للعادة، غير **مقرونٍ بالتّحدّي**، يختصّ به الله ﷻ بعض **أوليائه**.

والسَّحر، أمرٌ **ظاهره خرقٌ للعادة** وباطنه **مهارةٌ مكتسبةٌ**، وعُلمٌ مُتَلقّىً. فيطلقُ على ما عُلِمَ ظاهِرُه وخَفِيَ سَبَبُهُ، وهو اسْمٌ جامِعٌ لمَعَانٍ مُخْتَلِفةٍ.[2] وعرَّفه **الفخر الرّازي** (ت٦٠٦هـ)، أنَّه في عُرْف الشَّرْعِ مختصٌّ بكُلِّ أمْرٍ **يخفى سببه، ويُتَخَيَّلُ** على غير حقيقته، ويجْرِي مَجْرَى **التَّمْويه** والخدَاعِ، ومتى **أُطْلِقَ** ولم يُقَيَّدْ أفَادَ **ذمَّ** فاعله.[3]

---

(١) الخارق للعادة سبعةٌ، وإضافة إلى ما ذُكر أعلاه: **الإرهاص**: ما يظْهر للنَّبي قبل بعثته، كتظليل الْغَمَام لرَسُول الله ﷺ. **والمعونة**: ما يظهر مِن قِبل العوام تخليصاً لهم عن المحن والبلايا. **والإهانة**: ما يظهر على يَد من يَدّعِي النّبُوَّة، كَمَا هُوَ الْمَشْهُور عَن مُسَيْلمَة الْكذَّاب أَنه دَعَا لأعور أن تصير عينه العوراء صَحِيحَة فَصَارَت الصَّحِيحَة عوراء. **والاستدراج**: أَن يُعْطي الله العَبْد كل مَا يُرِيدهُ فِي الدُّنْيَا لِيَزْدَادَ غيه وضلاله وجهله وعناده فَيَزْدَاد كل يَوْم بعداً مِن الله تعالى. يُنظر: **التعريفات** (ص٢٠-٢١٩). **الكليات** (ص٧٨-١١٣). **جامع العلوم في اصطلاحات الفنون** (١/ ١٤٣).

(٢) **الأُم** للشَّافعيّ (٢/ ٥٦٦).

(٣) **مفاتيح الغيب** (٣/ ٦١٩).

وإنْ **اتفقت هذه المصطلحات** مِن حيث **غرابة الفعل**، فهي **تفترق** مِن حيث الحدوث والإمكان والشّخوص والشّروط والماهية.

فمِن حيثُ الحدوث والإمكان، المعجزة **غير مُتاحةٍ لكلّ النَّاس**، بخلاف الكرامة والسّحر فهما أكثر إتاحةً.

ومِن حيثُ الشّخوص، فالمعجزة **لنبيٍّ مُختارٍ**، والكرامة **لوليٍ صالحٍ**، والسِّحر **لرجلٍ فاجرٍ**. إضافة إلى شروطٍ أُخرى يفترق فيها النَّبيّ عن الوليِّ والسَّاحر. وقد نقل إمَام الحَرمَيْن (ت٤٧٨هـ) الإجْماع على أنَّ السِّحْر **لا يظهرُ إلَّا مِنْ فاسقٍ**، وأنَّ **الكرامة** لا تظهر على **فاسقٍ**. وعلى هذا، ينْبغِي أنْ **يُعْتبرَ بحال مَن يقع الخارق منه**، فإنْ كان **مُتمَسِّكاً** بالشّريعة، **مُتَجَنِّباً** للمُوبقات، فالذي يظهر على يده مِن الخوارق **كرامةٌ**، وإلَّا فهو سِحْرٌ؛ لأنَّهُ ينشأُ عن أحد أنواعه، كإعانة الشَّياطين.[1]

ومِن حيث الشّروط في المعجزة والكرامة، الأنبياء عليهِم الصَّلاة والسَّلام **مأمورون بإظهارها**، والولي يجب عليه **سترها وإخفاؤها**، والنَّبيّ **يدَّعي ذلك**، ويتحدّى بها، ويُقطعُ القولُ بنبوته، والولي **لا يدَّعيها**، ولا يُقْطعُ بكرامته؛ لجواز أنْ يكون ذَلِكَ **مَكراً واستدراجاً**، فيغترّ بها وبنفسه.[2]

ومِن حيثُ الماهية، ففي حين كون المعجزة والكرامة **خارقين للعادة**، يبدو **السَّحر** أنَّه كذلك، وفي واقع الأمر ليس **خارقاً للعادة**، أيْ السّنن الكونيّة، ويحصل **بمُعاناة أقوالٍ وأفعالٍ** حتّى يَتِمَّ للسَّاحر ما يُرِيدُ، بخلاف **المعجزة والكرامة**، **فإنَّهما** يقعا اتفاقاً.

---

(١) يُنظر: **الفروق** للقرافي (٤/ ١٩٥). **فتح الباري** (١٠/ ٢٢٣).

(٢) **الرِّسالة القشيريّة** (٢/ ٥٢١). ويُنظر: **فتح الباري** (١٣/ ٣٦٤).

وكون السّحر ليس خرقاً للعادة – في حقيقته – بل يُتوصل إليه بالعلم والاكتساب، لا يتعارض مع القول بأنَّ الخارق قد يظهر على يَدِ المُبْطِلِ: مِن سَاحِرٍ وكاهِنٍ وراهِبٍ؛ لأنَّه ساعتئذٍ يكون مِن باب الفتنة أو الاستدراج، وليس مِن السِّحر أو الكرامة، كالخوارق التي تقع للدَّجال حين نزوله.[1] أو مِن المعونة التي تحصل لعاصٍ تخليصاً له مِن محنةٍ أو كربٍ.[2] فانخراق العادة لهؤلاء مُسَلَّمٌ به عقلاً، ما لم يصاحبها ادِّعاء النّبوة.[3]

٢) ماهية السّحر، وضروبه.

اختُلِفَ في ماهية السّحر، فقيل: هو تخييلٌ لا حقيقة له. وقيل: له حقيقةٌ، وعليه عامَّة العلماء؛ لأنَّ الله ﷻ ذكَرَه في كتابه العزيز، وأنّه ممَّا يُتَعَلَّم، وذكرَ ما يشير إلى أنّه ممَّا يُكفَّرُ به، ويُفَرَّق به بين المرء وزوجِه. وهذا كلُّه ممَّا لا يمكن أنْ يكون فيما لا حقيقة له، وكيف يُتعلَّم ما لا حقيقة له؟.[4]

وحرَّر الحافظ ابن حجر (ت٨٥٢هـ) محلَّ النِّزاع: هل يقع بالسِّحر انقلابُ عينٍ أم لا؟. فمَن قال إنَّه تخييلٌ فقط منع ذلك، ومَن قال إنَّ له حقيقةً، اختلفوا، هل له تأثيرٌ فقط بحيث يغيِّر المزاج فيكون نوعاً مِن الأمراض. أو ينتهي إلى الإحالة بحيث يصيرُ الجمادُ حيواناً مثلاً، وعكسه؟. فالذي عليه الجمهور هو الأوَّل، مِن ذلك أنَّ لبعض أصنافه تأثيراً في القلوب، كالحبّ والبغض، وإلقاء

---

(١) حُسنُ التّنبه لمَا ورد في التّشبه نجم الدِّين الغزّي (ت١٠٦١هـ) (٧/ ٢٤٦).

(٢) بهجة المحافل وبغية الأماثل يحيى بن محمد بن يحيى العامريّ (ت٨٩٣هـ) (١/ ٧٤).

(٣) المُفْهِم لمَا أشكل من تلخيص كتاب مسلم أبو العباس القرطبي (ت٦٥٦هـ) (١٨/ ٥٧).

(٤) قاله المَازريّ (ت ٥٣٦هـ) المُعْلم بفوائد مسلم (٣/ ١٥٨).

الخير والشَّر، وفي **الأبدان** بالألم والسّقم، والمنكور أنْ **ينقلب الجماد حيواناً** - أو عكسه- بسحر السَّاحر، ونحو ذلك.[1]

وذهبت **طائفةٌ** قليلةٌ إلى **الثَّاني** -أي ينتهي إلى الإحالة- فهذا إنْ كان بالنَّظر إلى **القُدرة الإلهية**، فمُسَلَّمٌ، وإنْ كان بالنَّظر **إلى الواقع**، فهو **محلّ الخلاف**، فإنَّ كثيراً ممَّن يدَّعي ذلك لا يستطيع إقامة البرهان عليه.[2]

وللسِّحر ضروبٌ، منها:

- **خِدعٌ وتخْيِيلاتٌ** لا حقيقة لها، نحو ما يفعله المشَعْبِذُ بصَرْف الأبصار عمَّا يفعله لِخِفَّة يده. وعلى ذلك قوله ﷻ: ﴿سَحَرُوٓاْ أَعۡيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسۡتَرۡهَبُوهُمۡ﴾ [الأعراف:١٦].

- ما **يُستَجْلبُ بمُعَاوَنَة الشَّيَاطِين** بضَرْبٍ مِنَ التَّقَرُّب إليهم، كما في قوله ﷻ: ﴿هَلۡ أُنَبِّئُكُمۡ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ٢٢١ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ [الشعراء:٢٢١-٢٢٢].

- ما يكون **بالاسْتِعَانَةِ بخَوَاصِّ الأشياء**، كالأدوِيةِ والعقَاقِير.[3]

وبيَّن **أبو العباس القُرْطُبيّ** (ت٦٥٦هـ) ماهية السّحر ومادته وضروبه، بقوله: «السِّحْرُ: **حيلٌ صناعيّةٌ** يُتَوَصَّلُ إليها **بالتَّعلّم والاكتساب**، غير أنَّها **لخفائها ودقَّتها** لا يَتوَصَّلُ إليها إلَّا **آحادُ النَّاس**، فينْدرُ وقوعُها، وتُسْتَغربُ آثارها

---

(١) **المُفْهم لمَا أشكل من تلخيص كتاب مسلم** (١٨/ ٥٧).

(٢) **فتح الباري** (١٠/ ٢٢٢).

(٣) يُنظر: **تفسير الرَّاغب الأصفهانيّ** (١/ ٢٧٤) **مفاتيح الغيب** (٣/ ٦٢٥).

لنُدورِها. **ومادَّته** الوقوفُ على **خواص الأشياء**، والعلمُ بوجوه تركيبها وأزمانُ ذلك. وأكثرُه **تخْيِيلاتٌ بغيرِ حقيقةٍ، وإيهامَاتٌ بغيرِ ثُبوتٍ**، فتعْظُمُ عند مَن لا يعرفُها، وتشْتبِه على مَن لا يقفُ عليها. ولذلك قال ﷻ: ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ [طه:٦٦]، مع أنَّه كان في **عين النَّاظر** إليه عظيماً. كما عبر القرآن عنه: ﴿وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف:١١٦]؛ لأنَّ الحِبال والعِصِيّ لم **تخرج عن حقيقتها**، بخلاف **عصا** موسى ﷺ، فإنَّها **انقلبت ثعباناً** مُبِيناً، خرقاً للعادة، وإظهاراً للمعجزة».[1]

٣) حكم الكرامة، وحدّها، وموجب تقييدها.

حُكمُها، أنكرَ **المُعْتَزِلَةُ** الكرامةَ – وعلّلوا ذلك بأنَّهُ لو جاز ظهور **الخارق** في حقِّ الوَليِّ، لخرج عن كوْنهِ **دليلاً** على النّبُوَّةِ. **وأُجِيب** بأنَّ المُعْجِزَةُ تَمْتَازُ **باشْتِرَاطِ الدَّعْوَى** في المُعْجِزَةِ وعدم اشْتِرَاطِهَا في الكرامة[2] – وأثبتها عامَّةُ العلماء **بأدلةٍ مِن الكتاب والسّنّة**.

حدّهُا، أطْلقَ بعضُهم القولَ: ما جاز أنْ يكون **مُعجزةً لنَبيٍّ**، صحَّ أَنْ يَكُونَ **كرامةً لوَلِيٍّ**.[3] **وقيَّدها محقّقون** مِن العلماء، كأبي **إسحاقٍ الإسْفرايِينيّ** (ت ٤١٨هـ) بأَلَّا تكون **مِن جنس ما هو معجزة** للأنبياء، وأنَّ الأولياء لهم كراماتٌ **شبه إجابة الدّعاء**؛ لأنَّ المعجزات **دلالات صدق** الأنبياء، **ودليل النّبوة**

---

(١) **المُفْهِم لِمَا أشكل مِن تلخيص كتاب مسلم** (٥/ ٥٦٩). **فتح الباري** (١٠/ ٢٢٢).

(٢) **مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح** (٩/ ٣٨٣٥).

(٣) هذه دعوى لا دليل عليها. **الإنصاف في حقيقة الأولياء وما لهم من الكرامات والألطاف**، محمد بن إسماعيل الأمير الصّنعانيّ (ت١١٨٢هـ) (ص ٦٥).

لا يوجد مع غير النَّبيِّ.[1]

وخصّها أبو **القاسم القُشَيْرِيِّ** (ت٤٦٥هـ) بأنْ لا تكون بمَا **وقعَ به التَّحَدِّي** لِبعض الأنبياء. فقد تكون **إجابةَ دعوةٍ، أو إظهارَ طعامٍ** في أوانٍ فاقةٍ مِن غير سببٍ ظاهرٍ، أوْ **حصولَ ماءٍ** في زمان عطشٍ، أوْ **تسهيلَ** قطع مسافةٍ في مدّةٍ قريبةٍ، أوْ **سماعَ خطابٍ** مِن هاتفٍ، أو غير ذلك مِن **فنون** الأفعال **النَّاقضة للعادة**. وإنَّ كثيراً **مِن المقدورات** يُعلَمُ اليوم قطعاً أنَّهُ لا يجُوز **أنْ يظهرَ كرامةً للأولياء**، بضرورةٍ أَوْ شبه ضرورةٍ، **منها**: حصولُ إنسان **مِن غير أبوين**، وقلبُ **جمادٍ بهيمةً**، وأمثالُ ذلك.[2]

وتابعه، تاج الدِّين السّبكيّ (ت٧٧١هـ)؛ حيث قال: «وهذا حقٌّ **يُخَصِّصُ قوْل** غيره: ما جازَ أنْ يكُونَ مُعْجِزَةً لِنَبِيٍّ، جازَ أنْ يكون كرامةً لِوَلِيٍّ، لا فارق بينهما إلَّا التَّحَدِّي».[3]

ورجَّحه الحافظ **ابن حجر** (ت٨٥٢هـ)، بقوله: «وهذا **أَعْدَلُ المذاهِبِ** في ذلك... وانحصرَ الخارِقُ الآنَ فِيمَا **قالهُ القُشَيْرِيّ**، وتعيَّنَ تقْيِيدُ قوْل مَنْ أطلق ذلك».[4]

مُوجبُ تقييدها: ما قد **يلزم** أو **ينتج** عن إطلاق القول بوقوعها؛ لضبط

---

(١) قال أبو القاسم القشيريّ: تكلَّم النَّاس فِي الفرق بَيْنَ الكرامات وبين المعجزات مِن أهل الحقِّ، فكان أَبُو إسحاق الإسفراييِنيّ، يَقُول... **الرِّسالة القشيرية** (٢/ ٥٢٠). **حاشية الطِّيبيّ على الكشاف** (١٦/ ٧٥).

(٢) **الرّسالة القشيريّة** (٢/ ٥٢٣).

(٣) **حاشية العطار على شرح الجلال المحلّي**، حسن بن محمد العطَّار (٢/ ٤٨١).

(٤) **فتح الباري** (٧/ ٣٨٣). يُنظر: **الإنصاف في حقيقة الأولياء** (ص٦٢).

حدّها، ومنع الشّطط في ادعائها أو في نسبتها، خاصَّة **ممَّن يُجوِّزُون المُجاهرة** فيها، والإعلان بها. فجائزٌ لأحدهم أنْ يدّعي انفلاق البحر له، أو إحياء موتى، أو العروج إلى السَّماء... أو **نسبة ذلك** إلى أعيانٍ مِن غير الأنبياء.[1]

ومِن **تلك الدَّعاوى**، ما قيل: "الكرامةُ جائزَةٌ وواقعةٌ، ولو **باختيارِهم**. ولا فرقَ في وقوعِها بين **كوْنِ الوليِّ حَيّاً**، أو **ميّتاً**، خلافاً لِمَنْ منعها بعد الموت، فإنَّه لا وجْه له".[2] وفي هذا **إثبات خصائص للأولياء** ما ليس للأنبياء، **وبيان ذلك**:

١- لا تقعُ المُعجزةُ **باختيار** النَّبيِّ **وإرادته**، والآيات صريحة في ذلك، كقوله ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [الرّعد:٣٨، غافر:٧٨]، وقوله: ﴿قَالُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [إبراهيم:١٠-١١]، هذا في عموم النّبوَّات، أمَّا **ما يخُصّ خَاتَمَ النَّبيِّين** ﷺ، فـ كقوله ﷻ: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ ۚ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾

---

(١) أمثال هذه الدّعاوى قائمة في واقع الحال. يُنظر: **طبقات الشّعرانيّ**، عبد الوهاب (ت ٩٧٣هـ). **قلادة الجواهر في ذكر الغوث الرّفاعي وأتباعه الأكابر**، أبو الهدى الصَّياديّ (ت ١٣٢٨هـ). **كتاب جامع كرامات الأولياء**، يوسف النَّبهانيّ (ت ١٣٥٠هـ). **المواهب السّرمديّة في أجلَّاء السَّادة النَّقشبنديّة**، محمد أمين الكرديّ الإربيلي.

(٢) **حاشية العطَّار على شرح الجلال المحلّي على جمع الجوامع**، حسن بن محمد العطّار الشَّافعي (ت١٢٥٠هـ) (٢/ ٤٨١). وقد نُقل عن السيّوطيّ أنَّه قال: لا **ينقطع تصرفهم وكراماتهم بالموت**. مُعللاً ذلك بأنَّ مرجع الكرامة إلى قدرة الله تعالى، ولا يمتنع شيءٌ على قدرته وإرادته. **الإنصاف في حقيقة الأولياء** (ص٧٠). ومِن المعلوم أنَّ الإمكان وعدم الامتناع ليس دليلاً كافياً، فالوقوع لا بدَّ له مِن دليل مُستقلٍ.

[العنكبوت:٥٠]، وقوله ﷻ: ﴿ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُواْ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَآ ۚ قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّي ﴾ [الأعراف:٢٠٣].

٢- لم يدَّع أحدٌ وقوع معجزات للأنبياء بعد موتهم، فهل خُصَّ الأولياء بما لم يخصّ به الأنبياء؟.

٣- هذا قولٌ مخالفٌ لِمَا قاله المحققون - كابن فُوْرَك (ت ٤٠٦هـ) - أنَّ للكرامة فعلاً ناقضاً للعادة **في أيَّام التَّكليف**.[١]

وممَّا يجبُ التَّنويه إليه أنَّ ما لا سند له مِن الرّوايات -ومثلها الكرامات - لا قيمة له؛ لأنَّه لولا الإسنادُ لقال مَن شاء ما شاء،[٢] وبالتَّالي: ما **لا ثبوت له، فلا قيمة له**؛ ممَّا يستدْعي الحيطة، بألّا يُروى منها إلَّا ما له سندٌ مقبولٌ.

ومِن جهةٍ ثانيةٍ، تعبَّدنا الله ﷻ **بالاستقامة**، ولم يتعبَّدنا **بطلب الكرامة**؛ لذلك قيل: **الاستقامةُ عينُ الكرامة**. وفي هذا يقول أبُو عليٍّ **الجوْزجَانيّ** (ت ٢٨٢هـ): «كُنْ **صاحبَ الاستقامة** لا طالِبَ الكرامة، فإنَّ نفسك متحركةٌ في طلب الكرامة، وربّك ﷻ يُطالبك بالاستقامة».[٣]

وممّا يستدلّ به على ضرورة **اشتراط صحة** ما يُروى مِن كرامات، أنَّ أُناساً تجاسروا على النَّبيِّ ﷺ، فكذبوا عليه، منهم عدولٌ غيرُ مُتَّهمين في دينهم،[٤]

---

(١) **الرّسالة القشيريّة** (٢/ ٥٢٠).

(٢) قاله عبد الله بن المبارك. **معرفة علوم الحديث** (ص٤٢). **الكفاية في علم الرّواية** (ص٣٩٣).

(٣) **الرِّسالة القشيريّة** (٢/ ٣٥٧). وأبو علي الجوزجانيّ: الحسن بن أبي جعفر: محمد بن يحيى. **المتفق والمفترق** (١/ ٦٧٧).

(٤) قال يَحْيَى بْن سَعِيدٍ الْقَطَّانِ: «لَمْ نَرَ الصَّالِحِينَ فِي شَيْءٍ أَكْذَبَ مِنْهُمْ فِي الْحَدِيثِ». قال مُسْلِمٌ: يقول: «يَجْرِي الْكَذِبُ عَلَى لِسَانِهِمْ، وَلَا يَتَعَمَّدُونَ الْكَذِبَ». **مسلم**، المقدمة، بَابُ الْكَشْفِ عَنْ مَعَايِبِ رُوَاةِ الْحَدِيثِ وَنَقَلَةِ الْأَخْبَار، (٦).

وحُجّتهم الدَّاخضة: «نحن نضع للدِّين ولا نضع عليه»؛ لكن العلماء قالوا: «من وضع للدِّين كمن وضع عليه»؛ لاكتمال أحكامه، وكفاية نصوصه. فإذا كان **رسول الله** ﷺ، مع **توعده**: «مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»، **وتحذيره**: «إِنَّ كَذِباً عَلَيَّ لَيْسَ كَكَذِبٍ عَلَى أَحَدٍ»،[1] **اختُلق عليه**، فاختلاقُ أمورٍ ونسبتها إلى مَن هم دونه، أهونُ وأيسر، **هذا مِن جهةٍ. ومِن جهةٍ أُخرى**، تدفع العاطفة ومحبّة غرائب الأمور إلى التّزّيد والمبالغة في نقل مثل هذه الأخبار، ولا عاصم مِن ذلك إلَّا اشتراط صحة السَّند. والتَّهويل والتَّفخيم والتَّزيد لا يأتي مِن صاحب الكرامة - لأنَّ مِن شرطها الخفاء وعدم الإعلان - إنَّمّا يأتي مِن الاتباع والمُريدين غالباً...

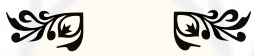

(١) **البخاري**، كِتَابُ الجَنَائِزِ، بَابُ مَا يُكْرَهُ مِنَ النِّيَاحَةِ (١٢٩١) وأَحَادِيثِ الأَنْبِيَاءِ، بَابُ مَا ذُكِرَ عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ (٣٤٦١).

وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

المبحث الثَّالث

معجزة خاتَمِ النَّبيِّين ﷺ ودلائل نبوته

ختم الله ﷻ الرّسالات، وأتمّ النّبوات، كما أخبرت الآيات: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب:٤٠]، **وأفادته** الأحاديث، فعن أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، أَنَّ رَسولَ اللهِ ﷺ، قال: «إِنَّ مَثَلي وَمَثَلَ الأَنْبياءِ مِنْ قَبْلي، كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى بَيْتًا فَأَحْسَنَهُ وَأَجْمَلَهُ، إِلَّا مَوْضِعَ لَبِنَةٍ مِنْ زاوِيَةٍ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَطوفونَ بِهِ، وَيَعْجَبونَ لَهُ، وَيَقولونَ هَلَّا وُضِعَتْ هَذِهِ اللَّبِنَةُ؟ قالَ: فَأَنا اللَّبِنَةُ وَأَنا خاتَمُ النَّبِيِّينَ».[1] وفيما يأتي، في المطلب الأوّل: دلائل نبوته ﷺ وتحقق شرائط الإعجاز. وفي المطلب الثّاني: ثبوت إعجاز القرآن الكريم.

المطلب الأوَّل: دلائل نبوته ﷺ وتحقق شرائط الإعجاز

للمصطفى ﷺ خصائص انفرد بها؛ وذلك بسبب ختم النّبوة، وديمومة الرّسالة، وعمومها؛ ولأنَّه لا يُقبل مِن أحدٍ بعد بعثته ﷺ إلَّا الإسلام: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران:٨٥]، **حَبَاه** الله ﷻ - فضلاً عن المعجزات الحسيّة - بمعجزةٍ عقليّةٍ.

أمَّا الحسيّة، فقد شارك رسول الله ﷺ غيره مِن الأنبياء بأنْ أُوتِيَ معجزات عاينها مَن حضرها مِن صحابته الكرام، حصلت في أوقاتٍ محدّدةٍ وأحوالٍ خاصّةٍ، نقلت بأسانيد بعضها صحيحٌ، وبعضها دون ذلك. منها: نبع الماءِ مِن

---

(١) **البخاريّ**، كِتابُ المَناقِبِ، بابُ خاتِمِ النَّبِيِّينَ ﷺ (٣٥٣٥). **مسلم**، كتاب الْفَضائِلِ، بابُ كَوْنِهِ ﷺ خاتَمَ النَّبِيِّينَ (٢٢٨٦).

بينِ أصابعِه،[1] وتسبيح الحصا في يده،[2] وانشقاق القمر في عهده.[3] وهذا الصّنف مِن المعجزات مِن أعلام النّبوة ودلائلها - ومثلها الإخبار عن الغيوب - لا تحمل صفة التّحدّي والدّعوة إلى المعارضة، بل جاءت لترسيخ الإيمان وتثبيته في قلوب المؤمنين.

أمَّا العقليّة، فقد **اخْتُصّ بها** رسول الله ﷺ دون سائر الأنبياء والرّسل؛ **لأنَّ ختمَ النُّبوةِ، وعمومَ الرّسالة في الزّمان والمكان** يُوجبان بقاء دلائل النّبوة واستمرارها، والمتمثلة في **القرآن الكريم**؛ مِن حيث نظمه وتأليفه، ونهجه

---

(١) قال ابنُ مسعود ﷺ: كُنَّا نَعُدُّ الآياتِ بَرَكَةً، وَأَنْتُمْ تَعُدُّونَها تَخْويفاً كُنَّا مَعَ رَسولِ اللهِ ﷺ في سَفَرٍ فَعَزَّ الْماءُ فَقالَ: «اطْلُبوا فَضْلَةً مِنْ ماءٍ» فَأُتِيَ بِها في إِناءٍ قَليلٍ فَأَدْخَلَ رَسولُ اللهِ ﷺ يَدَهُ في الإِناءِ، ثُمَّ قالَ: «حَيَّ عَلَى الطَّهورِ الْمُبارَكِ، والْبَرَكَةِ مِنَ اللهِ» فَلَقَدْ رَأَيْتُ الْماءَ يَنْبُعُ مِنْ بَيْنِ أَصابِعِ رَسولِ اللهِ ﷺ حَتَّى ارْتَوَيْنا، وَقَدْ كُنَّا نَسْمَعُ تَسْبيحَ الطَّعامِ وَهوَ يُؤْكَلُ. **البخاري**، كِتابُ المَناقِبِ، بابُ عَلاَماتِ النُّبُوَّةِ في الإِسْلاَمِ (٣٥٧٩). **مسلم**، كتاب الفضائل، باب في معجزات النّبيّ ﷺ (٢٢٧٩).

(٢) عَنْ أَبي ذَرٍّ ﷺ قالَ: «كُنَّا جُلوساً مَعَ النَّبيِّ ﷺ فَأَخَذَ حَصَياتٍ في كَفِّهِ فَسَبَّحْنَ ثُمَّ وَضَعَهُنَّ في الْأَرْضِ فَسَكَتْنَ ثُمَّ أَخَذَهُنَّ فَسَبَّحْنَ». **دلائل النُّبوة** لأبي نُعيم الأصبهانيّ (٣٣٩). وللحديث شواهد عدة يُنظر: **شرح أصول اعتقاد أهل السُّنة والجماعة**، أبو القاسم اللَّالَكائِيّ (ت٤١٨هـ) (١٤٨٥). **دلائل النُّبوة** للبيهقيّ (ت ٤٥٨ هـ) (٦/ ٦٥).

(٣) عن ابْنِ عُمَرَ في قوله تعالى: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾ [القمر:١]، قالَ: قَدْ كانَ ذَلِكَ عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ، انْشَقَّ فَلْقَتَيْنِ مِنْ دونَ الْجَبَلِ، وَفَلْقَةً مِنْ خَلْفِ الْجَبَلِ، فَقالَ: «اللَّهُمَّ اشْهَدْ». **البخاريّ**، كِتابُ المَناقِبِ، بابُ سُؤالِ المُشْرِكينَ أَنْ يُرِيَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ آيَةً (٣٦٣٦). **مسلم** كتاب صفة القيامة، باب انشقاق القمر (٢٨٠٠). وعَنْ ابْنِ مَسْعودٍ ﷺ، قال: «انْشَقَّ الْقَمَرُ عَلَى عَهْدِ رَسولِ اللهِ ﷺ، فَقالَتْ قُرَيْشٌ: هَذا سِحْرُ ابْنِ أَبي كَبْشَةَ. قالَ: وَقالوا: انْتَظِروا ما تَأْتيكُمْ بِهِ السُّفَّارُ فَإِنَّ مُحَمَّداً لا يَسْتَطيعُ أَنْ يَسْحَرَ النَّاسَ كُلَّهُمْ. قالَ: فَجاءَ السُّفَّارُ فَقالوا ذاكَ». **مسند أبي داود الطّيالسيّ** (٢٩٣) ويُنظر: **الاعتقاد**، للبيهقيّ (ص٢٦٩). ونسبوه لأَبي كَبْشَةَ قيل: لأنّه كان جداً من أجداده لأُمّه، وقيل: رجل من خُزاعَة عَبَدَ الشِّعْرَى مخالفاً لقومه في عبادة الأوثان، فشبهوه به من حيثُ خالفَهم في الأَوثان. يُنظر: **المُعْلِم بفوائد مُسلم** (٣/ ٢٩).

وبيانه، وسائر وجوهه. فهو **معجزةٌ عامّةٌ**، عمَّت الثّقلين، وباقيةٌ بقاء الدّهرين، ولزوم الحُجَّة بها في أوَّل وقت ورودها إلى يوم القيامة على حدٍّ سواءٍ.(١)

تحقق شرائط الإعجاز في القرآن الكريم

المعجزة الكبرى والآية الخالدة التي تحمل التّحدي وتدعو إلى المعارضة، القرآن الكريم، جميع شرائط الإعجاز - التي سبق ذكرها - **مُتحققةٌ** فيه، وعلى النّحو الآتي:

١- **خرق العادة الجارية**، ويتمثّل في مجيء القرآن الكريم **بأسلوبٍ مُغايرٍ لِما ألِفوه، ومعالجته لحالةٍ سائدةٍ**، وهي **شعورهم بالتَّفوق في الفصاحة والبيان**. وقد **حكى القرآن** ما كانوا عليه من **التّحير والشّعور بالعجز**، وما يفزعون إليه مِن **عللٍ ومعاذير ومدافعةٍ** بما وقع التّحدّي إليه، مِن ذلك: ﴿قالوا قدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الأنفال:٣١] ﴿قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [القصص:٣٦] ﴿وبقولون أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾ [الصافات:٣٦] ﴿وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ [الفرقان:٨] ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ﴾... إلى قوله: ﴿وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفرقان:٤-٥]. قال أبو بكرٍ **الباقلّانيّ** (ت٤٠٣هـ): فاستدللنا **بتحيّرهم في أمر القرآن** على خروجه عن **عادة كلامهم**، ووقوعه **موقعاً يخرق العادات**، وهذه سبيل المُعجزات.(٢)

---

(١) **إعجاز القرآن**، للباقلّانيّ (ص٨).

(٢) **إعجاز القرآن** (ص٢١ -٢٢، ٦٤).

٢- **والتَّحدّي، ثابتٌ**، دعت إليه الآيات، منها: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة:٢٣]،[١] **ومستمرٌّ** مِن لَدُن عصر نزوله، تحدّى فيه رسول الله ﷺ العرب أنْ يعارضوه، فعجزوا عنه، وانقطعوا دونه، وبقي **يطالبهم طَوال بعثته**، وإلى يوم الدّين؛ وحيثُ لم يستجيبوا، فقد **قامت الحُجَّة عليهم**، كما أخبر ﷻ: ﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [هود:١٤].[٢] وفي ذلك يقول الإمام **الطَّبري** (ت٣١٠هـ): «فأقرّ جميعُهم بالعجز، وأذعنوا له بالتَّصديق، وشهدوا على أنفسهم بالنَّقص. **إلَّا مَن تجاهل منهم وتعامى**، واستكبر وتعاشى، **فتكلُّف ما علم** أنَّه عنه عاجزٌ، ورام ما تيقَّن أنَّه عليه غير قادرٍ. فأبدى مِن ضَعف عقله ما كان مُستتِراً، ومِن عِيّ لسانه ما كان مصُوناً، فأتى بما لا يعجِزُ عنه الضَّعيف الأخرق، والجاهل الأحمق.[٣]

٣- **والمُقتضي، قائمٌ**؛ وهو ما جاءهم به من **دعوى النّبوة، وعَيْبِ آلِهَتِهِم،**

---

(١) زعم مسيلمة أنَّ له قرآناً نزل عليه، يأتيه به مَلَكٌ يُسمى "رحمن". فيه جُملٌ وفصولٌ **ممَّا يُرسله**، أو **يترسل به** في أمر **يعرض له**، وهي ضروبٌ مِن الحماقة **يُعارض بها أوزان القرآن** في تراكيبه، ويجنح إلى **سجع الكهان**. وممَّا زعمه: «والمُبذرات زرعاً، والحاصدات حصداً، والذّاريات قمحاً، والطّاحنات طحناً». وكلّ كلامه على هذا النَّمط الواهي والسخيف. **إعجاز القرآن والبلاغة النّبوية** (ص١٢١). وقد تعصَّب له بعض قومه، فقال طلحة النّمريّ، بعد أنْ سمع مقالته: أشهد أنّك كذّاب، وأنّ محمداً صادق، ولكنّ كذّاب ربيعة أحبّ إليَّ من صادق مُضر. **نهاية الأرب** (١٩/ ٨٧-٨٨). قال **الأَحنف بن قيس** عنه: ما هو بنَبِيٍّ صادقٍ، ولا بكذَّابٍ حاذقٍ. **تعليق من أمالي ابن دُريد** (ص٨٧). **إعجاز القرآن** (ص١٥٧).

(٢) **بيان إعجاز القرآن** (ص٢٧). ويُنظر: **زاد المسير في علم التَّفسير** (٢/ ٣٦١).

(٣) **جامع البيان** (١/ ١٠).

وزَرْيِ أديانهم، وتضليل آبائهم، وتسْفيهِ أحْلامِهم،[1] كما في قوله ﷻ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِي لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف:١٥٨]، وقوله ﷻ: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾ [الأنبياء:٩٨]، وقوله ﷻ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة:١٧٠].

٤- **وانتفاء المانع، حاصلٌ؛** فهم **العرب الأقحاح**، أهل البيان، وأَرْباب الفصاحة، نزل القرآن بلغتهم، وخاطبهم بطريقتهم، وتحدَّاهم بأنْ يأتوا بمثله، أو بعضه، وفيهم الخطباء المَصاقعُ والشُّعراء المُفْلِقون.[2] فما حال دون بلوغه إلَّا عَجْزُهم.

المطلب الثّاني: ثبوت إعجاز القرآن الكريم

يخْلُص مِن قيام التّحدّي، ووجود المُقْتضي، وانتفاء المانع: **ثبوت إعجاز** القرآن الكريم، وحصول **العجز** عن معارضته؛ **بدلالة ما يأتي:**

أوَّلاً، إحجامهم عن المعارضة دليل إعجازه.

عندما تلقّى العرب القرآن الكريم، راعهم عجيب نظمه وتناهي بلاغته،

---

(١) **الرسائل للجاحظ** (٣/ ٢٧٣).

(٢) خطيب مِصْقعٌ: بليغٌ، وبالسِّين أحسن. **العين**، الخليل بن أحمد (ت١٧٠هـ) (١/ ١٢٩) شاعرٌ مُفْلِقٌ: **مُجيدٌ**. أو الذي يأتي بالعَجيبِ في شِعْرِه. **المحكم والمحيط الأعظم**، ابن سيده (ت٤٥٨هـ) (٦/ ٤٢١). **تاج العروس** (٢٦/ ٣١٢).

فهابوا معارضته؛ لمَّا رأوه قد علاهم ببيانه، وأعياهم بفصاحته. **وجبُنوا عنه**؛ لِما كان **يُؤدّهم ويتصعّدهم** منه،[1] فشقَّ عليهم تحدّي ما **لا قِبَلَ لهم به**، وقد كانوا يعرفون ما يلزمهم مِن البلاغة، و**العُهدة** فيها، فتركوا المعارضة **لعجزهم**، وأقبلوا على **المُحاربة لجهلهم**،[2] هذا **مِن جهةٍ. ومِن جهةٍ ثانيةٍ**؛ لو كانوا **قادرين على معارضته** والإتيان بمثله، لم يَجُز أنْ يقع منهم **اتفاقٌ** على **تركها**، مع ما هم عليه مِن سلاقة اللّسان وذرابته،[3] **والمعرفة بوجوه الفصاحة**، وهو يستطيل عليهم، واصفاً إيَّاهم بالعجز عن مباراته، والضَّعف عن مجاراته.[4]

ثانياً، التجاؤهم إلى المحاربة دليل عجزهم، وذلك:

١- لو كانت **المعارضة في وسعهم**، وتحت أقدارهم، لم يتكلّفوا **الأمور الخطيرة، والدَّواهي المُهلكة**، ويتركوا **السَّهل مِن القول** إلى **الحَزْن مِن الفعل**: مِن **إهلاك النُّفوس، وبذل الأموال**، وقطع الأرحام. فهذا ما لا يفعله عاقلٌ، ولا يختاره لبيبٌ.[5]

٢- إذا كان **قومه** - ﷺ - **قريشٌ خاصّة موصوفين** برزانة الأحلام، ورجاحة العقول، وفيهم الشّاعر المبدع والخطيب البليغ، وقد وُصفوا في

---

(١) "أَدَّهُ الأَمْرُ، **يَؤُدّه**" أدّاً، و"**يَئِدّه**" إذا دَهاه. والأَدُّ: الغَلَبَةُ والقُوَّةُ. **المحكم والمحيط الأعظم** (٩/ ٣٦٢). **والتّصعيد في التّحدّي**، تنزّله في تحدّيهم مِن الإتيان بمثله إلى عشر سورٍ مثله، ومِن ثَمَّ مثل أقصر سورةٍ أو ما يعادلها.

(٢) **بيان إعجاز القرآن** (ص ٣٥).

(٣) **السَّلاقة**: "سَلَقَهُ بالْكَلام" آذاهُ، وَهُوَ شِدَّةُ الْقَوْلِ باللِّسانِ، قال ﷻ: ﴿سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾ [الأحزاب:١٩]. **الذَّرابَةُ**: الحِدَّةُ. وتُسْتَعارُ لِطَلاقَةِ اللِّسانِ مع عدم اللُّكْنَةِ. **مختار الصِّحاح** (ص١٥٢). **تاج العروس** (٢/ ٤٣٠).

(٤) **إعجاز القرآن** (ص٢٢-٢٣).

(٥) **بيان إعجاز القرآن** (ص٢٢).

الكتاب بالجدل واللّدد، في قوله ﷻ: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ [الزخرف:٥٨]، وقوله: ﴿وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا﴾ [مريم:٩٧]. **فكيف يجوز** -على قول العرب ومجرى العادة مع وقوع الحاجة ولزوم الضّرورة- **أنْ يُغفلوه**، ولا يهْتَبلوا الفرصة فيه، ولا يحوزوا الفَلَح والظّفر فيه **لولا عدم القدرة عليه، والعجز المانع منه**.(١)

٣- لا يجوز **لمثل العرب** = و**الكلام** سيد عملهم، و**الفصاحة** أكبر أمرهم، وقد **هجوْه** - ﷺ - مِن كلّ جانبٍ، وهاجى أصحابُه شعراءهم، ونازعوا خطباءهم، وبادروه العداوة، وناصبوه الحرب، فقتل منهم، وقتلوا منه، وهم **أبعد النَّاس طلباً لثأرٍ**، وأذكرهم لخيرٍ ولشرٍّ، وأهجاهم بالعجز، وأمدحُهم بالقوة = **أنْ لا يُعارضه** معارضٌ مِنهم؛ لأنَّه مِن المُحال أنْ يكون الكلام **أيسر مؤونةً عليهم، وأنقضَ لقوله، ثُمَّ يجتمعوا على ترك استعماله**، إلى بذل **النَّفس والمال**، ومفارقة الدِّيار؛ **لإطفاء نوره**، وتوْهين أمره.(٢)

ثالثاً، اعترافهم بالعجز دليل الإعجاز.

عدم الاستجابة للمعارضة إقرارٌ بالعجز، ودليل الإعجاز، كما أخبر الباري ﷻ: ﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ﴾ [هود:١٤](٣) **ويشهد لذلك:**

١ - **ائتِمارهم** على الكيد للإسلام ورسوله ﷺ، **بدل ائتلافهم** على الإتيان بمثل قرآنه - بعد تحدّيه لهم - **اعترافٌ بالقصور عنه، وتسليمٌ** بتفوقه؛ لأنَّهم لو

---

(١) **بيان إعجاز القرآن** (ص٢٢). **إعجاز القرآن** (ص٢٣).

(٢) **الرسائل للجاحظ** (حُجج النّبوة) (٣/ ٢٧٣).

(٣) **إعجاز القرآن** (ص١٧).

عارضوه، وجاءوا بمثله؛ لنصروا آلهتهم، وأبطلوا **حُجّة مَنْ سَخِر منهم، وكَفَوا أنفسهم شرَّ القتال.**[1]

٢- **اعترافهم الضّمني** بعجزهم، **وإقرارهم الفعلي** بإعجازه؛ وذلك أنَّهم حين **رأوه: كلاماً منظوماً**، قالوا: إنَّه **شعرٌ. ومعجوزاً عنه**، غيرَ مقدورٍ عليه: **إنَّه سِحْرٌ**. ولمَّا وجدوا له **وقعاً** في القلوب، **وقرعاً** في النُّفوس: «**إنَّ له لحلاوة، وإنَّ عليه لطلاوة**». ومرةً - **لجهلهم وحَيْرَتهم** - قالوا: ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفرقان:٥] مع علمهم أنَّ **صاحبه أُميّ**، ليس بحضرته **مَن يُمْلي أو يكتب**. وحكى القرآن عن **بعض مرَدَتهم** أنَّه بعد أنْ **طال فكره** في أمر القرآن، **وكَثُر ضجره منه**، لم يقْدر على أكثر مِن قوله: «**إنْ هذا إلَّا قولُ البشَر**»؛ **عِناداً للحقِّ، وذهاباً عن الحُجّة**، ووصف الله ﷻ **حاله وشدّة حَيْرَته**، بقوله: ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ۝١٨ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ إلى أنْ قال: ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ۝٢٣ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ۝٢٤ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾ [المدثر:١٨-٢٥]. وكما قال **الخطّابي** (ت٣٨٨هـ): كيفما كانت الحال ودارت القصة، فقد **حصل باعترافهم قولاً، وانقطاعاً عن معارضته فعلاً**، أنَّه معجزٌ، وفي ذلك قيام الحُجَّة، وثبوت المُعجزة.[2]

٣-**إصرارهم وعدم إذعانهم** - بعد إقامة الحُجّة وقطع العُذر - دليلٌ على أنَّ الذي يمنعهم مِن الإقرار: **الهوى والحمِيّة** دونَ **الجهل والحَيْرَة**. فقد كان رسول الله ﷺ **يحتجّ عليهم بالقرآن، داعياً إلى معارضته**، والإتيان **إنْ كانَ كاذِباً**، بسورَةٍ، أو بآياتٍ، وإنْ **كان مُفتَرِياً**، فهاتوها مُفترَياتٍ. فلم **يَرُمْ ذلك خَطِيبٌ، ولا**

---

(١) **بيان إعجاز القرآن** (ص٢١). **إعجاز القرآن** (ص٢٠-٢٥). **الشِّفا** (١/ ٥٠٠). **علم أصول الفقه**، لِخلَّاف (ص٢٧-٢٥).

(٢) **بيان إعجاز القرآن** (ص٢٨). ويُنظر: **البرهان في علوم القرآن** (٢/ ١٠٤).

طَمِعَ فيه شاعرٌ؛ ولو طَمِع فيه **لظهر** ووُجِدَ **مَن يَسْتَجِيدُه، ويُكابرُ فيه، زاعماً** أنَّهُ قد عارضَ وقابلَ وناقضَ. **فدلّ ذلك** على **عجزهم** مع كثرة كلامهم، واستجابة لغتهم، ووفرة شعرائهم، وكثرة من هجاه منهم، وعارض شعراء أصحابه، وخطباء أمّته؛ لأنَّ سورةً أو آياتٍ يسيرةً **أنْقضُ لقوله**، وأسرعُ **في تفريقِ أتْباعه** مِن بذْل النُّفوسِ، وإنفاق الأَموال.(١)

رابعاً، صنيعه بالقلوب، وتأثيره في النَّفوس.

للقرآن الكريم صنيعٌ في القلوب وتأثيرٌ في النّفوس ما ليس لغيره مِن أساليب البيان، حتّى لغير النَّاطقين بالعربيّة. فلا تسمعُ كلاماً -غيره- منظوماً ولا منثوراً إذا **قرع السَّمع** خَلَص له إلى **القلب** مِن **اللَّذة والحلاوة** في **حالٍ**، ومِن **الرَّوعة والمهابة** في **أُخرى** ما يَخْلُص منه إليه، **تستبشر** به النَّفوس، **وتنشرح** له الصّدور. فكم مِن **عدوٍ لرسول** الله ﷺ أقبل يريد **اغتياله وقتله**، فلمّا سمع آياتٍ منه، صارت عداوته موالاةً، وكفره إيماناً.

فهذا عُمَر بن الخطاب رضي الله عنه بعد أنْ قرأَ صَدْراً مِن سورة «**طَه**»، قال: ما أحسنَ هذا الكلام وأكْرمهُ، فلَمَّا سمع خبَّابٌ ذلك، قال له: واللهِ إنِّي لأَرْجو أَنْ يَكون اللهُ قد خصَّكَ بدعوةِ نبيِّهِ ﷺ، فَإِنِّي سَمِعْتُهُ يَقولُ: «اللَّهُمَّ أَيِّدِ الْإِسْلامَ بِأَبي الحكَمِ ابْنِ هِشامٍ أَو بِعُمَرَ بن الخَطَّابِ».(٢)

ولَمَّا **قرأ رسول الله** ﷺ القرآن **في الموسم** على النَّفر الذين **حضروه مِن الأنصار**، قال بعضهم لبعضٍ: تعلمون والله **إنَّه للنَّبيِّ** الذي توعَّدُكم به يهود، فلا **تسبقنَّكم إليه**. فأجابوه فيما دعاهم إليه، وقبلوا منه ما عرض عليهم مِن

---

(١) **الإتقان في علوم القرآن** (٤/ ٦). ويُنظر: **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور** (١/ ١٧٣).

(٢) **فضائل الصَّحابة**، أحمد بن حنبل (١/ ٢٧٩-٢٨١).

الإسلام، فلّما رجعوا إلى المدينة، أظهروا الدِّين بها حتّى لم **يبق بيتٌ مِن بيوت الأنصار إلَّا وفيه قرآنٌ**. وقد قيل: فُتِحت الأمصار بالسّيوف، وفُتِحت المدينة بالقرآن.[1]

ولَمَّا **سَمِعَ جُبَيْرُ بْن مُطْعِمٍ** رضي الله عنه قراءة النَّبيِّ ﷺ لِلطُّورِ، حتّى انْتَهَى إلى قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ﴾ [الطور:٧] **قال**: «خَشيتُ أَنْ **يُدْرِكَني العَذابُ، فَأَسْلَمَ**».[2] وفي رواية: «وَذَلِكَ أَوَّلَ ما وَقَرَ الإيمانُ في قَلْبي».[3] وفي **لفْظٍ**: لَمَّا بلغ هذه الآية: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾... إلى قوله: ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ﴾ [الطور:٣٥-٣٧] قال: «كادَ قَلْبي أَنْ يَطيرَ». وذلك **لحُسن تلقيه** معناها،[4] ومعرفته بما تضمنته مِن **بليغ الحُجّة، فاستدركها بلطيف طبعه**، واستشفَّ معناها بذكيِّ فهمه.[5] قال أبو **سليمان الخطَّابي** (ت ٣٨٨هـ): **ومصداق ما وصفناه** في أمر القرآن في قوله ﷻ: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر:٢١]، وقوله ﷻ: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر:٢٣]، وقال ﷻ: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ [العنكبوت:٥١]. وقال ﷻ: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [الأنفال:٢]، وقال ﷻ: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ

---

(١) **سيرة ابن هشام** (١/ ٤٢٨-٤٢٩). **بيان إعجاز القرآن** (ص٧٠).

(٢) **البرهان في علوم القرآن** (٢/ ١٠٦).

(٣) **البخاري**، كِتابُ المَغازي، باب فَرْضِ الخُمُسِ (٤٠٢٣).

(٤) **البخاري**، كِتابُ تَفْسيرِ القُرْآنِ، سورَةُ والطُّورِ (٤٨٥٤).

(٥) **الأسماء والصفات** للبيهقي (٢/ ٢٧٠).

﴿ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّ﴾ [المائدة:٣] في آيٍ ذوات العدد منه؛ وذلك لمَن ألقى السَّمع وهو شهيدٌ، وهو مِن عظيم آياته ودلائل معجزاته.(١)

ويصدقه قوله تعالى: ﴿وَإِنۡ أَحَدٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٱسۡتَجَارَكَ فَأَجِرۡهُ حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبۡلِغۡهُ مَأۡمَنَهُۥ﴾ [التوبة:٦] ففيهم مَن يكون **سماعه إيَّاه حُجّةً عليه**، وإنَّما لم يُسْلم جميع الفصحاء في عصر التّنزيل؛ **للصوارف التي تعْرض لهم**، مِن **شُكوكٍ أو شُبهٍ**، ففيهم مَن يشكّ في إثبات الصَّانع، أو في التّوحيد، أو في النّبوة... فكانت وجوه شكوكهم مختلفةً، وطرقُ شُبَههم متباينةً. **فمنهم** مَن قلَّت شُبهه، **وتأمل الحُجّة** حقّ تأملها ولم يستكبر، **فأسلم**. **ومنهم** مَن كثُرت شُبهه، أو أعرض عن تأمل الحُجّة، فلذلك وقف أمره... ولو كانوا في الفصاحة على مرتبةٍ واحدةٍ، وكانت صوارفهم وأسبابهم متفقةً، لتوافوا إلى القبول جملةً واحدة.(٢)

(١) **بيان إعجاز القرآن** (ص٧٠ -٧١).

(٢) **إعجاز القرآن** للباقلاني (ص٢٨).

وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

المبحث الرَّابع

الإعجاز بالصّرْفة والإخبار بالغُيوب

وجوه الإعجاز الدّالة على أنَّ هذا الكتاب مِن عند الله ﷻ لا حدَّ لها ولا نهاية، ومِن تلك الوجوه: الحيلولةُ دونه والمنع من معارضته، وصحة الأخبار التي جاء بها وصدقيّتها. فالمطلب **الأوّل**: الإعجاز بالصَّرْفة، والمطلب **الثّاني**: الإعجاز بالإخبار عن الغُيوب.

المطلب الأوَّل: الإعجاز بالصَّرْفة

في مصدر إعجاز القرآن الكريم اتجاهان رئيسان، الأوَّل **ذاتيٌّ**، والثَّاني **خارجيٌّ**؛ لذلك قيل: إعجازُ القُرْآنِ ذُكِرَ من وجهينِ: **أحدُهُما**: إعجازٌ مُتعلِّقٌ بنفسهِ، **والثَّاني**: بصرفِ النَّاسِ عن مُعارَضتهِ، أيْ أنَّ المنع من معارضته، والصَّرْف عن التَّحدّي بمثله هو المُعْجِزةُ دونَ ذاتِ القُرْآنِ. وهو ما عُرِف بالصَّرْفَة.[1]

أوَّلاً، تعريف الصَّرْفة وبيان معناها.

الصَّرْفُ، لغةً: **ردُّ الشيءِ** عن وجْهِه، وصرَفه فانْصرف، وصارَف نفسه عن الشَّيء، صرفها عنه. **وصَرَّفَ الشيء**: أعْمله في غير وَجْهٍ، كأنّه يَصرِفُه عن وَجْهٍ إلى وجْهٍ.[2]

واصطلاحاً: المنع مِن معارضة القرآن مع **القدرة عليها**؛ بسلب الإرادة

(١) يُنظر: **تفسير الرَّاغب الأصفهانيّ** (١/ ٤٤). **البرهان** (٢/ ٩٢). **الإتقان** (٤/ ١١).

(٢) **المحكم والمحيط الأعظم** (٨/ ٣٠١). **لسان العرب** (٩/ ١٨٩).

والدَّواعي، أو سلب العلوم، أو بسبب الشُّعور بالضَّعف. وذلك تبعاً لاختلاف وجهة نظر القائلين بها. فمفاد الإعجاز بالصَرَّفَة: أنَّ اللهَ ﷻ صرف العرب عن مُعارَضَتِه، وقد كان مَقْدوراً لهم، لكِنْ عاقَهُمْ أمْرٌ خارِجِيّ فصار كسائِرِ المُعْجِزاتِ.[1] فالصَّرْف هو الخارق للعادة ومصدر الإعجاز، وليس العجز عن الإتيان بمثله.

وأوَّل مَن قال بالصّرفة أبو **إسْحاق النَّظَّام** (ت ٢٢٨هـ) بمعنى أنَّ الله ﷻ **صَرَفَ هِمم** العرب - أو منعهم - عن مُعارضَة القرآن مع **تحدِّيهِ لهم** أنْ يأْتوا بمثلِه. وقد حُكِيَ عنه، قوله: "**الآيةُ والأعجوبةُ** في القرآن ما فيه مِن **الإخبار عن الغُيوب، فأمَّا التَّأليف والنَّظم**، فقد كان يجوز أنْ **يقْدرَ عليه العبادُ** لولا أنَّ الله ﷻ **منعهم بمنعٍ وعجزٍ أحدثهما** فيهم".[2] أيْ إنَّ نظم القرآن وتأليفه ليس مُعجزاً بحدِّ ذاته لولا المنعُ مِن ذلك. وقد تابعه آخرون مع اختلافٍ في معنى الصَّرْفة.

ما تعنيه الصّرْفة: في ذلك اتجاهان، **الأوَّل** عدّها سبب الإعجاز ومكمنه، **والآخر** عدَّها أحد وجوهه. والأوّل هو المعني عند الإطلاق، وإن كان مبتدعه النّظام، فثمَّة ثلاثة آراءٍ قيلت في معناه.

الأوَّل، أنَّ الله ﷻ **سلب دواعيَهم إلى المعارضة**، مع أنَّ أسبابها في حقِّهم حاصلةٌ، مِن التَّقريع بالعجز، والاستنزال عن المراتب العالية، والتَّكليف بالانقياد والخضوع ومخالفة الأهواء... وهو قول أبي إسحاق النَّظَّام.

الثَّاني، أنَّ الله ﷻ **منعهم بالإلجاء على جهة القسر، وسلَب قُواهم** عن المعارضة مع **قدرتهم عليها**؛ فلأجل هذا لم تحصل مِن جهتهم معارضةٌ. وهذا

---

(١) **البرهان** (٢/ ٩٣-٩٤). **الإتقان** (٤/ ٧).

(٢) **مقالات الإسلاميين** (ص٢٢٥).

المعنى يمكن **إرجاعه** إلى النَّظَّام أيضاً؛ لأنَّه نُقل عنه التَّصريح بالمنع.

الثَّالث، أنَّ الله ﷻ **سلبهم العلوم** التي لا بدّ منها في الإتيان بما **يُشاكل القرآن ويُقاربه،** والتي كانت حاصلةً لهم مِن قبلُ، أو **صُرِفت دواعيهم عن تجديدها** كي لا تحصل المُعارضة. وعُزِي ذلك إلى **الشَّريف المُرتضى** (ت٤٣٦هـ)،[١] وممَّن تبنَّاه **ابنُ سِنان الخَفاجيّ** (ت٤٦٦هـ)؛ حيث قال: "وإذا عُدْنا إلى التَّحقيق وجدنا وجه إعجاز القرآن صرفَ العرب عن معارضته بأنْ **سُلبوا العلوم** التي بها كانوا يتمكنون مِن المعارضة في وقت مَرامِهم ذلك".[٢]

ثانياً، موقف العلماء مِن الصَّرْفة وما يلزم مِن القول بها.

لَقي القول بالصَّرْفَة عدم قبولٍ مِن جُمهور العلماء، وبيَّنوا فساده، وذلك مِن عدة وجوهٍ:

١- لو كانتِ **المُعارضةُ مُمْكنةً حالت دونها الصَّرْفة،** لَمَا كان **الكلامُ مُعْجِزاً،** ولكان **المنْعُ** مُعْجِزاً- دون صرفهم أو قسرهم أو سلبهم- ولم يتضَمَّن **الكلام فضيلةً** على غيره في نفسه.[٣]

٢- لو أنَّ الله ﷻ صرفَ **هِمَمهم وخَواطرهم،** وأعجَزَهم عن تأليفِ كلامٍ مثْلِهِ، لَما **أكْبَروا القرآن،** ولا عَجِبوا منه، بل كان **إكبارهم وعجبهم للعجز الذي دخل عليهم،** ورأوه مِن **تَغيّرِ حالِهم،** وما **حِيلَ** بينهم وبين ما كان عليهِم سهلاً.[٤]

---

(١) **الطِّراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز،** يحيى بن حمزة بن علي بن إبراهيم العلويّ (ت ٧٤٥ هـ) (٣/ ٢١٨-٢٢٠).

(٢) **سرّ الفصاحة** (ص١٠٠).

(٣) **إعجاز القرآن** (ص٣٠).

(٤) **دلائل الإعجاز** (ص٣٩٠-٣٩١). صنف الجرجانيّ كتابه "الرّسالة الشّافية" للرَّدِّ على القول بالصَّرْفة.

٣- يدلّ سلب **العلوم المعروفة، ونسيان المعارف المُعلومة** في مدّة يسيرة على **زوال العقل**، ومعلومٌ أنَّ العرب لم **تذهب عقولهم** بعد التّحدّي، ولم **تتغير حالهم** في الفصاحة والبلاغة **بعد نزوله**، ولا دليل على صرف عقولهم عن **تجديد علومهم**، بل **تجددت**، والفضل فيه للقرآن الكريم إذ **حثَّ على التَّدبر** والتَّفكر.(١)

٤- القول بأنَّ المَنْع والصَّرْف هُو المُعْجِزُ **نقضٌ للإجماع** بأنَّ فصاحته وبلاغته أمرٌ خارقٌ للعادةِ،(٢) إذْ لم يوجدُ قطّ -مِن قَبلُ- كلامٌ على **هذا الوجْهِ**، فلَمَّا لم يَكُنْ ذلكَ الكلامُ **مألوفاً مُعتاداً** منهم دلَّ على أنَّ المنع والصَّرف لم يكن مُعجزاً.(٣)

وثمَّة أمورٌ تلزم مِن القول بالصَّرْفة أوردها أبو بكر الجُرجانيّ (ت٤٧١هـ):

أ- أنْ تكون العرب **تراجعت حالها** في جَوْدة النَّظم، وشرف اللّفظ، ونقصوا في **قرائحهم وأشعارهم** عمَّا كانوا عليه في الجاهلية. فإنْ قيل: **حدث النَّقص فيهم دون أنْ يشعروا. فجوابه**: أنَّه عندئذٍ **لا تقوم** عليهم **حُجَّة**؛ لأنَّهم إذا كانوا **لا يعلمون** تقاصر **كلامهم** عمَّا كانوا عليه قبل التّحدّي، وأنَّه **امتنع عليهم** في النَّظم ما كان يُطاوعهم، **استحالَ عليهم أنْ يعلموا** أنَّ لنظم القرآن **مزيّةً** على نظمهم **الواهِن الباقي** لهم؛ **لأنَّ عُذر** القائل بالصَّرْفة أنَّ كلامهم قبل أنْ يُتحَدَّوا كان **مثْل نظم القرآن** في الفصاحة. وإذا **استحال عليهم** ذلك، فكيف **يُتصور أنْ يُحاولوا!**، وإذا **لم يُحاولوا، فلن يُحِسّوا بالمنع والعجز**، وعندها **لا تقوم عليهم حُجَّة** به.

---

(١) **نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز**، للرَّازي (ص٢٦-٢٧).

(٢) قال الزَّركشيّ (ت٧٩٤هـ): الإجْماعُ مُنْعَقِدٌ على إضافَةِ الإعجازِ إلى القُرآنِ. **البرهان** (٢/ ٩٤).

(٣) **الجامع لأحكام القرآن**، أبو عبد الله القرطبيّ (ت٦٧١هـ) (١/ ٧٥).

ب- وأنْ تكون النُّبوة **أوجبت أنْ يُمْنعَ رسول الله ﷺ شطراً مِن بيانه؛ لأنَّهم** إذا لم يقولوا ذلك، حصل منه أنْ يكون ﷺ قد تلا عليهم: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ﴾... الآية، في **حالٍ** يستطيع بها أنْ **يجيء بمثل القرآن. إلَّا أنْ يزْعُموا** أنَّه كان **دونهم في الفصاحة**، وإذا قالوا ذلك، فقد خرجوا **مِن قبيح القول إلى مثله؛ لأنَّه ﷺ لم يكن منْقوصاً** في الفصاحة، بل كان **أفصحَ العرب**.

ج- وأنَّ العرب لو عرفوا أنَّهم **مُنعوا منزلةً مِن الفصاحة**، لقالوا للنَّبيِّ ﷺ: إنَّا **كُنّا نستطيع** قبل هذا الذي **جئتنا به**، ولكنَّك **سحرتنا، واحتَلْتَ** في شيءٍ حال بيننا وبينه.[1]

وعلى الجُملة -كما قال الرَّافعيّ (ت١٣٥٦هـ)- فإنَّ القول بالصَّرْفة لا يختلف عن قول العرب فيه: «إِنْ هَذا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ».[2]

ثالثاً، الصَّرْفة أحد وجوه الإعجاز.

ذهب غيرُ واحد مِن العلماء إلى عدِّ "الصَّرْفَة" - بعد إثباتهم العجز عن معارضة القرآن الكريم والتَّسليم بتفوقه - **أحد وجوه الإعجاز. مِن ذلك:**

أثبت **الجاحظ** (ت٢٥٥هـ) **سُموّ** القرآن الكريم في نظمه وتأليفه على ما سواه، **وعاب** على مَن نفى ذلك عنه؛ حيثُ قال في معرض احتجاجه له: «فلم أدع مسألةً **لأصحاب النَّظَّام**، ولِمَن نجم بعده، ممَّن **يزعم** أنَّ القرآن حقٌّ، وليس **تأليفه بحُجَّة**، وأنَّه **تنزيلٌ وليس ببرهانٍ** ولا دلالةٍ».[3] ومع هذا، فقد تبنَّى **معنىً للصَّرْفة** لا يقدح في **علو** القرآن **ورفعة** شأنه؛ حيثُ عدَّها **ضرباً مِن التَّدبير**

---

(١) **الرسالة الشّافية** (ص١٤٦-١٤٨).

(٢) **إعجاز القرآن والبلاغة النَّبويّة** (ص١٠٢).

(٣) **الرسائل**، للجاحظ، بتصرف يسير (٣/ ٢٨٧).

الإلهيّ؛ كي لا يكون لأهل **الشّغب مُتعلّقٌ**، أو أدنى **شُبهة** في أيِّ محاولةٍ لمُعارضته، فيما لو لم يُصْرفوا عنها، ولا **لأحدٍ مطْمعٌ فيه**؛ **وذلك**: لِما يَخْلفُه مِن **أثرٍ سيءٍ في النَّفوس**.

لهذا لمَّا **صرفَ** اللهُ ﷻ العرب عن معارضة القرآن بعد أنْ تحدّاهم رسول الله ﷺ بنظمه، **لا تجدُ أحداً طمِع** فيه؛ لأنَّه لو **طَمِع** فيه **لتكلَّفه**، ولو تكلَّف بعضهم ذلك فجاء بأمرٍ فيه أدنى شُبْهةٍ؛ **لعَظُمَت القِصّةُ** على الأعراب وأشباههم، ولألقى ذلك للمسلمين عَمَلاً، **ولَطَلبوا المُحاكمة** والتَّراضي ببعض العرب، ولَكَثُر القِيل والقال.

ولأنَّه **حِيلَ بينهم وبينه، فلم يأتوا به مُضّطرباً ولا مُلفّقاً ولا مُسْتكْرهاً**. أمَّا ما أتى به **مُسيْلَمة**، فيَعلَم كلّ مَن سمعه أنّه إنّما **عَدا** على القرآن **فسَلَبه، وأخذَ بعضه، وتعاطى أنْ يُقارنه**. فكان لله ﷻ **ذلك التّدبير** الذي لا يبلغه العباد. والذي يدلّ أنَّه **كتابُ صدقٍ**: نظمه البديع الذي لا يقدر على مثله العباد، وسوى ذلك مِن الدّلائل التي جاء بها مَن جاء به.[1]

وعدَّ أبو عيسى **الرُّمانيّ** (ت٣٨٤هـ) الصَّرفة **أحد وجوه الإعجاز؛ لخروجها عن العادة** – وهي المنع مِن المُعارضة – **كسائر المُعجزات؛ لأنَّ المعتبر** في صحة المعجزة أنْ تكون أمراً **خارجاً عن مجاري العادات، ناقضاً** لها، فإنْ كانت بهذا الوصف كانت **آيةً** دالةً **على صدق مَنْ جاءَ بها**.[2]

---

(١) **الحيوان** (٤/ ٩٠، ٦/ ٢٦٩). وبناءً على ما ذُكر أعلاه لا أرى صحةً لِما نسبه الرّافعيّ للجاحظ: أنَّه مع عدِّه القرآن في الدَّرجة العُليا مِن البلاغة التي لم يُعهد مثلها فهو كثير الاضطراب لم **يسلم مِن القول بالصَّرْفة** قد أخفاها وأومأ إليها. وقد يكون استرسل بهذه العبارة – صرف الله أوهام النَّاس– **لما في نفسه مِن أثر أُستاذه**. يُنظر: **إعجاز القرآن**، للرافعي (ص١٠٢).

(٢) **النُّكت في إعجاز القرآن** (ص١١٠).

وعقَّب الخَّطابيّ (ت٣٨٦هـ) بأنَه **وجهٌ قريبٌ** إلَّا أنَّ دلالة الآية: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ﴾.. الآية، **تشهد بخلافه**؛ إذ تشير إلى أمرٍ طريقه **التَّكلف والاجتهاد**، وسبيله **التَّأهب والاحتشاد**. والمعنى في الصَّرْفة التي وصفوها - وهو سلْب الدّواعي أو سلْب القُدرة - **لا يلائم هذه الصِّفة**، فدلَّ على أنَّ المُراد غيرُها.(١)

وعرض **أبو الحسن الماورديّ** (ت٤٥٠هـ) ما تضمنه القرآن الكريم مِن أوجه الإعجاز، وعدَّ منها: إعجازه في **خروجه عن كلام البشر**، وذلك مِن عشرين وجهاً آخرها الصَّرْفة. وذكر الاختلاف فيها على قولين، **الأوَّل**: **صُرفوا عن القدرة**، ولو قدروا لعارضوه. **والثَّاني**: **صُرفوا عن المعارضة** مع دخوله في مقدورهم. وعقب بقوله: والصَّرْفة **إعجازٌ على القولين** معاً في قول مَن نفاها وأثبتها، **فخرقُها للعادة** فيما دخل في القدرة.(٢)

وعلّل الرَّاغب الأصْبَهانِيّ (ت٥٠٢هـ) القول بها، أنَّه لمَّا كان أهل البلاغة والخطابة بسلاطة ألسنتهم في كلِّ وادٍ **يهِيمون**، والقرآن قد دعاهم إلى معارضته، وأعجزهم عن الإتيان بمثله، دون أنْ **تهتزّ مشاعرهم** ألبَتَّة **للتَّصدّي لمعارضته**، لم يخفَ على ذي لُبٍّ أنَّ **صارفاً إلهيّاً** يصرفهم عن ذلك. وأيّ إعجازٍ أعظمُ مِن أنْ تكون كافةُ البلغاء **مُخيرةً في الظَّاهر** أنْ يُعارضوه، **ومُجْبَرةً في الباطن** عن ذلك.(٣)

---

(١) **بيان إعجاز القرآن** (ص٢٣).

(٢) **أعلام النّبوة** للماوردي (ص٧٤-٩٠).

(٣) **تفسير الرَّاغب الأصفهانيّ** (ص٤٦). وممن عد الصّرفة أحد وجوه الإعجاز **القاضي عبد الجبار** (ت٤١٥هـ) في كتابه المغني في أبواب التّوحيد، في الجزء الخامس عشر. **ويُعزى ذلك إلى أبي إسحاق الإِسْفَرَائِنِيّ** (ت ٤١٨هـ) يُنظر: **روح المعاني** (١/ ٢٩) **مناهل العرفان** (٢/ ٤١٤).

وذهب **ابن حزم** (ت٤٥٦هـ) إلى أنَّ القرآن **معجزٌ في نظمه وأخباره الغيبيّة**. أمَّا بلاغته **فغيرُ معجزةٍ؛ لوجود آياتٍ** ليست في **أعلى درجات البلاغة**، كالتي تحكي أسماء الأنبياء،[١] **ووجود كلامٍ** لو قاله غيرُ الله ﷻ **لكان غيرَ معجزٍ؛**[٢] فإذا كان الأمر كذلك، مع انعقاد الإجماع على إعجاز القرآن والعجز عن معارضته، **تعيَّن معه القول** أنَّ القرآن لمَّا قاله الله ﷻ **أصاره معجزاً، ومنع الخلق مِن مثله، وكساه الإعجازَ**، وسلبه جَميع كلام الخلق.[٣]

وجواب ما الّتبس عليه في بلاغة القرآن، **أنَّ البيانَ تتفاوتُ مراتبه** وتتباينُ درجاته، فمنه الكلام **الفاضل المحمود**، ومنه **الهجين المذموم**. **والفاضل** على أقسامٍ: أعلاها البليغ، وأوسطها الفصيح، وأدناها الجائز الطّلق، فحازت بلاغات القرآن مِن كلِّ **قسمٍ حصةً**، ومِن كلّ **نوعٍ شعبةً**، فانتظم لها بامتزاج هذه الأوصاف نمطٌ مِن الكلام يجمع **صفتي الفخامة والعذوبة... أمَّا الهجين**، فقد **خلا منه القرآن** الكريم ألبَتّة.[٤]

أمَّا ذكره عن آياتٍ **لو قالها غير الله** ﷻ لكانت غيرَ معجزةٍ. **فجوابه** أنَّ **أعجاز القرآن** لا يقتصر على **الأساليب البلاغية**، مِن تشبيه واستعارة وكناية... بل وجوه إعجازه متنوعةٌ، **مِنها**: أنَّه جاء بأعذب اللَّفظِ وأرقّه، وأجزله وأسلسه، وأصحه معنى وأوضحه، ومناسبة آياته وسوره، وارتباط بعضها ببعضٍ، متسقة

---

(١) كقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ﴾... الآية [النساء:١٦٣].

(٢) مِن ذلك أنَّ الله تعالى حكى عَن قوم من أهل النَّار أَنهم يَقولونَ إذا سئلوا عَن سَبَب دُخولهمْ النَّـــار: ﴿قَالُواْ لَمۡ نَكُ مِنَ ٱلۡمُصَلِّينَ ٤٣ وَلَمۡ نَكُ نُطۡعِمُ ٱلۡمِسۡكِينَ ٤٤ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلۡخَآئِضِينَ ٤٥ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ [المدثر:٤٣-٤٦].

(٣) **الفَصْل في الملل والأهواء والنّحل** (٣/ ١٠-١٤).

(٤) **بيان إعجاز القرآن** (ص٢٦).

المعاني، منتظمة المباني، مع حُسن الفواتح والخواتم، لا يمجه سامعه، ولا يَمله قارئه، فتلذّ له الأسماع، وتشغف له القلوب..[1]

المطلب الثّاني: الإعجاز بالإخبار عن الغُيوب

الله ﷻ عالِمُ الغَيْبِ والشَّهادَةِ، لا يَعزُبُ عنه مثقالُ ذرَّةٍ في السَّموات ولا في الأرض، أحاط بكل شيءٍ علماً، وعنده مفتاح الغيب لا يعلمها إلَّا هو. وقد أخبر القرآن الكريم عن وقائع ماضيةٍ، وخَبايا نفوسٍ حاضرةٍ، وأنبأ عن أحداثٍ آتيةٍ، ممَّا لا يطّلع عليه إلّا علّام الغُيوب. وفيما يأتي بيانُ دلالة الأخبار الغيبية على صدق دعوى النّبوّةِ، ووجه الإعجاز فيها، وأنواع تلك الأخبار.

أوَّلاً، دلالة الأخبار الغيبية على صدق دعوى النّبوّةِ.

ما أخبر عنه القرآن الكريم مِنْ قصصِ الأنبياء، والقرونِ الخالية، وما سأل أهْلُ الكتاب رسول الله ﷺ عنه، وتحدّوه به، **آيةٌ بيّنةٌ ودليلٌ قاطعٌ** على صدق دعوى النّبوّةِ؛ حيث جاءهم - **وهو أُمِّيّ مِنْ أُمةٍ أُميّةٍ**، ليس لها بذلك **علْمٌ**، بما لا سَبيلَ إليه إلَّا **عن تَعَلُّمٍ** - وقد كان معروفاً **عدم ملابسته** لأهْلِ الآثار وحملةِ الأخبار، ولا مُتردداً إلى **التّعلُّم** منهم، ولا **ممَّن يقْرأُ** فيجوز أنْ يقعَ إليه كتابٌ يأْخُذ منه، ما يعني أنَّه لم يصل إلى عِلْمِ ذلك **إلَّا مِنْ جهة الوَحْيِ**، ويؤكد القرآن ذلك حين يقول ﷻ: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت:٤٨].[2]

---

(١) يُنظر: **معترك الأقران في إعجاز القرآن** (١/ ٤٣ وما بعدها).

(٢) **إعجاز القرآن** للباقلاني (ص٣٤). ويُنظر: **الجامع لأحكام القرآن** (١/ ٧٤).

ثانياً، وجه الإعجاز في المعارف والأخبار الغيبيّة.

لا يرجع **الإعجاز في المعارِف والأخبار الغيبيّة** إلى القرآن الكريم مِن حيث كونُه قرآناً، بل لكونها حاصلةً مِن **غير سبق تَعليمٍ وتَعلُّمٍ**.[1] وذلك على ضربين:

الأوَّل، ما كان إخباراً عن **قصص الأولين** وسِيَر المتقدّمين، **فهو مِن جهةٍ**، مِن **الممتنع** على مَن لم **يقف على الأخبار** ويشتغل بدرس الآثار؛ **لذلك** حكاها القرآن الكريم حكايةَ **مَن شَهِدَها وحضرَها**؛ حيث قال ﷻ: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ... وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾ [القصص:٤٤-٤٦]. ومِن **جهةٍ ثانيةٍ**، أعلمَ ﷻ نبيَّه ﷺ أنَّه أوحى ذلك إليه، **حُجّةً على نبوّته**، وتحقيقاً لصدقه، **وقطعاً** لعذرَ مُنكري رسالته **مِن أهل الكِتَابين**، الذين **يعلمون** أنَّ رسول ﷺ لم يصل إلى **علم هذه الأنباء مع خفائها**، ولم **يدرك معرفتها** مع خُمولها عند أهلها **إلَّا بإعلام الله** ﷻ ذلك إيَّاه. إذ كان معلوماً عندهم أنّه **أُميّ لا يكتب**، فيقرأَ الكُتبَ، فيصلَ إلى علم ذلك مِن قِبَلها، ولا **صاحبَ أهل الكتب** فيأخذَ علمَه مِن قِبَلهم.[2]

الثَّاني، ما كان إخباراً عن **غُيوبٍ مِن الحاضر والمستقبل**، فممَّا تنقطع دونها الأسباب، ويمتنع على العقول بلوغها، **فحصولها دون تخلّفٍ** أو تبدّلٍ على الوجه الذي أخبر عنه القرآن الكريم، **دليلٌ قاطعٌ** على أنَّها إخبارٌ مِن علّام الغُيوب ﷻ.

---

(١) **تفسير الرَّاغب الأصفهانيّ** (١/ ٤٣). **الإتقان** (٤/ ١١).

(٢) **جامع البيان** (٦/ ٤٠٤-٤٠٥).

ثالثاً، أنواع الغيوب في القرآن الكريم.

أخبر القرآن الكريم عن غيوبٍ في الماضي والحاضر والمستقبل.

١) الإخبار عن غيوبٍ في الماضي.

قصَّ القرآن الكريم مِن أخبار الأوَّلينَ وسِيَر الْمُتَقَدِّمينَ مقْتصراً على **ما فيه عبرةٌ وعظةٌ**: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف:١١١]. **قال أبو عُبَيْدٍ** القاسم بنُ سلَّام (ت٢٢٤هـ): «**ظاهِرُها الإخْبارُ** بِهلاكِ الأوَّلينَ، **وباطِنُها وعْظُ الآخَرينَ** وتَحْذيرُهُم أنْ يفعلوا كفعْلِهم، فيحِلُّ بهمْ مِثْلُ ما حَلَّ بهم».[1] ومِن أوائل ما قصَّه القرآن الكريم إخبارُ المَلائِكَةِ **عن اتخاذ آدَمَ** عليه السلام **خليفة**: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة:٣٠] **وتعليمه**: ﴿الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة:٣١] **وإسجاد المَلائِكَةِ** له، **واستكبار إبْليسَ** وتأبِّيه: ﴿فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ﴾، ومِن ثَمَّ **إسكانه** وزَوْجه الجَنَّةَ، وغوايةُ الشَّيْطان لهما، وما تبعه مِن إخراجهم جميعاً منها وإهْباطِهم إلى الأرْضِ، **ونشوء العداوة بينهم**: ﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾. وما آل إليه أمرُهم، مِن **توبة آدَم** عليه السلام: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة:٣٤-٣٧] **وعناد إبْليسَ** وطرده؛ لإصراره على الكفر: ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾... إلى قوله: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ

---

(١) **الإتقان في علوم القرآن** (٤/ ٢٢٥).

ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ [ص:٧٥-٨٣]. كما قصَّ **سِيَر أُممٍ** ماضيةٍ، وما جرى لهم مع أنبيائهم، **كقوم نوحٍ وعادٍ وثمودَ**، والذين سلكوا سبيلهم بالكفر والتَّكذيب، كقوم لوطٍ وفرعونَ وشعيبٍ. وقد **ذُيلت** بعض القَصَص بأنَّها مِن **أخبار الغيب** التي **لا يعلمها رسول الله** ﷺ ولا قومه، كما في قِصة **نوحٍ** عليه السلام: ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ﴾ [هود:٤٩]، وقصة **يوسُف** عليه السلام: ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴾ [يوسف:١٠٢]، وقصة **موسى** عليه السلام: ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ ﴾ [القصص:٤٦]، وقصة مَرْيَمَ: ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ [آل عمران:٤٤].

٢) الإخبار عن غيوبٍ مِن الحاضر.

أخبر القرآن الكريم عن مكنونات صدورٍ ومُضْمرات نفوسٍ ممَّا لا يطَّلع عليه إلَّا مَن ﴿ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴾ [طه:٧] مِن غيرِ أنْ يَظهر ذلك منهم بقولٍ أو فعلٍ، **مِن ذلك:**

- **إخباره عمَّا حاك في صدور بعض المسلمين.** في قولِهِ: ﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ ﴾ [الأنفال:٧] لَمَّا بلغ رسول الله ﷺ خُروج النَّفيرِ لحماية عِير أبي سُفْيان، أوْحَى اللهُ إليه **يَعِدُهُ إحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ**: إمَّا العِيرَ، وإمَّا النَّفيرَ، **ورَغِبَ كَثيرٌ مِنَ المُسْلِمين إلى العِيرِ**؛ لِقلَّة عددها ومَدَدِها، بخلاف النَّفير؛ لِكثرة عددِهِم وعُدّتِهم، الذين في لقائهم القتالُ والحربُ. وجاء النَّفيرُ فَوَرَدوا ماءَ بدْرٍ، وجَمَعَ اللهُ جل جلاله المُسْلِمينَ

والْكافِرينَ على غير مِيعادٍ، لِما يُريدُه ﷻ مِنْ إعلاء كلمة المسلمين.[1]

• **إخباره عمَّا همَّ به بعض المسلمين**، في قوله ﷻ: ﴿**إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا**﴾ [آل عمران:١٢٢]. قال جابِرُ بْنُ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: فينا نَزَلَتْ، نَحْنُ **الطَّائِفَتانِ، بَنو حارِثَةَ وَبَنو سَلِمَةَ**، وما نُحِبُّ أَنَّها لَمْ تُنْزَلْ لِقَوْلِ اللهِ ﷻ: ﴿**وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا**﴾.[2] وكان الهَمّ مِن الطَّائفتين لمَّا رجع **ابن سلولٍ** بمَن معه مِن المنافقين، **فحفظ الله ﷻ قلوبهم**، فلم يرجعوا. **وقيل**: كانَ ذلك **حديثَ نَفْسٍ** منهم خطر ببالِهِمْ، فأَطْلَعَ الله ﷻ نَبِيَّه عليه، **فازْدادوا بصيرَةً**، ولم يَكُنْ ذلكَ الخوَرُ مُكْتَسَباً لهم، فعصمهُم الله تعالى.[3]

• **فضح دخيلة نفوس المنافقين**، بإظهارهم الإيمان واستبطانهم الكفر، في قوله ﷻ: ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡ**﴾ [المائدة:٤١] **نزلت في المُظْهِرينَ** الإيمان بألسنتِهم، وقلوبهم خَرابٌ خاوِيَةٌ منه.[4] والآيات في ذلك كثيرة خاصَّة في سورة التَّوبة والتي لأجله سُمّيت "الفاضحة".

• **كشف مكائد اليهود**، كما في قوله: ﴿**وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوۡكَ بِمَا لَمۡ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ لَوۡلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ**﴾ [المجادلة:٨]. قال **أبو عبد الله القُرطبيّ** (ت٦٧١هـ): «لا خِلافَ بين النَّقلة أنَّ المُرادَ بها **اليهودُ**، كانوا يَأْتونَ النَّبيَّ ﷺ، فيقولون: **السَّامُّ عليك**. يُريدونَ بذلك السَّلام ظاهِراً وهُم يعنونَ الموْت باطِناً،

---

(١) **جامع البيان (١٣/ ٣٩٨). تفسير ابن كثير (٤/ ١٤).**

(٢) **البخاري**، كِتابُ تَفْسيرِ القُرْآنِ، باب ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ﴾ (٤٥٥٨).

(٣) **الجامع لأحكام القرآن الكريم (٤/ ١٨٦).**

(٤) **تفسير ابن كثير (٣ / ١١٣).**

فيقول النَّبيّ ﷺ: وَعَلَيْكُمْ».[1]

• **وما انطَوَت عليه طبائعهم في الإيقاع بالآخرين،** في قوله ﷻ: ﴿كُلَّمَآ أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي ٱلْأَرْضِ فَسَادًا﴾ [المائدة:٦٤]، فكلّما جمعوا أمرهم وأعدوا عُدّةً لمناهضة مَن ناوأهم، شتَّته الله عليهم وأفسده؛ لسوء فعالهم وخُبْثِ نيَّاتهم، فالسّعي في الإفساد مِنْ سجيَّتِهم.[2] فضلاً عن الخداع والمكر والكيد: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَيْسَ عَلَيْنَا فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ﴾ [آل عمران:٧٥]؛ لذلك سلّط الله ﷻ عليهم تباعاً: البابليين والرّوم والفرس والمسلمين...[3]

• **وما جُبِلوا عليه عند لقائهم العدو،** في قوله ﷻ: ﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍ﴾ [الحشر:١٤] وما ذلك إلَّا لأنَّهم لا يَتَمَنَّوْنَ المَوْتَ أبداً، مع أنَّهم يدَّعون أنَّ الجنَّةَ خالصةٌ لهم دون سواهم، كما أخبر ﷻ في قوله: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة:٩٤-٩٥].

٣) الإخبار عن غيوبٍ مِن المستقبل.

أخبر القرآن الكريم عن وقائع وأحداثٍ تحصل في المستقبل، **مِن ذلك:**

• **إخبارُه عن انتصار الرُّوم،** في قوله ﷻ: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِيٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن

---

(١) **الجامع لأحكام القرآن الكريم** (١٧/ ٢٩٢).

(٢) يُنظر: **جامع البيان** (١٠/ ٤٥٨و٤٦١). **تفسير ابن كثير** (٣/ ١٤٧).

(٣) **مفاتيح الغيب** (١٢/ ٣٩٨).

﴿قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ﴾ [الروم:١-٤]. فقد حملت هذه الآيات **بشارةً للمسلمين** بأنَّ هزيمة الرُّوم **سيعقُبها انتصارٌ** في الوقت الذي لم يكُن فيه متوقعاً، حتّى ساد اعتقادٌ **باستحالته** في ذلك الأوان -وذلك لشدّة ضعفهم، وتفوق خصمهم، خاصّة بعد ظفره الأخير- ممَّا دفع بعض المشركين إلى مراهنة أبي بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه على تَحقُّق هذه النّبوءة. وقد أنجز الله سبحانه وتعالى **وعْدَه، فتحقَّقَ** النَّصر في **السَّنة الثَّانية** مِن الهجرة.(١)

• كما حملت الآيات **نُبوءةً أُخرى**، وهي قوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الرّوم:٤-٥]. وقد صَدَق الله عز وجل وعده، فتحققت **النّبُوءتان في وقت واحدٍ، مع تقطّع أسباب انتصار** الرُّوم، وانتصار المسلمين - **في بدرٍ** -؛ حيث كانوا حينها -في مكّة- مستضعفين. وعلى رغم هذا **الاستبعاد**، وهذه **الاستحالة** الماديّة، نزلت الآيات

---

(١) روى **الترمذي**، أنّه لَمَّا نزلت هَذِهِ الآيَةَ، خَرَجَ أَبو بَكْرٍ رضي الله عنه يَصيحُ في نَواحي مَكَّةَ: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ﴾، فقالَ ناسٌ مِنْ قُرَيْشٍ له: فَذَلِكَ بَيْنَنا وَبَيْنَكُمْ، زَعَمَ صاحِبُكَ أَنَّ الرُّومَ سَتَغْلِبُ فارِسَ في بِضْعِ سِنينَ، أَفَلا نُراهِنُكَ عَلَى ذَلِكَ، قالَ: بَلَى، وَذَلِكَ قَبْلَ تَحْريمِ الرِّهانِ، فارْتَهَنَ أَبو بَكْرٍ والمُشْرِكونَ وَتَواضَعوا الرِّهانَ، فَسَمَّوْا بَيْنَهُمْ ستَّ سِنينَ. فَمَضَتِ السِّتُّ سِنينَ قَبْلَ أَنْ يَظْهَروا، فَأَخَذَ المُشْرِكونَ رَهْنَ أَبي بَكْرٍ رضي الله عنه، فَلَمَّا دَخَلَتِ السَّنَةُ السَّابِعَةُ ظَهَرَتِ الرُّومُ عَلَى فارِسَ، فعابَ المُسْلِمونَ عَلَى أَبي بَكْرٍ تَسْمِيَةَ سِتِّ سِنينَ؛ لأَنَّ اللهَ تَعالَى قالَ في بِضْعِ سِنينَ. وَأَسْلَمَ عِنْدَ ذَلِكَ ناسٌ كَثيرٌ. **التِّرمذيّ**، أَبوابُ تفسيرِ الْقُرْآنِ، بابٌ: من سورَةِ الرُّومِ، وقال: **حَسَنٌ صَحيحٌ غَريبٌ** (٣١٩٤). وفي روايةٍ، قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: «هَلَّا احْتَطْتَ، فَإِنَّ الْبِضْعَ ما بَيْنَ الثَّلاثِ إِلَى التِّسْعِ». **شرح مشكل الآثار** (٧/ ٤٤١). ورُوي أنَّ **أُبي بن خلفٍ** قال لأبي بكر رضي الله عنه: والله لا تغلب الرّوم فارس أبداً... فخاطره على قلائِص مِن الإبل فذكر أَبو بكر رضي الله عنه ذلك للنَّبي صلى الله عليه وسلم، فقال له: زد في الخطر، وأبعد في الأجل، فزاد في عدد القلائص، وجعل الْمدَّة إلى سبع سِنين. ثُمَّ إنَّ الرّوم ظهرت على فارس، واسترجعوا ديار الجزيرة والشَّام وغير ذلِك من فارس، وكانوا قد استولوا عليها مِن قبل. **تفسير السَّمعاني** (٤/ ١٩٦-١٩٧).

تؤكد البشارتين بموكبٍ مِن المؤكداتٍ، في قوله ﷻ: ﴿بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥ وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾.

وفي قوله: ﴿فِي بِضۡعِ سِنِينَ﴾ **إحاطة** للنّبوءتين **بسياج مِن الدِّقة والحكمة،** فلأجل اختلاف النَّاس في **حساب الأشهر والسِّنين،** بين حسابٍ شميٍّ وحسابٍ قمريٍّ، إلى غير ذلك مِن الاختلافات، جاء التَّعبير: ﴿سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَ﴾، من **الدِّقة البيانيّة والاحتراس** البارع؛ بحيث لا يدع مجالاً لطاعنٍ ولا حاسبٍ. وصدَق الله ﷻ وعْدَه على كلّ اعتبار واصْطلاح عند النَّاس.(١)

• **إخبارُه عن دخول رسول** الله ﷺ وصحابته الكرام **مكّة فاتحين:** ﴿لَّقَدۡ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءۡيَا بِٱلۡحَقِّۖ لَتَدۡخُلُنَّ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمۡ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَۖ فَعَلِمَ مَا لَمۡ تَعۡلَمُواْ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتۡحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح:٢٧]. وقد حصل ذلك -مع أنَّ **ظروفه** لا تسمح به في **مجاري العادات**- فدلَّ على أنَّ القرآن مِن عند مَن له القدرة على **إنفاذ الوعد وبلوغ المراد.** قال **عبد الرَّحمن بنُ زيدٍ** (ت ١٨٢ هـ): قال لهم النَّبيّ ﷺ: «إنّي قَدْ رأيْتُ أنَّكُمْ **سَتَدْخُلونَ المَسْجِدَ الحَرام مُحَلِّقِينَ** رُءوسَكُمْ وَمُقَصِّرينَ». فلمَّا نزل **بالحُديبيّة** ولم يدخل ذلك العام **طعنَ المنافقون** في ذلك، فقالوا: أين رؤياه؟ فقال الله ﷻ: ﴿لَّقَدۡ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءۡيَا بِٱلۡحَقِّ﴾.. الآية.(٢) فكان تصْديقُ رُؤْياهُ ﷺ في السَّنةِ المُقبلةِ.(٣)

---

(١) البِضْع ما بين الثَّلاثِ إلى التِّسْعِ. **غريب الحديث** لإبراهيم الحربي (٢/ ٣٩٤). **يُنظر: مناهل العرفان** (٢/ ٣٧٠).

(٢) **جامع البيان** (٢٢/ ٢٥٨).

(٣) **الأسماء والصِّفات** (١/ ٤٩٥).

• **إخباره عن مآل الصَّادين** عن الدِّين، كما في قوله ﷻ: ﴿فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ ۝١٠ يَغۡشَى ٱلنَّاسَۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ [الدّخان:١٠-١١]، قال **عَبْدُ اللهِ بن مسعود** رضي الله عنه: إِنَّما كانَ هَذا، لأنَّ **قُرَيْشاً لَمَّا اسْتَعْصَوْا** عَلَى النَّبِيِّ ﷺ دَعا عَلَيْهِمْ بِسِنِينَ **كَسِنِي يوسُفَ**، فَأَصابَهُمْ قَحْطٌ وَجَهْدٌ حَتَّى أَكَلوا العِظامَ، فَجَعَلَ الرَّجُلُ يَنْظُرُ إِلَى السَّماءِ فَيَرَى ما بَيْنَهُ وَبَيْنَها **كَهَيْئَةِ الدُّخانِ** مِنَ الجَهْدِ، فَأَنْزَلَ اللهُ تعالى: ﴿فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ﴾... فَأُتِيَ رَسولُ اللهِ ﷺ، فَقيلَ لَهُ: اسْتَسْقِ اللهَ لِمُضَرَ فَإِنَّها قَدْ هَلَكَتْ، فاسْتَسْقَى لَهُمْ، فَسُقوا، فَنَزَلَتْ: ﴿إِنَّكُمۡ عَآئِدُونَ﴾ فَلَمَّا أَصابَتْهُمُ الرَّفاهِيَةُ عادوا إِلَى حالِهِمْ، فَأَنْزَلَ اللهُ ﷻ: ﴿يَوۡمَ نَبۡطِشُ ٱلۡبَطۡشَةَ ٱلۡكُبۡرَىٰٓۚ إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾ قال: يَعْني يَوْمَ بَدْرٍ.(١)

• **إخباره عن المستقبل المضروب على اليهود** على نحو مُؤكَّدٍ ومُؤبَّدٍ، وقد تحقّقّ عبر القرون وتعاقب الأجيال، مِن ذلك:

قوله ﷻ: ﴿لَن يَضُرُّوكُمۡ إِلَّآ أَذٗىۖ وَإِن يُقَٰتِلُوكُمۡ يُوَلُّوكُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ [آل عمران:١١١]. قالت **بنو قَيْنُقاعٍ**: يا مُحَمَّدُ -ﷺ- إنَّك ترَى أنَّا كقوْمِكَ، لا يَغُرّنّكَ أنَّكَ **لَقِيتَ قوماً لا عِلمَ لهم بالحربِ** فأصبْتَ فيهم فُرْصَةً، إنَّا واللهِ لَئِنْ **حاربناكَ لَتَعْلَمَنْ** أنَّا نحن النَّاسُ. وكان ذلك مجرَّد كلامٍ باللِّسان، فقد **أُخرجوا** بعد ذلك جميعاً مِن **جزيرة العرب**.(٢)

ودلَّ قوله: ﴿ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ على أنَّهم **غيرُ منصورين** مُطلقاً، ما داموا على

---

(١) **البخاري**، تَفْسيرِ القُرْآنِ، بابُ ﴿يَغْشَى ٱلنَّاسَۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ (٤٨٢١) **مسلم**، صِفَةِ الْقِيامَةِ، بابُ الدُّخانِ (٢٧٩٨).

(٢) **جامع البيان** (٦٦٦٨) (٦/ ٢٢٨).

فسقهم، ودُمتم على **خيريّتكم**: تأمرون بالمعروف، وتنهون عن المنكر..[1]. ولو كان التَّعبير بـ «**لا ينْتَصرون**» لكان فيه **مدخلٌ للأسباب**، بخلاف ﴿لَا يُنصَرُونَ﴾ فتعني أنْ **لا نصرَ لهم** – على الحقيقة – **أبداً**. وما **انتصارهم عليكم** إلَّا بسبب سيركم على غير منهج الله ﷻ؛ لأنَّ النَّصر والغلبة لجنوده: ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [الصَّافات:١٧٣].[2]

وفي قوله ﷻ: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ﴾ [آل عمران:١١٢] إشارة إلى **أنَّ الذِّلة لزمتهم أينما وُجدوا**، إلَّا أنْ يبتغوها **مِن عهدٍ** مِن الله ﷻ، أو مِن **حمايةٍ** مِن النَّاس؛ لذلك لا يمكنهم العيش **إلَّا في كنف أحدٍ**. وهذا واقعٌ مشاهدٌ وأمرٌ معلومٌ. وإذا كان **للذّلّة استثناءٌ** – بحبل مِن الله ﷻ أو النَّاس– **فالْمَسْكَنَةُ أمرٌ ذاتيّ** في النَّفس، بأمرٍ مِن الله ﷻ لا استثناء فيها، بخلاف الذِّلَّة فقد يأتي مَن ينصرهم.[3] قال **الحسن البصري**: "أخرج المسكنة عن الاستثناء للدّلالة على أنَّها باقيةٌ عليهم غيرُ زائلةٍ عنهم". وقيل: ألصق الله تعالى باليهود ثلاثة أنواعٍ مِن المكروهات، أوَّلها الذّلة، وثانيها الغضب، وثالثها المسكنة، وكلّها

---

(١) **الدّر المصون في علوم الكتاب المكنون (٣/ ٣٥٢). تفسير المنار (٤/ ٥٥).**

(٢) قال الزَّمخشري (ت٥٣٨هـ): عدل في: ﴿ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ عن حكم الجزاء ـ ثُمَّ لا يُنصروا ـ إلى حكم الإخبار ابتداءً، كأنه قيل: ثُمَّ أُخبركم أنَّهم لا يُنصرون. فإنْ قلت: فأيّ **فرقٍ بين رفعه وجزمه** في المعنى؟ قلت: لو جزم **لكان نفى النّصر مقيداً بمقاتلتهم**، كتولية الأدبار. وحين رفع كان **نفى النَّصر وعداً مطلقاً**، كأنَّه قال: ثُمَّ شأنهم وقصتهم التي أُخبركم عنها وأُبشركم بها بعد التَّولية أنَّهم **مخذولون منتفٍ عنهم النَّصر والقوّة**، لا ينهضون بعدها بجناحٍ، ولا يستقيم لهم أمرٌ. وكان كما أخبر مِن حال بنى قريظة والنَّضير وبنى قينقاع ويهود خيبر. **الكشاف** (١/ ٤٠١).

(٣) **تفسير الشَّعراوي** (٣/ ١٦٧٩-١٦٨٠-١٦٨٥).

لازمةٌ لهم؛ والعلّة في **إلصاقها** بهم أنَّهم كانوا يكفرون بآيات الله ﷻ، ويقتلون الأنبياء بغير حقٍّ.[1]

ودلَّ قوله تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ أُمَمًا مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ﴾ [الأعراف:١٦٨] على تفرقهم في بقاع الأرض، ألَّا تراهم منذ صدرت عليهم هذه الأحكام أشتاتاً في كلّ وادٍ، أذلاءَ في كلّ نادٍ، لم تجمعهم قطّ بلدةٌ، وتراهم في بلاد الغرب يُسامون أنواع الخسف والنّكال، ثُمّ تكون عاقبتهم الجلاء عنها مطرودين، وبلاد الإسلام -التي هي أرحب أرض الله صدراً- إنَّما تقبلُهم **رعيةً محكومين، لا سادةً حاكمين**. وعندما زيَّنت لهم أحلامهم أنْ يتخذوا مِن "**الأرض المقدسة**" وطناً قومياً تأوي إليه جالياتهم مِن أقطار الأرض، ما استطاعوا فعل ذلك **إلَّا بحبل مِن النَّاس**، فمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ حَديثاً!. فانظر إلى عجيب شأن النّبوءات القرآنية كيف **تقتحم حُجب المستقبل قريباً وبعيداً**، وتتحكم في طبيعة الحوادث **توقيتاً وتأييداً**، وكيف يكون الدّهر مِصداقاً لها فيما، قلّ وكثُر، وفيما قَرُبَ وبَعُدَ؟.[2]

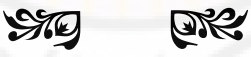

(١) **مفاتيح الغيب** (٨/ ٣٣٠).

(٢) **النَّبأ العظيم** للشيخ محمد بن عبد الله دراز (ت ١٣٧٧ هـ) (ص٨٠-٨١).

وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

الفصل الثَّاني

الفصاحة والبلاغة في القرآن الكريم

المبحث الأوَّل: معايير الفصاحة والبلاغة واستبانة الحجّة للقرآن الكريم.

المبحثُ الثَّاني: بلاغة النَّظم والتَّأليف في القرآن الكريم.

المبحث الثَّالث: وجوُه نظم القرآن الكريم المعجزة.

وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

المبحثُ الأوَّل

معايير الفصاحة والبلاغة واستبانة الحجّة للقرآن الكريم

لفصاحة الألفاظ – المفردة والمنظومة – معايير يُحْتَكم إليها، ولبلاغة النَّظم والتّأليف مقاييس يُبنى عليها. وأيّ إخلالٍ بها يذهب بفصاحة الكلام ويُنقص مِن بلاغته. والشّعر ديوان العرب، له مكانةٌ في الاستدلال والاحتجاج. ويتضمن هذا المبحث في المطلب **الأوَّل**: تعريف الفصاحة. وفي المطلب **الثَّاني**: فصاحة الكلمة المفردة والمنظومة. وفي المطلب **الثَّالث**: البلاغة والبيان في التَّأليف. وفي المطلب **الرَّابع**: دور الشِّعر في استبانة الحُجَّة للقرآن الكريم.

المطلب الأوَّل: تعريف الفصاحة

في المطلب تعريفٌ بالفصاحة، وما يُحتكم إليه فيها، ومرجعها، ودليله.

١) تعريف الفصاحة وما يُحتكم إليه فيها.

الفصاحة، في اللّغة: «فَصَحَ»، أصْلٌ يَدُلُّ على خُلُوصٍ ونقاءٍ مِن الشَّوْبِ، وفَصُحَ الرَّجل: جادت لغته **فلا** يلْحن، وأفصح الصَّبح: **إذا بدا** ضوءه.[(١)] والفصاحة: **الإبانة والظّهور، وخُلوص الكلام عَن اللّكنة، وانطلاق اللِّسان.**[(٢)]

وفي **الاصطلاح**: سلامة الألفاظ مِن اللّحن والغرابة وسوء التَّأليف.[(٣)] فهي **نعتٌ للألفاظ**، لها **شروطٌ معلومةٌ**، وبحسَب توافرها تأخذ القسط مِن

---

(١) **مقاييس اللغة** (٤/ ٥٠٧).

(٢) **جامع العلوم في اصطلاحات الفنون** (٣/ ٢٢).

(٣) **التَّعريفات** (ص١٦٧).

الوصف، وبوجود أضدادها تستحقّ الطّرح والذَّم. وفي حين كونها مقصورةً على وصف الألفاظ، **فالبلاغة** لا تكون إلَّا **وصفاً للألفاظ مع المعاني**، فلا يقالُ في **كلمةٍ** لا تدلّ على معنىً **يفضلُ** عن مِثْلها إنَّها **بليغةٌ**، وإنْ قيل إنَّها فصيحةٌ. فكلّ **كلامٍ بليغٍ فصيحٌ**، وليس كلّ فصيحٍ بليغاً، كالذي يقع فيه الإسهاب في غير موضعه.(١) **واللّفظ** على **طبقاتٍ**، فمنه: الجزْلّ والسَّخيف، والمليح والحسن، والخفيف والثَّقيل. **والفصيح**: ما **يقع وسطاً** بين **الغريب الوحشيّ، والسّوقيّ المُبْتذل**. فكما لا ينبغي أنْ يكون اللّفظُ عامّياً وساقطاً سُوقياً، كذلك ألَّا يكون غريباً وحشيّاً.(٢)

الحَكَم في الفصاحة: لمعرفة صحيح الكلام من سقيمه، وفصيحه مِن ركيكه، وبليغه مِن عييِّه، يُحتكم إلى **القرآن** الكريم، ومِن ثَمَّ إلى كلام **العرب الخُلَّص**، فكلّ **كلامٍ أشبههما عُدّ** فصيحاً، وإلَّا فقد **نَأى عنها**.(٣) وفي هذا، قال الشَّاعر **مُحمَّد بن مُناذِر** البَصْريّ (ت ١٩٨هـ) لأهل مكَّة: «ألفاظُنا **أحْكَى الألفاظِ للقرآن**، وأكثرها **له موافقةً**... أنتم تُسمّون القِدْرَ: **بُرْمة**، وتجمعون البُرْمة على بِرام، ونحن نقولُ: قِدْر، ونجمعُها على قُدورٍ. قال ﷻ: ﴿وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ﴾ [سبأ:١٣]. وأنتم تُسمون **البيت** إذا كان فوق البيت: **عُلِّيّةً**، وتجمعونه على **عَلاليّ**، ونحن نُسمِّيه **غُرْفةً**، ونجمعها على: غُرُفات وغُرَف.

---

(١) يُنظر: **سرّ الفصاحة** (ص٥٩ وما بعدها).

(٢) **البيان والتَّبيين** (١/ ١٣٥، ١٤٤). في العربية **حروفٌ لا تجتمعُ**: **فالجيم** لا تقارن الطَّاء ولا القاف ولا الغين، في تقديمٍ أو تأخيرٍ. **والزَّاي** لا تقارنُ الطَّاءَ أو السِّينَ أو الضَّادَ أو الدَّالَ، بتقديمٍ أو تأخيرٍ. **البيان والتَّبيين** (١/ ٦٥).

(٣) قال الجاحظ: أزعم أنَّ **سخيف الألفاظ** مُشاكلٌ **لسَخيف المعاني**. وقد يُحتاجُ الى السَّخيف في بعض المواضع، ورُبَّما أمتعَ بأكثرَ مِن إمتاع الجزْل الفخم، ومِن الألفاظ الشَّريفة الكريمة المعاني. **البيان والتَّبيين** (١/ ١٤٥).

قال ﷻ: ﴿غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ﴾ [الزمر:٢٠]، وقال: ﴿وَهُمْ فِي ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾ [سبأ:٣٧]». **ومِن هذا**، فقد يستخفّ النَّاس ألفاظاً ويستعملونها، **وغيرُها أحقّ** بذلك منها. ألَّا ترى أنَّ القرآن إذا ذكر **المطر** لا يَلفِظ به إلَّا في موضع **الانتقام**، والعامَّة وأكثر الخاصَّة لا يَفْصِلون بين ذِكر **المطر** وذِكر **الغيث**. **ولا يَجْمع** الأرضَ أرَضين، ولا السَّمع أسماعاً. والجاري على أفواه العامَّة غير ذلك، لا يتفقّدون مِن الألفاظ ما هو أحقّ بالذّكر وأولى بالاستعمال.[١]

واللّغات التي يُحتكم إليها لغاتُ **مَن لم يخالط الأعاجم**؛[٢] لِمَا **عرض للغات** مَن خالطهم مِن **اختلالٍ** وفسادٍ وخَطَلٍ؛[٣] لهذا ترى أنَّ أهلَ المدينة لمَّا نزل فيهم ناسٌ مِن الفُرس في قديم الدَّهر عَلِقوا بألفاظٍ مِن ألفاظهم؛ فسمَّوا البِطيخَ: **الخَرْبز**.[٤]

٢) مرْجِعُ الفصاحةِ والدَّليل عليه.

ليس **المُعوَّل** عليه في الفصاحة **المعاني**، بل **تخيّر الألفاظ، وحسن تآلُفِها**، وجَودة نظمِها، وروعة بيانِها.[٥] وقد **عاب الجاحظ** (ت٢٥٥هـ) على مَن ذهب

---

(١) **البيان والتَّبيين** (١/ ١٩-٢٠).

(٢) تختلف درجات الاحتجاج بالقبائل حسب قُربها وبُعدها مِن الاختلاط بالأمم المجاورة، فاعتمدوا كلام القبائل في قلب جزيرة العرب، وردّوا كلام المقيمين في السَّواحل أو في جوار الأعاجم. **من تاريخ النحو العربي**، سعيد الأفغاني (ص٢٠).

(٣) قال ابن جنّيّ (ت ٣٩٢ هـ): لو عُلِمَ أنَّ أهل مدينةٍ باقون على فصاحته، ولم يعترض شيءٌ من الفساد للغتهم، لوجب الأخذ عنهم كما يؤخذ عن أهل الوَبر-البادية- ولو فشا في أهل الوبر ما شاع في لغة أهل المدَرِ - الحضر - من اضطراب الألسنة... لوجب رفض لغتها وترك تلقي ما يَرِدُ عنها. **الخصائص** (٢/ ٧).

(٤) **البيان والتَّبيين** (١/ ١٩).

(٥) **الحيوان** (٣/ ٦٧).

إلى **استحسان المعنى الغريب**، وإنْ كان رديء اللَّفظ، سيئ السَّبك؛[1] لأنَّ **المعاني مطروحةٌ بالطَّريق** - يستوي في تناولها البدويّ والمدنيّ. - ومبسوطةٌ إلى غير نهايةٍ، **بخلاف الألفاظ، فهي** مقصورةٌ ومحدودةٌ.[2] **والشَّعرَ** - وأيّ نظمٍ بليغٍ - إنَّما هو **صناعةٌ وضربٌ مِن النّسجِ** والتّصويرِ. لهذا لمَّا قيل **للخَليْلِ بنِ أَحْمَدَ** (ت١٧٠هـ): «ما لك لا تقولُ الشّعرَ؟ قال: الذي يَجيئُني لا أرضاه، والذي أرضاه لا يَجيئُني».[3] **ذلك**؛ لأنَّ الألفاظ مع المعاني كمثَل **ثوبٍ مع لابسه**، مِن حيثُ إضفاؤه رونقاً وبهاءً عليه. **فالمعاني إذا كُسِيَت الألفاظَ الكريمةَ**، وأُلبست الأوصافَ الرَّفيعةَ، **تحوَّلت في العيون** عن مقادير صُورها، وأرْبتْ على حقائق أقدارِها، **بقدْر ما زُيِّنت، وحَسَبِ ما زُخْرفت**.

ومِن شواهد ذلك، أنَّ رسول الله ﷺ قال حين خطب رَجُلانِ، **وعَجِبَ النَّاسُ لبَيانِهما**: «إِنَّ مِنَ البَيانِ لَسِحْرًا».[4] وأنَّ **عُمَرَ** رضي الله عنه لم يقل للأحْنَفِ بْنِ

---

(١) قال: «رأيت أبا عَمْرٍو الشَّيْبانِيّ (ت٢١٠هـ) وقد بلغ من استجادته لهذين البيتين، أنْ كلّف رجلاً حتّى أحضره دواة وقِرطاساً، حتّى كتبهما له. والبيتان:

لا تحسِبَنَّ الموتَ مَوْتَ البِلَى	**وإنَّما الموتُ سُؤالُ الرِّجال**
كلاهما موتٌ ولكِنَّ ذا	**أشَدّ من ذاكَ لِذُلِّ السّؤال**

في بعض المصادر "فإنَّما" بدل "إنَّما" و"أفظع" بدل "أشدّ". و"ذاكَ عَلى كُلِّ حال" بدل: "ذاك لِذُلِّ السّؤال" ينظر: **الحيوان** (٣/ ٦٧). **البيان التّبيين** (٢/ ١١٦). **ودلائل الإعجاز** (ص٢٥٦). **أسرار البلاغة** (ص٨٠).

(٢) **البيان والتّبيين** (١/ ٨٢) قيل إنَّ دافعه إلى هذا الرَّد غير المباشر على بوادر الحملة العنيفة التي يقوم بها النُّقاد لتبيان السّرقة في المعاني بين الشّعراء. والجاحظ لم يحفل بهذا؛ لأنَّ الأفضليّة عنده للنَّظم والصّياغة لا للمعاني التي هي قدْر مشتركٌ بين الجميع، وعلى الأديب أنْ يتناولها ويصوغها صياغة متفردة. **تاريخ النَّقد الأدبي عند العرب**، د. إحسان عباس (ت ١٤٢٤ هـ) (ص٩٨).

(٣) **الحيوان** (٣/ ٦٧) ونسب قول الخليل - في **البيان والتَّبيين** (١/ ٢٠٨) - إلى ابن المقفع.

(٤) **البخاري**، كِتابُ الطِّب، بابٌ: إِنَّ مِنَ البَيانِ سِحْرًا (٥٧٦٧).

قَيْسٍ، بعد أنْ احْتَبَسَه حَوْلاً؛ ليتصَفّح حاله، **ويُنقّرَ عن شأنه**: «إنَّ رسول الله ﷺ قد كان **خوَّفنا كلّ منافقٍ عليمٍ**، وقد خِفْتُ أنْ تكون منهم»؛ إلَّا لِما كان **راعَه** مِن **حُسنِ منْطقِه. ومالَ إليه** وأدناه منه لمَّا رأى مِن رِفْقِه وقلَّةِ تَكَلّفِه.[1] **وأنَّ عمر بن عبد العزيز** قال لرجلٍ أحسنَ في طلب حاجةٍ، وتَأتَّى لها بكلامٍ وجيزٍ، ومنطقٍ حَسنٍ: «هذا والله السِّحرُ الحلالُ».[2]

والبلاغة **أبْيَنُ شاهدٍ وآكده** على أنَّ مرجع الفصاحة **تَخيّرُ الألفاظ**؛ لأنَّ مِن شرطِها أنْ **يكونَ المعنى مفهوماً، واللفظُ مقبولاً. وبيان ذلك**:

- أنَّ الكلام إذا كانت **عبارتُه رثّةً**، ومعْرِضُه - هيئته - خَلِقاً، **لم يُسمّ بليغاً**، وإنْ كان مفهومَ المعنى، مكشوفَ المَغزى، واحتوى على أجلِّ معنى وأنبله؛ **لأنَّ مَن قال**: البلاغة إنَّما هي **إفهام المعنى فقط**، فقد جعل **الفصاحة واللُّكنة سواءً**، وكذا الخطأَ والصَّواب، والإغلاق والإبانة.

- ولو كان **الكلام الواضح السَّلِس بليغاً**، وما خالفه مِن الكلامِ **المُسْتَغلَقِ والمُتَكَلّفِ** أيضاً **بليغاً**، لكان كلّ **ذلك محموداً وممدوحاً**؛ ولمَّا كان **أحدُهما مُسْتحْسَناً، والآخرُ مُسْتَهْجناً، يلزم** أنْ يكون **الأوَّل بليغاً، والثَّاني** ليس كذلك.[3]

- ولمَّا كانت الخُطب والأشعار لا تُعمل **لإفهامِ المعاني** فقط؛ فإنَّ **حُسْنَ الكلام**، وإحكامَ صنعتِه، ورونقَ ألفاظِه، وجَودةَ مطالعِه... **يدلّ على فضل قائلِه**. وترجعُ أكثرُ هذه إلى **الألفاظ** دون المعاني.[4]

---

(١) **الإبانة الكبرى**، لابن بطّة (٢/ ٥٢٧). ويُنظر: **المسند** (١٤٣). **مسند البزار** (٣٠٥).

(٢) **البيان والتَّبيين** (١/ ٢٥٤-٢٥٥).

(٣) **الصناعتين: الكتابة والشِّعر**، في فصل الإبانة عن حدّ البلاغة (ص١٠). ويُنظر: **صبح الأعشى** (٢/ ٣٢٤).

(٤) **الصناعتين: الكتابة والشِّعر** (ص٥٨).

المطلب الثَّاني: فصاحةُ الكلمة المفردة والمنظومة

لفصاحة الكلمة المفردة أو المنظومة شروطٌ يجب توافرها.

أوَّلاً، فصاحةُ الكلمة المُفردة.

مِن شروط فصاحتها:

١) أنْ يكون تأليفُهاِ **مِن حروفٍ متلائمةٍ غير متنافرةٍ**. والتَّنافرُ: **البعدُ الشَّديدُ** بين مخرجي الحرفين، أو **القربُ**؛ لأنَّ البعدَ الشَّديد **بمنزلة القفز**، والقربَ الشّديد بمنزلةِ **مشي المُقيَّد**. والتَّلاؤم ما كان بين ذلك.[١] فإذا **تقاربتْ مخارج** الحُروف كانت **أثقلَ على اللِّسان** منها إذا تباعَدت؛ لأنَّك إذا اسْتعْملت اللِّسان في **حُروف الحلق** دون حُروف الفم أو حُروف الذَّلاقَة،[٢] كلَّفته **جَرْساً واحِداً** وحركاتٍ مُخْتَلفَةً.[٣] بخلاف **إذا ما تَباعَدت** فإنَّه يحَسُنَ وجهُ التَّأليف؛[٤] **وعلّة**

---

(١) **النّكت في إعجاز القرآن** (ص٩٦).

(٢) حُروفُ الذَّلاقَةِ: حروف طرف اللِّسان والشَّفة، وهي: الرّاءُ واللّام والنُّونُ والفاءُ والباءُ والميم. **تاج العروس** (٢٥/ ٣٢٢).

(٣) لا يكاد يَجِيء في كلام العرب **ثلاثة أحرفٍ** مِن جنسٍ واحِد في **كلمةٍ واحِدَةٍ** لصعوبة ذلك عليهم، فأمَّا حرفان فقد اجْتمعا في كلمة مثل: «أحد وأهل وعهد ونخع»، **وأصعبُها حُروفُ الحَلْق**، لها مِيزَةٌ خاصَّة في القُبح إذا تقاربت وكان التَّأليف منها فقط. **مثل**: «**الهُعْخُع**» قيل: **هي شَجَرَةٌ يُتَداوَى بوَرَقِها. وقال أعرابيٌّ**: إنَّما هو «**الخُعْخُعُ**»، **وهذا موافق لقياس العربيّة**. يُنظر: **العين**، للخليل بن أحمد (ت ١٧٠ ه) (٢/ ٢٧٤). **جمهرة اللغة**، ابن دُريد الأزديّ (ت٣٢١ه) (١/ ٤٦).

(٤) ذكر **ابنُ جنيّ** (ت٣٩٢ه) أنَّ تأليف الحروف ثلاثةُ أضربٍ: **أحدُها**: تأليفُ الحروفِ المُتباعدة، وهو الأحسنُ. **ويليه في الحُسن**: تضعيفُ الحرف نفسه. **والثَّالثُ**: تأليفُ الحروفِ المُتقاربة، وهو دون الاثنين الأوَّليين، إمَّا مهملٌ أو قليلٌ جداً. وقد كان **تضعيف الحرف** عليهم أسهل مِن **تأليفه مع ما يُقاربه**؛ لأنَّ المتماثلَين يخفَّان بالإدغام. لذلك لمَّا أرادت بنو تميمٍ إسكان عَيْن «مَعْهم» كرهوا ذلك فأبدلوا الحرفين حاءين، وأدغموا الأولى في الثَّانية، فقالوا: «مَحُّمْ» فرأوا ذلك أسهلَ مِن =

ذلك، أنَّ الحروف - والتي هي **أصواتٌ** - تجرى مِن **السَّمع مجرى الألوان** مِن البصر، **والمُتباينة** منها إذا **جُمِعت** كانت في المنظر أحسن مِن **المُتقاربة**؛ لهذا كان **البياضُ مع السَّواد** أحسنَ منه - لبُعْد ما بينهما - مع **الصُّفرة**؛ لقُرْبِ ما بينهما. وإذا كان هذا موجوداً على هذه الصِّفة كانت **العلّةُ في حُسْنِ اللّفظةِ** المؤلَّفةِ مِن الحروف المُتباعدة، هي **العلّة في حُسْنِ النُّقوش** إذا مُزِجتْ مِن الألوان المُتباعدة، وجُلّ كلام العرب عليه.[1] هذا في **الأغلب**، إذ قد يجيء مِن **مُتقارب** المخارج ما هو **حسنٌ**، كـ«**الجيم والشّين والياء**» مخارجها متقاربةٌ - وهي مِن وسط اللّسان بينه وبين الحنك، وتسمى ثلاثتها الشّجرية - يتركب منها: «**جيش**» و«**شجي**» وهما لفظان في غاية **الحُسْن والرّونق**.[2]

٢) أنْ تجدَ لتأليفها في **السَّمع حُسناً ومَزيَّةً** على غيرها، وإنْ **تساويا في التَّأليف** مِن الحروف **المُتباعدة**، كما تجد لبعض النَّغم والألوان حُسناً يُتَصوّرُ في النَّفس، ويُدْركُ بالبصر والسّمع، دون غيره ممَّا هو مِن جنسه. فلا يخفى على أحدٍ أنَّ تسمية **الغُصن** «غُصْناً، أو فَنَناً»، أحسنُ مِن تسميته «**عُسْلُوجاً**». وأنَّ «**أغصانَ البان**» أحسنُ مِن «**عَسالِيج الشَّوحط**» **في السَّمع**.[3]

= الحرفين المُتقاربين. **سرّ صناعة الإعراب** (٢/ ٤٣٠-٤٣١). ويُنظر: **عروس الأفراح** (١/ ٦٠). **المُزْهر في علوم اللّغة** (١/ ١٥٤). قال **ابن يعيش** (ت٦٤٣هـ): حُكي عن بني تميم، قولهم: «مَحّمْ» بدل «معهم»، و«مَحّاؤُلاءِ» بدل «مَعَ هؤلاء»؛ وذلك لقرب العين مِن الهاء؛ ولأنَّ اجتماع الحاءين أخفّ عندهم مِن اجتماع العينين والهائين. **شرح المفصل** (٥/ ٥٣٤).

(١) كـ: العلم- البُعد- الجهل- الحرف... **سر الفصاحة** (ص٦٤).

(٢) **الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور** لابن الأثير الكاتب (ت٦٣٧هـ) (ص ٣٥). يُنظر: **النّشر في القراءات العشر** (١/ ٢٠٠).

(٣) **الْعُسْلُوجُ**: الْغُصْنُ، والْجَمْعُ عَسالِيجُ مِثْلُ عُصْفورٍ وَعَصافيرَ. **والشَّوحطُ**: ضَرْبٌ من أَشجارِ الجِبالِ يُتَّخذُ منه القِسيُّ. **معجم ديوان الأدب** (٢/ ٣٧). **المصباح المنير** (٢/ ١٠).

٣) أنْ تكون جاريةً **على العُرف العربيّ الصَّحيح**. ويخرج بهذا كلّ ما ينكره أهل اللُّغة ويرده علماء النَّحو مِن التَّصرف **الفاسد في الكلمة**. مِن ذلك:

إنكارهم كلمةً لأنَّها ليست **مِن كلام العرب**، كـ«**المِقْراضِ**».[١]

أو لأنَّها **خلاف الصِّيغة** في الجَمْع أو غيره، كقول **الطِّرِمَّاحُ** بن حكيمٍ الطّائي (ت١٢٥هـ):[٢]

وأَكْرَهُ أنْ يَعِيبَ عَلَيَّ قَوْمِي ... هِجَايَ الأَرْذَلِين ذَوي **الحِنَاتِ**

جمع «**إحْنَة**» على غير الجمع الصَّحيح: **الحِنَات**؛ لأنَّها **إحْنَةٌ وإحَنٌ**، ولا يقالُ: حِنَات.

أو **للتّعبير بها** عن غير ما **وضِعت له في اللُّغة**، كقول أبي تَمَّامٍ (ت٢٣١هـ) في وصف **فرسٍ** أُهديت له:

ما مُقْرَبٌ يختالُ في أشطانِه ... مِلآنُ مِن **صَلَفٍ** به وتَلَهْوُقِ[٣]

يريدُ **بالصَلَف** الكِبْر والتِّيه، والعرب لا تستعملها على هذا المعنى، إنَّما تقول: **صَلِفَتِ الْمَرْأَةُ** عِنْدَ زَوْجِها، إذا لَمْ تَحْظَ عِنْدَهُ، **وصَلِفَ الرَّجلُ**، إذا كرهتْهُ زوجتُه.[٤]

---

(١) استعملها **عبد الله بن أبي الشِّيصِ** الخُزاعيّ، في قوله:

وجناحِ مقْصوصٍ تَحيَّفَ ريشَهُ ... رَيْبُ الزَّمانِ تَحَيُّفَ المِقْراضِ

الشّعر والشّعراء لابن قتيبة (٢/ ٩١٨). **تاريخ بغداد** (١٠/ ٦٤).

(٢) شاعر شاميّ المولد والمنشأ، كوفيّ الدّار، خارجيّ المذهب. **تاريخ دمشق** (٢٤/ ٤٦٥).

والطِّرِمَّاح: الطّويل. وكلُّ شيءٍ طوَّلَته فقد طَرْمَحْته. **الاشتقاق** (ص٣٩٢).

(٣) قاله في وصف فرسٍ أُهديت له، وقُربت ليُحمل عليها. **والمُقْرَب**: المُكرَم على أهله. **تَلَهْوَقَ فلان: تزيّن بما ليس عنده مِن سخاء ومروءة ودين. أساس البلاغة (٢/ ١٨٢).**

(٤) **الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتريّ** (١/ ٤٥). قال الجوهري (ت٣٩٣هـ): وزعَمَ الخليلُ =

أو **لوردوها** على **الوجه الشاذّ القليل**، وهو **أردأ اللّغات** فيها لشّذوذه، كقول المُتَنَبِّيّ (ت٣٥٤هـ) في رثاء ابن سيف الدّولة:

أيَفْطِمُــهُ **التَّــوْرابُ** قَبْــلَ فِطامِــهِ ويَأكُلُــهُ قَبْــلَ البُلــوغِ إلــى الأكْــلِ

فالتَّوْرابُ لغةٌ في التّراب شاذةٌ غيرُ كثيرةٍ.(١)

٤) **أنْ تكون معتدلةً غيرَ كثيرةِ الحُروفِ**، فمتى زادت على الأمثلة المعتادة، قبُحت، وخرجت عن الفصاحة، مِن ذلك قول أبي تَمَّامٍ (ت٢٣١هـ):

وإلــى مُحَمَّــدٍ ابْتَعثْــتُ قصــائدي ورفعــتُ **للمُسْتَنْشِــدين** لِــوائي

فـ «المُسْتَنْشِدون»،(٢) كلمةٌ كثيرةُ الحروف.(٣)

= أَنَّ (الصَّلَفَ) مُجَاوَزَةُ قَدْرِ الظَّرْفِ، والِادِّعَاءُ فوق ذلكَ تكَبُّراً، فَهُوَ رَجُلٌ (صَلِفٌ). **الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية** (٤/ ١٣٨٨). يُنظر: **العين** للخليل (ت١٧٠هـ) (٧/ ١٢٥).

(١) **الفِطام**: منع الصَّبيِّ مِن الرِّضاع، **والتَّوراب**: لغة في التّراب. فيقول: أيفطمه التّراب باشتماله عليه قبل بلوغه سنّ الفِطام، ويأكل جسمه بإبلائه له قبل بلوغه سنّ الأكل؟ يشير إلى اختزام الموت له في سنِّ الطفولة. **شرح معاني شعر المُتَنَبِّيّ** لابن الإفليليّ (ت٤٤١هـ) (١/ ٢٤١). **أبو الطيِّب المُتَنَبِّيّ وما له وما عليه**، أبو منصور الثَّعالبيّ (ت٤٢٩هـ) (ص٧٩). وقال الصاحبُ ابن لَنْكَك: ومِن أطمِّ ما يتعاطاه التَّفاصح بالألفاظ النَّافرة والكلمات الشَّاذة، حتّى كأنَّه وليد خباءٍ، وغُذي لبنٌ، لم يطأ الحضر، ولم يعرف المدر. فمن ذلك قوله: "**أيفطمه التّوراب**" وليس ذلك سائغاً لمثله، وهو وليد قريةٍ، ومعلم صبيَةٍ. **وابْن لَنْكك**: محمد بْن محمد بْن جعْفَر، البصري النَّحْويّ الشَّاعر. (ت٣٦٠هـ) و"لَنْكَك" **لفظ أعجمي**، معناه بالعربي أُعيرج، تصغير أعرج؛ لأنَّ كلمة "لنك" معناها أعرج، وعادة العجم إذا صغَّروا اسماً ألحقوا في آخره كافاً. وصفه الثَّعالبي بفرد البصرة وصدر أدبائها، وقال: أكثر شعره مُلَح وطُرَف، جُلُّها في شكوى الزَّمان وأهله وهجاء شعراء عصره. **وفيات الأعيان** (٥/ ٣٨٢). **معجم الأدباء** (٦/ ٢٦١٩).

(٢) اسْتَنْشَدْتُ فلاناً شِعره فأنْشَدَنيه. **والنَشيدُ**: الشِعْرُ المُتَناشَدُ بين القوم. **الصّحاح** (٢/ ٥٤٤).

(٣) **سرّ الفصاحة** (ص ٨٨) قال بهاء الدّين السّبكيّ (ت ٧٧٣ هـ) فإنْ قلْتَ: زيادةُ الحروف =

٥) ألَّا تكـون متـوعرةً ولا حشـيّةً.[١] وممّـا **جمـع العلَّتـين**: "تتكـأكؤون، وافرنقعوا" وذلك فيما حُكي عن **أبي علقمة النَّحويّ** (ت٦٤٦هـ)،[٢] قولـه: «مـا

= لزيادة المعنى كما في «اخْشَوْشَنَ ومقتدر وكَبْكَبوا» فكيفَ جعلتم كثرةَ الحروف مُخِلّاً بالفصاحةِ مع كثرةِ المعنى فيه. **قلت**: لا مانع مِن أنْ تكون إحدى الكلمتين **أقلَّ معنىً** مِن الأُخرى وهي **أفصحُ منها**. إذ الأمور الثَّلاثة التي يُشترط الخُلوص عنها - التّنافر والغرابة ومُخالفة القياس - لا تعلق لها بالمعنى. **عروس الأفراح** (١/ ٦٧). وقد ذكر العلماء أنَّ مِن شروطِ الفصاحة أنْ تكونَ **الكلمةُ متوسطةً** بين قلَّةِ الحروف وكثرتها، والمتوسطةُ ثلاثة أحرفٍ. قال **الرَّازيّ**: فأمَّا **الحرف الواحد** فليس بمفيدٍ أصلاً. وأمَّا المركبة مِن حرفين فليست في غاية العذوبة، بل **البالغ** فيها **الثُّلاثيَّات**؛ لاشتمالها على المبدأ والوسط والنِّهاية. والسَّبب فيه أنَّ **الصوتَ تابعٌ للحركة**، والحركة لا بدَّ لها مِن هذه الأمور الثَّلاثة، فمتى كانت هذه المراتب أتمَّ ظهوراً في الحركة كان الكلامُ أسهلَ جرياناً على اللّسان. وأما **الرُّباعيَّات والخُماسيَّات** فلا يخفى ثقلها. والسَّبب فيه زيادتها على **الدّرجات الثَّلاث** التي يتعلق بها كمال الصَّوت. **نهاية الإيجاز** (ص٥٨).

(١) **المتوعرة**: صعبة اللّفظ. **والوحشية**: قليلة الاستعمال، وأحسن الألفاظ ما كان **مألوفاً** دائراً في تآليف الفصحاء؛ لأنَّ **الألسنة صقلته والأسماع والقلوب أنِسَته**. ولذلك كانت جميع ألفاظ القران الكريم منخرطةً في هذا السَّلك، وجاريةً في هذا المنهاج. **واستعمال العرب** للوحشي ليس **عيباً في كلامهم**؛ لأنَّه مِن لغة القوم، وبه كانت مفاوضاتهم في أحاديثهم وأشعارهم، وكان لهم **طبعاً وخليقةً**. والدَّليل على أنَّ **العرب لا يلامون في استعمال الوحشي** مِن الكلام أنَّ النَّبيَّ ﷺ قد نطق به كثيراً في كلامه، وأنت به الأخبار المنقولة عنه، كحديث طَهفة بن زهيرٍ النّهدي رضي الله عنه وغيره. يُنظر: **الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور** (ص٤١-٤٦) **والاستيعاب في معرفة الأصحاب (١٢٩٣)** والحديث، عن عُرْوَةَ بْنِ رُوَيْمٍ، قَالَ: «قَدِمَتْ وُفُودُ الْعَرَبِ عَلَى رَسُولِ الله ﷺ، فَقَامَ طَهْفَةُ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله، جِئْنَاكَ مِنْ غَوْرَيْ تِهَامَةَ عَلَى أَكْوَارِ الْمَيْسِ، تَرْمِي بِنَا الْعِيسُ، نَسْتَعْضِدُ الْبَرِيرَ، وَنَسْتَحْلِبُ الصَّبِيرَ، وَنَسْتَخْلِبُ الْخَبِيرَ، وَنَسْتَخْبِلُ الرِّهَامَ... فقالَ رسُولُ الله ﷺ: اللَّهُمَّ بَارِكْ لَهُ فِي مَحْضِهَا وَمَخْضِهَا وَمَذْقِهَا، وَاحْبِسْ مَرَاعِيَهَا فِي الدِّمَنِ...». **تاريخ المدينة لابن شبّة** (٢/ ٥٥٩-٥٦٠).

(٢) نحويّ قديم العهد كان يتقعّر في كلامه، ويتعمّد الغريب الوحشيّ. **إنباه الرّواة على أنباه النّحاة**، القفطيّ (٤/ ١٥٢).

لكم تتكأكَؤون عليَّ تكأكُؤكم على ذي جِنّة، افرنْقِعوا عنِّي» هذا إضافةً إلى قُبح التَّأليف الذي يمجّه السَّمع.[1]

٦) ألَّا تكون **ساقطةً عاميّةً**. مِن ذلك قول أبي تَمَّامٍ (ت٢٣١هـ):

جَلَّيتَ وَالمَوتُ مُبدٍ حُرَّ صَفحَتِهِ وَقَد **تَفَرعَنَ** في أَفعالِهِ الأَجَلُ

فـ "**تَفَرْعَنَ**" **مشتقٌ** مِن اسم **فِرْعون**. وهو مِن ألفاظ العامّة، وعادتهم أنْ يقولوا: تَفَرْعَنَ فلانٌ، إذا وصفوه بالجبريّة.[2]

٧) ألَّا تكون قد **عُبر بها عن أمر يُكره ذكرُه**، كقول عروة بن الورد (ت١٥ق.هـ):

قُلْتُ لِقَومٍ في **الكَنِيفِ**: تَرَوَّحُوا عَشِيَّةً بِتْنَا عِنْدَ مَاوَانَ رُزَّحِ[3]

الكنيفُ، أصله السَّاتر، ومنه قيل للتّرس كنيفٌ، إلَّا أنَّه استُعمل في الآبار التي تستر الحدَث، وإنْ ورد مورداً صحيحاً فذكْره قبيحٌ لموافقته العرف الطّارئ.[4]

---

(١) أي ما لكم اجتمعتم عليّ اجتماعكم على ذي جنّة – مجنون – تفرّقوا عني. قال ذلك حين سقط عن حماره. **صبح الأعشى** (٢/ ٢٥٦)

(٢) قال الحسن بن بشر الآمديّ (ت٣٧٠هـ): معنى في غاية **الرّكاكة والسّخافة**. وما زال النَّاس يعيبونه به، ويقولون: اشتقَّ للأجل، وقد أتى الأجل على فرعون، وكلِّ فرعونٍ كان في الدّنيا. **الموازنة بين شعر أبي تَمَّامٍ والبحتريّ** (١/ ٢٣٩).

(٣) **ماوان**: وادٍ فيه ماءٌ فيما بين النّقرة والربّدة، فغلب عليه الماء فسمي ذك الماء ماوان، **رُزَّح**، جمع رازح: السَّاقط من الإعياء، الكنيف: الحظيرة والمأوى. **شرح حماسة أبي تمام**، زيد بن علي الفارسيّ (ت٤٦٧هـ) (٢/ ٢٥٤).

(٤) وذلك أنَّ عروة مرّ بقومٍ مِن أهله قد جهدوا، فأقاموا على أنفسهم حظيرةً خوفاً مِن السّباع، قالوا: عملنا هذا نمكث فيه حتّى الموت، فلامهم على ذلك واستنهضهم لطلب الرّزق... **زهر الأكم في الأمثال والحكم** (٢/ ١٥١-١٥٢).

ثانياً، فصاحةُ الكلمةِ المنظومة.

شروط فصاحة الكلمة المنظومة عينُ شروط فصاحة الكلمة المُفردة، وإنَّما الاختلافُ أنَّ مخالفةَ الشَّرط أكثرُ قُبحاً حالة النَّظم منها في حالة الإفراد، ومِن **أهم شروطها:**

١) **التَّلاؤمُ وعدم التَّنافر بين الكلمات.** وصِفتُها أنْ تكونَ مؤلفةً مِن حروفٍ غير **متنافرةٍ ولا مُكررةٍ.** والتَّنافرُ إذا قَبُحَ في اللّفظ، فهو في **التَّأليف أقبحُ،** إذ تقتضي الفصاحة عدمَ تنافرِ الكلمات ضمن الجملة الواحدة؛ لأنَّ الألفاظ إذا تنافرتِ **صَعُبَ النّطقُ** بها، وبدَتْ غيرَ متلائمةٍ ولا متوافقةٍ. وحول هذا المعنى قال **الجاحظ** (ت٢٥٥هـ): مِن ألفاظ العرب **ألفاظٌ تتنافرُ،** وإنْ كانت مجموعةً في بيت شعرٍ لم يستطعْ المُنشدُ إنشادَها إلَّا ببعض الاستكْراه. مِن ذلك:[١]

وَقَبْرُ حَرْبٍ بِمَكانٍ قَفْرُ وَلَيْسَ قُرْبَ قَبْرِ حَرْبٍ قَبْرُ

فهذا البيت مبنيٌّ مِن **حروفٍ مُتقاربةٍ ومُكررةٍ؛** لهذا يَثْقُلُ النّطقُ به.[٢] والتَّنافر فيه **بين كلماته وليس بين حروفه؛** لأنَّ كلّ كلمة على انفرادها لا تنافرَ فيها. فهذه «القافات والرّاءات والباءات» **تكررت وتقاربت، فأكسبت الكلام ثِقلاً ورِكّةً** تبعدُ به عن الفصاحة، وتنأى لأجله عن البلاغة.[٣] وكلّ ما حصلَ فيه

---

(١) **البيان والتبيين** (١/ ٧٤). **النّكت في إعجاز القرآن** (ص٩٥). قيل إنَّه من شعر الجِنّ قالوهُ في حَرْب بن أُميَّة بن عبد شمس لمَّا قَتَلوهُ بثأر حيةٍ منهم، وقد دفن ببادية بعيدةٍ. وهذا شيْءٌ ذكرته الرّواة في أخبارها والعرب في أشعارها. **معاهد التَّنصيص على شواهد التَّلخيص،** عبد الرَّحيم بن عبد الرَّحمن بن أحمد العباسيّ (ت٩٦٣هـ) (١/ ٣٤).

(٢) ظنَّوه مِن أشعار الجِنِّ؛ لأنَّ المرءَ لا يستطيعُ إنشاده ثلاثَ مراتٍ في نسقٍ واحدٍ دون أنْ يُتَعْتِعَ أو يتَلجْلجَ". **سر الفصاحة** (ص ٩٨).

(٣) **الطّراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز** (٣/ ٣٠). **المثل السَّائر** (١/ ٣٠٩).

تكرار الحُروف، فإنَّ فيه هذا التَّنافر، وليس منه قوله ﷻ: ﴿وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَ﴾ [هود:٤٨] لأنَّ في **مخْرجيّ الميم والنّون** – وهما: طرفُ اللّسان والشَّفة وذلاقتهما،[١] وتوسطهما بين الضَّعف والقوة – ما أزال ثِقَلَ التَّكرار.[٢]

٢) **تلاحم الكلمات وحُسن موقعها**، وذلك بأنْ تجدَ للَّفظة في **السَّمع حُسناً ومَزِيَّة على غيرها، لا** مِن **أجل تباعدِ الحروفِ فقط**، بل لأمرٍ **يقعُ في التَّأليف**، كما يتفقُ في بعض النّقوش ويكون في التَّأليف إذا **ترادفتِ الكلماتُ المُختارة**، فيوجدُ الحُسْنُ فيه أكثر، وتزيدُ طلاوتُه على ما لا يجمعُ مِن تلك الكلمات إلَّا القليلَ. قال **الجاحظ** (ت٢٥٥هـ) عن بيتٍ لمُحمَّد بن يَسَيْرٍ الرِّياشِيِّ (ت٢١٠هـ):[٣] "تفقَّدْ نصفه الأخير، فستجدُ بعضَ **ألفاظِه يتبرأُ مِن بعضٍ**". وذلك كما قال **خَلَفٌ الأحْمَر** (ت١٨٠هـ) في وصفِه الشِّعر غيرِ المُتَلاحم:

وَبَعْضُ قَرِيضِ الْقَومِ أبْناءُ عَلَّةٍ يَكِدّ لِسانَ النَّاطِقِ الْمُتَحَفِّظِ

فإذا كانت ألفاظُ البيتِ مِن الشِّعر لا يقَعُ بعضُهَا مُمَاثلاً لبعضٍ، كان بينها مِن التَّنافر ما بين أوْلاَد العَلَّات،[٤] **والكلمة** إذا كان موقعها إلى جنب **أختها** ليس **مَرضيّاً**، كان على اللِّسان عند **إنشاد ذلك الشِّعر مؤونةٌ. وأجودُ الشِّعر** ما

---

(١) الذَّلاقة: الاعتماد في النَّطق على ذلق اللّسان، أي على طرف اللّسان والشَّفة، وحروفها ستة تجمعها عبارة: «فِرَّ مِنْ لُبِّ»، وسُمِّيت بذلك؛ لخفتها وسرعة النَّطق بحروفها. ومن معانيها في اللّغة: الفصاحة. **هداية القاري إلى تجويد كلام الباري** (١/ ٨٣).

(٢) **عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح** (١/ ٧٧). يُنظر: **سرّ الفصاحة** (ص ٩٨).

(٣) **لم يُضِرْها والحمدُ لله شيءٌ وانْثَنَتْ نحوَ عَزْفِ نَفْسٍ ذَهولِ**

(٤) أوْلاَدُ العَلَّات: الَّذينَ أمَّهاتُهم مُخْتَلفةٌ وَأَبوهُمْ واحِدٌ. **النِّهاية في غريب الحديث والأثر** (٣/ ٢٩١).

رأيتَه متلاحمَ الأجزاء، سهلَ المَخارج، يجري على اللِّسان كما يجري الدِّهان، أيْ الدُّهُن. ويصف أبو **البَيداء الرِّياحِيّ** الشّعر غير المُتلاحم، بقوله:

وشِعْرٌ كَبَعْرِ الكَبْشِ فَرَّقَ بَيْنَهُ لِسانٌ دَعِيٌّ في القَرِيضِ دَخِيلُ

فقوله: «كَبَعْرِ الكَبْش» أيْ: يقع **مُتفرّقاً غَيْرَ مؤْتلفٍ ولا متجاورٍ**، وكذلك حروفُ الكلام وأجزاءُ البيت مِن الشِّعر، **تراها متفقةً** ليّنةَ المعاطف، **أو مختلفةً متباينةً**، ومتنافرةً مستكْرَهة، **تَشُقّ على اللِّسانِ وَتَكِدّهُ**، والأُخرى تراها سهلةً سَلِسةَ النِّظام، خفيفةً على اللِّسان، حتَّى كأنّ البيت بأسْرِه كلمةٌ واحدةٌ، وحتّى كأنّ الكلمةَ بأسرها حرفٌ واحدٌ.[1]

٣) أنْ تكون الكلمةُ جاريةً على **العُرف العربيّ الصَّحيح** مِن الوجوه **النَّحويّة** والمعاني **الإعرابيّة**؛ لأنَّ إعرابَ **اللَّفظةِ تبعٌ لتأليفها مِن الكلام**، وعلى حكم الموضع الذي وردت فيه؛ وتفصيل ذلك بيَّنته كُتب النّحو.

٤) ألَّا تكون الكلمةُ **عُبر بها عن أمرٍ يُكْره** ذكْره في هذا الموضع؛ فإنَّ للنَّظمِ والتَّأليفِ تَعلّقاً بحسب **إضافة الكلمة إلى غيرها**، والقُبحُ يختلفُ بحسب ذلك، كما في قول الشَّريف الرَّضيِّ (ت٤٠٦هـ):[2]

أعْزِزْ عَليَّ بِأنْ أراكَ وَقَدْ خَلتْ مِنْ جانِبَيْكَ مَقاعِدُ العُوَّادِ[3]

---

(١) **البيان والتَّبيين** (١/ ٧٤ - ٧٥).

(٢) قاله في رثاء إِبْراهيم بن هِلال بن إِبْراهيم الصَّابِئ الْحَرَّاني، صاحب الرسائل المَشْهورَة، كتب الإِنْشاء لعز الدّولة بختيار ابْن بويه، وَكانَ متشدداً في دينه، حرص عَلَيْهِ عز الدولة أَن يُسْلم فَلم يفعل. **الوافي بالوفيات** (٦/ ١٠١).

(٣) "أعْزِزْ عَليَّ": أَيْ أعْظِمْ، ومعناه: عَظُمَ عَلَيَّ. **تاج العروس** (١٥/ ٢٢١). مَقاعِدُ: جمع مَقْعَد مَوْضِعُ الْقُعودِ. والعوَّاد الزُّوار، وكلّ من أَتاك مرّة بعد أُخْرَى فَهُوَ عائِد. **الفائق في غريب الحديث** (٣/ ٣٨). **المصباح المنير** (٢/ ٥١٠).

فإيرادُ «**مَقاعِد**» في البيت صحيحٌ، إلَّا أنَّه **يُكره** في مثل هذا الشَّأن **ذكره**؛ لأنَّه **في مقام رثاءٍ**، فلا يَحسنُ استعمالُه؛ حيث لا مقاعدُ هناك ولا زوَّارُ. ولم لو يضفه لكان الأمر فيه سهلاً، وأمَّا وقد أضافه إلى "**العواد**" ففيها قبحٌ لا خفاء به،[1] ولو قال عوضاً عن ذلك: مقاعد الزّيارة، وما جرى مجراه، لذهب ذلك القبح، وزالت تلك الهُجْنَة والكراهة.[2]

٥) تخيّر اللّفظ **الأقرب** إلى **الدّلالة على المراد، والأوضح** في **الإبانة** عن المعنى المطلوب - لأنَّ الكلام **موضوعٌ للإبانة** عن الأغراض التي في النُّفوس - وألّا يكون مُسْتَكْرَهَ **المطْلعِ على الأُذنِ**، ولا **مسْتَنْكر المَوْرِد على النَّفس**، حتَّى يتأبَّى بغرابته في اللَّفْظ عن الأفهام، أو يمتنعَ عن الإبانة. معَ البعد عمَّا كان **عامِّيَّ اللَّفْظ**، مُبْتَذل العبارة، رَكيك المعنى.[3]

المطلب الثّالث: البلاغة والبيان في التَّأليف

الغاية مِن البلاغة: حُسنُ البيان، وذلك بإيصال المعنى: بأوضح عبارةٍ، وأوجز تأليفٍ، وأعذب نظمٍ.

أوَّلاً، معنى البلاغة وصفتها وحقيقتها.

هناك مَن عرَّف البلاغة بأنَّها: **الإيجاز** في غير عجزٍ، **والإطناب** في غير خَطَلٍ. **والإيجاز**: حذفُ الفضولِ وتقريبُ البعيد. ومن هذا الباب أنَّ **عبدِ اللهِ بنِ عُمَر** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا بعد أنْ دعا بدعواتٍ قال فيها: «اللَّهُم ارْحَمْنا وعافِنا وارْزُقْنا. **قيل له:**

---

(١) **سرّ الفصاحة** (ص٨٥ -١١٠).

(٢) **الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور** (ص٥٤).

(٣) **إعجاز القرآن** (ص١١٣-١١٧).

لو زدتَنا، **فقال**: نعوذ بالله مِن الإسْهاب».[١]

وذهب **الجاحظ** (ت٢٥٥هـ) إلى أنَّ **البلاغة ليست في الإيجاز؛ لأنَّ البليغ مِن الكلام**، ليس الموجَز ولا المُسْهَب، بل **المُساوي للمعاني**؛ لذلك قال في وصفها: أحسن ما اجتبيناه ودوناه: «لا يستحقّ الكلام اسمَ البلاغة حتّى **يُسابقَ معناه لفظَه، ولفظُه معناه**، فلا يكونُ لفظُه إلى سمعك أسبقَ مِن معناه إلى قلبِك».[٢] أيْ: ما تأدّى به المعنى على نحوٍ واضحٍ على الوجه الذي يقصده المُتكلّم.

وبيَّن صفتها، بقوله: «وإنَّما الألفاظُ **على أقدار المعاني**، فكثيرُها لكثيرها، وقليلُها لقليلها، وشريفُها لشريفها، وسخيفُها لسخيفها». **وفرَّق** بين المعاني **المفردة** البائنة بصورها وجهاتها، **والمعاني المُشترِكة، والجهات المُلْتَبِسة**، بأنَّ الأولى **تحتاجُ مِن الألفاظ إلى أقلَّ** ممَّا تحتاجُ إليه الثّانية.[٣]

وبيَّن حقيقتها، بأنَّها **موافقة الكلام لمقتضى الحال**، بأنْ يعرف المتكلِّم **أقدار المعاني**، ويُوازنَ بينها وبين **أقدار المُسْتمعين** وبين **أقدار الحالات**، فيجعلَ لكلّ **طبقةٍ مِن ذلك كلاماً**، ولكلِّ حالةٍ مِن ذلك مَقاماً، حتّى يقْسِمَ **أقدارَ الكلامِ** على **أقدار المعاني**، ويقْسِمَ **أقدارَ المَعاني** على **أقدار المَقامات، وأقدار المُسْتمعين** على أقدارِ تلك الحالات.[٤]

---

(١) **البيان والتَّبيين** (١/ ٩٧).

(٢) **البيان والتَّبيين** (١/ ١١٥).

(٣) **الحيوان** (٦/ ١١٨).

(٤) **البيان والتَّبيين** (١/ ١٣٨ - ١٣٩).

ثانياً، معنى البيان والغايةُ منه.

البَيانُ في اللُّغة: الفصاحةُ واللَّسَنُ،[1] وما يَتَبيَّنُ به الشَّيءُ مِن الدّلالة وغيرها، وفُلانٌ **أَبْيَنُ مِنْ فُلانٍ**: أَفْصَحُ منه وأوضحُ كلاماً.[2] وفي الأصْل، البَيانُ: **مصدرُ** «بانَ الشَّيْءُ» بِمَعْنى تبيَّن وظهر. **ونَقله الاصْطِلاح** إلى الفصاحة، وإلى **ملكةٍ أو أصولٍ** يُعرفُ بها إيراد **المعنى الواحِد في صورٍ مُخْتَلفَةٍ**. **والبَيانُ** ما يتَعَلَّق باللَّفْظِ، **والتِّبيانُ** ما يتَعَلَّق بالمَعْنَى.[3]

وعُـرِّف بأنَّـه: **إظهـارُ المُـتكلِّم المـرادَ للسَّـامع**، وهـو النّطـق الفصـيحُ المُعْرِبُ.[4] **كما عُرِّف بأنَّه** اسمٌ جامعٌ لكلّ شيءٍ **كشفَ قناع المعنى، وهتك الحاجب** دون الضَّمير، حتَّى يُفْضي السَّامع إلى حقيقته، مِن أيِّ جنسٍ كان ذلك البيان؛ لأنَّ مدارَ الأمرِ – والغايةَ التي إليها يجري القائلُ والسَّامعُ – **الفهمُ والإفهامُ**. وبأيِّ شيءٍ بلغتَ الإفهام، وأوضحتَ عن المعنى، **فذاك هو البيانُ** في ذلك **الموضع**.[5]

وكلَّما كان **اللِّسانُ أبيَنَ**، كان **أَحْمَدَ** وأشدّ **استبانةً** في القلب، ففي الحديثِ النَّبوي قوله ﷺ: «إِنَّ مِنَ الْبَيانِ لَسِحْرًا».[6] قال **ابنُ عبد البَرِّ** (ت٤٦٣هـ): «في هذا دليلٌ على مدح البيان، وفضل البلاغة، والتَّعجب بما

---

(١) يُقال: رجلٌ لَسِن، بيّنُ اللَّسَن: إذا كانَ ذا بَيانٍ وفصاحة. **تهذيب اللغة** (١٢/ ٢٩٦).

(٢) **مختار الصِّحاح** (ص٤٣).

(٣) **الكُليّات** (ص٢٣٠-٢٣١).

(٤) **التّعريفات** (ص٤٧).

(٥) ذكر الجاحظ أنَّ أصنافَ الدَّلالات على المعاني مِن لفظٍ وغيره خمسةُ أشياءٍ لا تنقصُ ولا تزيدُ: أوَّلها، اللّفظُ، ثُمَّ الإشارةُ، ثُمَّ العقدُ، ثُمَّ الخطّ، ثُمَّ الحال. والعقد: هو الحساب دون اللّفظ والخطِّ. **البيان والتَّبيين** (١/ ٨٢و٨٥).

(٦) **البيان والتَّبيين** (١/ ٣١-٣٤). والحديث سبق تخريجه.

يسمعُ مِن فصاحة أهلها، وفيه المجاز والاستعارة الحسنة؛ لأنَّ البيانَ ليس بسحرٍ على الحقيقة».[1]

وقد ذكرَ الله ﷻ جميلَ إحسانه في **تعليم البيان**، وعظيمَ نعمته في تقويم اللِّسان، فقال: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ﴾ [الرحمن:٤]، وقال: ﴿هَٰذَا بَيَانٞ لِّلنَّاسِ﴾ [آل عمران:١٣٨]. **ومدحَ القرآنَ** بالبيان والإفصاح وحُسنِ التَّفصيل والإيضاح، وجَوْدة الإفهام والإبلاغ. وقد **سمَّاه** فُرقاناً، كما سمَّاه **قُراناً**، ووصفه بأنَّه: ﴿عَرَبِيّٞ مُّبِينٞ﴾ [النحل:١٠٣]، **نزَّله** على نبيِّه ﷺ: ﴿تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ﴾ [النّحل:٨٩]، وذكر له **حال قريشٍ** في بلاغة منطقهم ورجاحة عقولهم، فقال: ﴿وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوۡمٗا لُّدّٗا﴾ [مريم:٩٧]، و**حال العرب** وما فيها مِن **الدَّهاء** والمَكر، **واللّدد** عند الخُصومة، فقال ﷻ: ﴿فَإِذَا ذَهَبَ ٱلۡخَوۡفُ سَلَقُوكُم بِأَلۡسِنَةٍ حِدَادٍ﴾ [الأحزاب:١٩]، وقال: ﴿وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ﴾ [البقرة:٢٠٤]، وقال: ﴿وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيۡرٌ أَمۡ هُوَۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢاۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ خَصِمُونَ﴾ [الزخرف:٥٨]. وممَّا يدلّ على تفوق العرب في الفصاحة -كما قال **الجاحظ** (ت٢٥٥هـ)- أنَّ الله ﷻ إذا خاطبهم أخرج الكلام **مخرج الإشارة والوحي والحذف**، وإذا **خاطب بنى اسرائيل** وحكى عنهم جعله مبسوطاً وازداد في الكلام».[2] كما ذكرَ ﷻ **خِلابةَ ألسنتهم، واستمالتَهم** الأسماعَ بحُسنِ **منطقهم**، فقال: ﴿وَإِن يَقُولُواْ تَسۡمَعۡ لِقَوۡلِهِمۡ﴾ [المنافقون:٤]، وقال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ [البقرة:٢٠٤]، وقد قال الله ﷻ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن

---

(١) **التَّمهيد لما في الموطَّأ من المعاني والأسانيد** (٥/ ١٧٤). يُنظر: **البيان والتبيين** (١/ ١١).

(٢) **الحيوان** (١/ ٦٤).

رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم:٤]؛ وذلك لأنَّ **مدارَ الأمر** على **البيان والتَّبيين**، وعلى **الإفهام والتَّفهيم**.(١)

المطلب الرّابع: دور الشِّعر في استبانة الحُجَّة للقرآن الكريم

الشِّعرُ دِيوانُ الْعَرَبِ، فإليه يُحتكم فيما يلتبس مِن ألفاظ القرآن الكريم ومعانيه، وما يُشكل مِن قواعد اللّغة وقوانينها. قال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «يا أَيُّها النَّاس، عَلَيْكُمْ بِدِيوانِكُمْ شِعْرِ الجاهِلِيَّةِ، فإنَّ فيه تفسير كتابكُم ومعانيَ كلامكم».(٢) وقال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «إذا خَفِيَ عَلَيْكُمْ شَيْءٌ مِنَ الْقُرْآنِ فابْتَغوهُ في الشِّعْرِ، فإنَّه دِيوانُ الْعَرَبِ، أمَّا سمعتم قول الشَّاعر: "وقامت الحرب بنا على ساقٍ". قال: وهو كربٌ وشدّةٌ». وقال أيضاً: «الشِّعر **عِلْم العرب وديوانها**، فتعلَّموه».(٣) وذكر ابن فارسٍ (ت٣٩٥هـ) أنَّه "به **حُفِظت الأنساب**، وعُرِفت المآثر، ومنه **تُعُلِّمت اللُّغة**، وهو حُجَّة فيما **أشكل** مِن غريب كتاب الله، وحديث رسوله ﷺ، وصحابته والتّابعين".(٤) **وعلى هذا**؛ فسبيل استبانة الحُجَّة للقرآن الكريم وديمومتها، فضلاً عن إعجازه لا يَبين إلَّا بالاحتكام إلى الشِّعر. وفيما يأتي بيان وجه تلك الاستبانة كما عرضها أبرز عَلَمَيْن تكلّما في الإعجاز.

أوَّلاً، الاستبانة وتأصيلها عند الجُرجانيّ (ت٤٧١هـ).

بيَّن أبو بكر الجُرجانيّ وجه **استبانة الحُجّة** للقرآن الكريم بالشِّعر، وضرورة **ديمومتها والحِفاظ** عليها. ولعلّه أراد بهذا أنْ يؤصل لِما قام به

---

(١) **البيان والتّبيين** (١/ ١١).

(٢) **الكشف والبيان عن تفسير القرآن**، للثّعلبي (ت٤٢٧هـ) (٦/ ١٩).

(٣) **تفسير ابن أبي حاتم** (١٠/ ٣٣٦٦). **العقد الفريد** (٦/ ١٣٠).

(٤) **الصّاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها** (ص٢١٢).

الباقلَّاني – مِن قَبْله – مِن تطبيق الاستبانة على قصيدةٍ شعريةٍ، كما يأتي بيانه.

استبانة الحُجَّة بالشِّعر.

إذا كانت الأمورُ لا تُعْرَفُ إلَّا **بأضدادها** ولا يَبِينُ فضلُها، ولا تظهرُ مزيَّتُها إلَّا **بمُقارنتها** مع مثيلاتِها، فإنَّ سُمُوَّ القرآن وإعجازه لا يبدوان إلَّا **بالمقارنة مع أشعار العرب وخُطَبِهم. وبيانُ ذلك:**

إذا كنَّا نعلم = أنَّ **الجهة** التي منها قامَتِ **الحُجَّةُ** بالقُرآنِ، **وبانت وبهرت،** أنَّه كان على **حَدٍّ** مِن **الفَصاحة تقصرُ** عنه **قُوى البشرِ،** ومنتهياً إلى غايةٍ لا يُطْمح إليها بالفكر، وكان **مُحالاً** أنْ يَعرِفَ كونَه كذلك إلَّا **مَنْ عَرف الشِّعرَ،** الَّذي هو **ديوان العرب،** و**ميدانُ** القومِ إذا **تجارَوْا** في الفَصاحة والبيان، وتنازَعوا فيهما قصب الرِّهان، ثُمَّ بحث عن **العِلل** التي بها كانَ **التَّباينُ في الفَضْل،** وزادَ بعضُ **الشِّعر** على بعضٍ = كان **الصَّادّ** عن **معرفة الشَّعر** صادّاً عن أنْ **تُعرَف حُجّةُ** الله تعالى، وكان مثله مثل مَن **يتصدَّى للنّاسِ،** فيمنعهم أنْ **يحفظوا كتابَ** الله ﷻ ويقوموا به ويتلوه ويُقرِئُوه؛ لأنَّا **لم نُتعبَّد بحِفْظه وحراستِه** أنْ **يُغَيَّر ويُبدَّل، إلَّا لتكونَ الحُجةُ به قائمةً، تُعرَف** في كل **زمانٍ، ويتوصَّلُ** إليها في **كلِّ أَوانٍ.**

سبيل حفظ الحُجّة وضرورته.

أمَّا سبيل حفظها، فسبيل **سائر العلوم** التي **يَرويها** الخلَفُ عن السَّلف، **ويأثُرُها** الثّاني عن الأوَّل.

أمَّا **ضرورته،** فإنَّ مَن **حال** دون **حفْظنا إيَّاهُ واجتهادنا** في تأديته ورعايته، كان **كَمن رامَ** أنْ **يُنْسيناه** جُملةً، **ويُذْهبه** مِن قلوبنا دَفعةً؛ لأنَّ **مَن منعك الشّيءَ** الذي تنتزع منه –أيْ القرآن– الشّاهدَ والدَّليلَ، كمَن **منعك السّبيل** إلى انتزاعِ تلك الدَّلالةِ – أيْ الشّعر– والاطِّلاعِ على تلك الشَّهادة؛ ذلك لأنَّه **لا فرقَ** بينَ

مَن **أعدمَك الدواءَ** الذي تَسْتَشفي به مِن دائك، وبينَ مَن **أعدمَكَ العلْمَ** بأنَّ فيه شفاءً، ولك فيه استبقاءً.

اعتراضٌ مُفترضٌ، لو أنَّ شخصاً اعترض أنَّ لنا طريقاً في إعجاز القرآن غير ما قلت، وهو **عِلْمُنا بعَجْز العرب** عن معارضته، مع تكرارِ تحدِّيهم، وطولِ تقريعهم بالعجز عنه. ولأنَّ الأمر كذلك، فما **قامت به الحُجّةُ على العَجم** تقوم على العرب، واستوى النَّاسُ قاطبةً، فلم يَخْرج الجاهلُ بلسانِ العرب مِن أنْ يكونَ مَحْجوجاً بالقرآن.

وجوابه، إذا كان المسلمون قد اتفقوا على أنَّ معجزة النَّبيِّ ﷺ **باقيةٌ على وجهِ الدَّهر**، فليس له معنى غير أنْ لا يزالُ **البرهانُ** منه **لائحاً لمِن طلبَ** الوصولَ إليه، و**الحجّةُ** فيه وبه ظاهرةً لمِن أرادَها، و**العلمُ** بها ممكناً لمِن التمسه؛ لأنَّه **لا معنى لبقاء المُعجزة** بالقرآن إلَّا **بقيام الوصف المُعجز** فيه أبداً، وأنَّ **الطريقَ إلى العلم به موجودٌ**، والوصولَ إليه ممكنٌ.[1]

ثانياً، الاستبانة وتطبيقها عند الباقلَّانيّ (ت٤٠٣هـ).

بعد أنْ نقلَ أبو بكر الباقلَّانيّ - خُطَباً عن رسول الله ﷺ وكبار الصَّحابة، وقصائدَ وخُطباً طِوالاً مِن مختار الشِّعر والنَّثر، مُتَعجِّلاً نقدَ ما ينقدُه منها، أو مكتفياً بالتَّعقيب بأنَّ **هبوطها عن مستوى النَّظم القُرآنيّ** لا يخفى على ذي بصيرة - **خَلَصَ إلى** أنَّ نظمَ القرآن **يخالف نظم كلام الآدميين**، ويزيد في **فصاحته على كلِّ نظمٍ**، **ويتقدَّم** في بلاغته على كلِّ قولٍ، وضوح الشَّمس، وبيان الصّبح.

---

(١) **دلائل الإعجاز** (ص٨-١٠).

السَّبيل إلى معرفة سموّ القرآن وتفوقه.

ذكر **أبو بكر الباقلّاني** أنَّه لا سبيل إلى معرفة سموّ القرآن وتفوقه إلَّا بأنْ تعْمدَ إلى **قصيدةٍ** متفقٍ على كِبَرِ محلِّها، وصحة نظمها، وجَوْدة بلاغتها، ورشاقة معانيها، **مُجمعٌ** على **إبداع صاحبها** فيها، ومِن الموصوفين بالتَّقدم في الصَّناعة والحذق في البراعة. **فتقف** على مواضع **خللها**، وتفاوتِ **نظمها**... وبعضِ تَكْلّفها، **وما تَجْمعُ مِن كلامٍ رفيعٍ، يُقْرنُ بينه وبين كلام وضيعٍ**، وبين **لفظٍ سُوقيٍّ** يُقرن بلفظٍ **مُلُوكيٍّ**، وغير ذلك مِن الوجوه.

✓ **بدأ** بما حُكي عن **مُسيلمة** الكذَّاب وزعمه أنَّه قرآنٌ؛ **لبيان سُخْفه**، وأنَّه أخسّ مِن أنْ يُشتغل به، أو يُفكر فيه، وإنَّما **نقل طرفاً منه** ليتعجب القارئ، ويتبصرَ النَّاظر، مدى إسفافه، ولزوم حماقته.... وذكر ما دارَ بينه وبين **سَجاحٍ** بنت الحارث - وكانت تتنبأ - وحين اجتمعا، **قالت له**: ما أُوْحي إليك؟ فقال: "ألم تر كيف فعل رَبّك بالحُبْلى، أخرج منها نسمةً تسْعى، ما بين صِفاقٍ وحَشا".[1] **قالت**: فما بعدُ؟ قال أُوحي إليَّ: "إنَّ اللهَ خلقَ النِّساء أفْواجاً، وجعل الرِّجال لهنَّ أزواجاً"... فقالت: "أشهدُ أنَّك نبيٌّ". ورُوي عن **أبي بكر** رضي الله عنه أنَّه قال بعد سماعه بعضاً مِنْ كلامه: «ويْحَكم إنَّ هذا الكلام لم يخرج عن إلٍّ - أيْ عن رُبوبيّة- فأين كان يُذْهبُ بكم»؟؛ لأنَّ مَن له عقلٌ لا يشتبه عليه سُخف هذا الكلام.[2]

---

(١) الصِّفاقُ: جِلدةٌ رَقيقَةٌ تَحْتَ الْجِلْدِ الأَعلى وَفَوْقَ اللَّحْمِ. **لسان العرب** (١٠/ ٢٠٣) والحَشا: ما انْضَمَّت عَلَيْهِ الضُّلوعُ والخَواصِر. **النِّهاية في غريب الحديث والأثر** (١/ ٣٩٢).

(٢) **إعجاز القرآن** (ص١٥٤-١٥٨). وقال في كتابه: **تمهيد الأوائل وتلخيص الدّلائل** (ص١٨٢): هذا الكلام دالّ على جهل مورده، وضعف عقله ورأيه، وما يوجب السّخرية منه، والهزء به. **ولو كان معجزاً لتعلّقت العرب وأهل الرِّدة به**، ولعَرَف أتباع النَّبيِّ ﷺ أنَّه عُروض له، ولوقع لهم =

✓ **وثَنَّى بـ امْرِئِ القَيْسِ** (ت٨٠ق.هـ)؛ **لبيان ما يعتور الصَّنعة البشرية** مِن **خللٍ**، وتفاوتٍ في أنواع الخطاب، وتباعدٍ في مواقعِ البلاغة؛ وللدَّلالةِ على مواضع البراعة. من أجل ذلك رجع إلى الكلام عن أشعارٍ **مُتْفقٍ على جَوْدتها وتَقَدُّمِ أصحابها في صناعتهم**. فـ امْرُؤُ القَيْس، لا أحدَ يَشُكّ في **جَودَة شعره**، أو يرتابُ في براعة فصاحته، فقد أبدعَ في طُرق الشِّعر أموراً اتُّبِعَ فيها: **مِن ذكر الدِّيار** والوقوفِ عليها، إلى ما يتصل بذلك: مِن البديع الذي أبدعه والتَّشبيه الذي أحدثه. والوجوه التي ينقسم إليها كلامه: مِن صناعةٍ وطبعٍ، ومتانةٍ ورقةٍ، وأسبابٍ تُحْمدُ، وأمورٍ تُؤْثرُ وتُمْدحُ.

أوَّلاً، مكانة معلقته «قِفا نَبْكِ».

تنظر إلى الأدباء، فتراهمَ **يوازنون بشعره** فلاناً وفلاناً في أشياءَ لطيفةٍ وأمورٍ بديعةٍ، حتّى فضَّلوا بعضهم عليه، أو **سوَّوْا** بينهم وبينه، أو قرَّبوا موضع تقدُّمِه عليهم، وبَرَّزوه بين أيديهم. ولمَّا **اختاروا قصيدته** «قِفا نَبْكِ» في المعلقات السَّبع، **أضافوا إليها أمثالها**، وقرنوا بها نظائرها، فتراهم يقولون، لفلان **لاميّةٌ مثلُها**... وإذا جاءوا إلى **تعداد محاسن شعره**، كان **أمراً محصوراً، وشيئاً معروفاً**. وتجدُ مِن ذلك البديع أو **أحسنَ منه في شعر غيره**، وتشاهدُ **مثل ذلك البارع** في كلامٍ سواه.

وتنظر إلى المُحْدَثين، فمِنهم مَن جمع **رصانة الكلام** إلى سلاسته، ومتانته إلى عذوبته... ومَن **قصَر عنه** في بعضٍ **تَقدَّم عليه** في بعضٍ، وإنْ **وقف دونه** في حالٍ، **سبقه** في أحوالٍ، أو **ساواه**؛ لأنَّ الجنس الذي يرمون إليه والغرض الذي

= العلم اليقين بأنَّه قد قُوبل. وفي عدم ذلك دليلٌ على جهل مُدّعيٍّ ذلك، وعلى أنَّ مُسيلمة لم يدَّع هذا الكلام مُعجزاً، ولا تحدّى العرب بمثله فعجزوا عنه، بل كان في نفسه ونفس كلّ سامعٍ له أخفَّ وأسخفَ وأذلَّ مِن أنْ يتعلَّقَ به، ولذلك لا نجد أحداً مِن العرب تعلّق به.

يتواردون عليه، ممَّا **للآدميّ** فيه **مجالٌ**، **وله** فيه **مثالٌ**، **وكلّ** يضربُ فيه **بسهمٍ**، ويفوز **بقَدحٍ**، وقد تتفاوتُ السِّهام وتتباينُ، وقد تتقاربُ.

ثانياً، تفصيلُ القول في المُعلَّقة.

بعد أنَّ ذكر تفاوت الشَّعراء وتباين قصائدهم، انتقل إلى وصف **نظم القرآن** الكريم، بأنَّه جنسٌ متميّزٌ، وأسلوبٌ مُتخصِّصٌ، وقبيلٌ عن النَّظير مُتَخَلِّصٌ، وإذا شئتَ أنْ تعرِفَ عِظمَ شأنه، فتأملْ ما نقوله في **امْرِئِ القَيْسِ في أجود أشعاره**، وما نُبيِّنُ لك مِن عَواره على التَّفصيل. وذلك قوله:

قفا نَبْك مِنْ ذِكْرى حَبيبٍ مَنْزلِ ... بِسِقْط اللِّوى بين الدَّخُولِ فحَوْمَلِ

فَتُوضِحَ فالمِقراةِ لَمْ يَعْفُ رَسْمُها ... لِما نَسَجَتْها مِنْ جَنوبٍ وَشَمْأَلِ(١)

يقول الَّذين يتعصبون له: هذا **مِن البديع**؛ لأنَّه وقفَ واستوقفَ، وبكى واستبكى، وذكر العهد والمنزل والحبيب، وتوجّع واستوجعَ، كلّه في بيتٍ.

وذكر أبو بكرٍ الباقلّاني **ما يتّجه عليه** في البيتين:

فمِن جهةٍ، ليس فيهما شيءٌ سبق في ميدانه شاعراً، ولا تقدَّم به صانعاً.

ومِن جهةٍ ثانيةٍ، في لفظ البيت الأول ومعناه خللٌ، **وذلك أنَّه استوقف** مَن **يبكي** لِذِكر الحبيب، **وذِكْراهُ لا تقتضي بُكاءَ الخَلِيِّ**، وإنَّما يصحّ **طلبُ الإسعاد في مثل هذا**، بأنْ يبكي **لبُكائِه**، **ويرقَّ** لصديقه في **شدّة بُرَحائه**، فأمَّا أنْ **يبكي** على **حبيب صديقه وعشيق رفيقه**، **فأمرٌ محالٌ**.

فإنْ كان المطلوبُ **وقوفَه وبكاءه** أيضاً عاشقاً، **صحَّ الكلام مِن وجهٍ**، **وفسدَ**

---

(١) سِقط اللّوى: منقطع الرّمل حيث يستدق مِن طرفه. والدّخول وحومل وتوضح والمقراة: مواضع. ولم يعف رسمها: لم ينمح أثرها. والجَنوب والشّمأل: ريحان.

المعنى مِن وجهٍ آخر؛ لأنَّ مِن السُّخف أنْ **لا يغارَ** على **حبيبه**، وأنْ **يدعوَ غيره** إلى **التَّغازلِ عليه والتَّواجدِ معه فيه!**.

وفي البيتين ما لا يُفيد، مِن ذكر **هذه المواضع**، وتسميّة **هذه الأماكن**: مِن «الدَّخول وحَوْمل والمِقراة وسِقطِ اللِّوى»، وقد كان يكفيه أنْ يذكرَ في التَّعريف بعض هذا. وهذا **التَّطويل** إذا لم يُفد كان **ضرباً مِن العَيِّ**.

وقولُه: «**لَمْ يَعْفُ رَسْمُها**»، ذكر **الأصمعيّ** (ت٢١٦هـ) مِن محاسنه: «أنَّه باقٍ، فنحن نحزن على مشاهدته، فلو عفا لاسترحنا». عقَّب **أبو بكرٍ**: وهذا أنْ يكون **مِن مساويه أوْلى**؛ لأنَّه إنْ كان **صادقَ الودِّ**، فلا يزيدُه عَفاءُ الرّسوم إلَّا **جِدّةَ عهدٍ وشدّةَ وَجدٍ**. وإنَّما **فزِع الأصمعي** إلى إفادته هذه الفائدة، خشية أنْ يُعاب عليه، فيقال: **أيُّ فائدةٍ** لأنْ **يُعرِّفنا** أنَّه لم **يعفُ رسمُ** منازل حبيبه؟ وأيُّ معنىً لهذا **الحشو**؟ فذكر ما يمكن أنْ يُذكر، ولكن لم **يُخلِّصه** - بانتصاره له - مِن **الخلل**. ثُمَّ في هذه الكلمة **خللٌ آخرُ**، لأنَّه عقَّب البيت بأنْ قال:

فهلْ عندَ رَسمٍ دارسٍ مِن مُعَوَّلِ[1]

فذكرَ **أبو عبيدة**، مَعْمَرُ بنُ المُثنَّى (ت٢٠٩هـ) أنَّه رجع **فأكذَبَ** نفسه، كما قال زهير بن أبي سُلمى:

قِفْ بِالدِّيَارِ التي **لَمْ يَعْفُها** الْقِدَمُ بَلَى **وغَيَّرها الأرْواحُ** والدِّيَمُ[2]

وقال غيره: «أراد بالبيت الأوَّل أنَّه لم **ينطمس أثرُه كلّه**، وبالثَّاني أنَّه **ذهب**

---

(١) المُعوَّل مِن العويل، ويحتمل أنْ يكون مِن التّعويل على الشَّيء.

(٢) **ديوانه** (ص١٤٥) والارواح: جمع ريح، والدّيم جمع ديمةٍ: والدّيمة مطرٌ يدوم في سكونٍ بلا رعدٍ أو برقٍ.

بعضه، حتّى لا يتناقض الكلامان».[1]

وليس في هذا **انتصارٌ**؛ لأنَّ معنى "**عفا**" و "**دَرس**" واحدٌ، فإذا قال: «لَمْ يَعْفُ رَسْمُها»، ثُمَّ قال: «قد عفا»، **فهو تناقضٌ لا محالةَ!**. واعتذارُ "**أبي عُبيدة**" أقربُ لو صحَّ؛ لأنَّ هذا القول لم **يَرد موردَ الاستدراك**، فهو إلى **الخلل أقربُ**.

وقوله: «**لِما نَسَجَتْها**»، كان ينبغي أنْ يقول: «**لِما نَسَجَها**» ولكنَّه **تعسَّف** فجعل «**ما**» في تأويل تأنيثٍ، لأنَّها في معنى الرِّيح، والأوْلى التَّذكيرُ دونَ التَّأنيثِ، وضرورةُ الشِّعر قد قادته إلى هذا التَّعسّف.[2]

وقوله: «**لَمْ يَعْفُ رَسْمُها**» كان الأوْلى أنْ يقول: «**لَمْ يَعْفُ رَسْمُه**»؛ لأنَّه **ذكَّرَ المنزلَ**، فإنْ كان ردّ ذلك إلى هذه البقاعِ والأماكنِ التي المنزلُ واقعٌ بينها، **فذلك خللٌ**؛ لأنَّه إنَّما يريدُ **صفةَ المنزلِ** الذي نزَلَه حبيبُه بعَفائه، أو بأنَّه لم يَعْف دون ما جاوره. وإنْ أراد بالمنزل "**الدَّار**" حتَّى **أنَّثَ**، فذلك أيضاً خللٌ.

وختَمَ كلامه عن **هذين البيتين**، أنَّه لو سَلِمَ مِن هذا كلّه وممَّا نكره ذكرَه – كراهية التَّطويل– لم نشكَّ في أنَّ شعر أهل زماننا لا يقْصُرُ عن البيتين، بل يزيدُ

---

(١) وقيل: معناه لم يدرس رسمها مِن قلبي وهو في نفسه دارسٌ. **شرح القصائد العشر**، يحيى بن علي الشيبانيّ (ت٥٠٢هـ) (ص١٠).

(٢) «مَنْ» و«ما» تقعان موقع «الذي والتي» وتثنيتهما وجمعهما، وهما لفظان مفردان مذكران. **ومراعاة اللّفظ** فيما اتصل بهما هو **أكثر كلام العرب**، كقوله ﷻ: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ [الأنعام: ٢٥]، وقوله تعالى: ﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران:١٦٢]. ودونه **مراعاة المعنى**، كقوله ﷻ: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ [يونس:٤٢]، وقوله ﷻ: ﴿وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ﴾ [الأنبياء:٨٢]. ما لم يحصل مِن **مطابقة اللّفظ لبسٌ**... وفي البيت هنا **راعى الشّاعر المعنى**. **توضيح المقاصد والمسالك بشرح ألفية ابن مالك**، بدر الدين المرادي المصري المالكي (ت٧٤٩هـ) (١/ ٤٤١).

عليهما ويفْضُلُهما... هذا **بخلاف القرآن** الكريم، لا تجد فيه إلَّا ما إذا بُسِط أفاد، وإذا اختُصر كَمُل في بابه وأجاد، ولا تقع فيه **إلَّا على محاسن تتوالى، وبدائع تتراً.**(١)

وبهذا يتبيَّن – **مِن جهةٍ** – أنَّ **الشَّاعرَ** مهما **علا شأنه**، يجيء مَن يفوقه، وقصائدَه مهما سمت، تجد فيها تفاوتاً حسَب الأحوال التي يتصرف فيها، فيأتي في غاية البراعة في معنى، فإذا جاء إلى غيره قَصَر عنه، وبان الاختلاف على شعره. أمَّا في القرآن الكريم، فلا انحطاط عن المنزلة العليا، ولا إسفاف إلى الرّتبة الدّنيا.(٢) ولا يقتصر ذلك على ما حوته جُمُله مِن **طرائق في الصِّياغة والتَّأليف، فمعانيه في سموّها ورُقيّها** بلغت حدّاً يعجز معه جميع العقلاء عن الإتيان بمثلها، **أعظمَ** مِن عجز العرب عن الإتيان بمثل لفظه.(٣) مِن ذلك ما ذكره أبو عُبَيْدٍ، **القاسمُ بن سلَّامٍ** (ت٢٢٤هـ) أنَّ أعرابياً لمَّا سمِع **رجُلاً يقرأ**: ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ﴾ [الحجر:٩٤] **سجدَ**، وقال: سجدْتُ لفصاحتهِ. وسمِع **آخرُ رَجلاً يقرأ**: ﴿فَلَمَّا ٱسۡتَيۡـَٔسُواْ مِنۡهُ خَلَصُواْ نَجِيّٗا﴾ [يوسف:٨٠]، فقال: أشْهَدُ أنَّ **مخلوقاً لا يقدِر** على مِثل هذا الكلامِ.(٤)

ومِن جهةٍ ثانية، الحفاظُ على التّراث الشّعري القديم أمرٌ تقتضيه **استبانة وديمومة الحجّة** للقرآن الكريم.

---

(١) **إعجاز القرآن** (ص١٦٢، ١٩٢).

(٢) **إعجاز القرآن** (ص٣٧). ويُنظر: **مناهل العرفان** (٢/ ١٢٣).

(٣) يُنظر: **الجواب الصَّحيح لمن بدل دين المسيح** (٦/ ٢٨٢).

(٤) يُنظر: **الشِّفا بتعريف حقوق المُصطفى** مع حاشية الشّمُني (١/ ٢٦٢).

وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

المبحث الثَّاني

بلاغة النَّظم والتَّأليف في القرآن الكريم

تمهيدٌ

لا يكشفُ عن المعاني المكنونةِ في الصّدور والمتخلّجةِ في النّفوس والمُتصوّرةِ في الأذهان، إلَّا **الإخبُار عنها** واستعمالُهما، ممَّا يُقرِّبها مِن الفهم، ويُجلِّيها للعقل.[1] وكما قيل: **مغْرسُ الكلامِ** القلبُ، وزارعُه الفكرُ، وقيِّمُه العقلُ، وزهرُه الإعرابُ، وثمرُه الصَّوابُ، وجانِيه اللّسان.[2]

والبيانُ، تُرجمانُ القلوب، وصيْقلُ - شاحذ - العقولِ، ومُجلّي الشّبهة، ومُوجبُ الحُجَّة.[3] **وأبلغه**، ما كان **اللّفظ** محيطاً بالمعنى، وكاشفاً عن المغزى، ومُخْرِجاً له مِن الشِّرْكةِ،[4] ولا يُستعان عليه بطول الفِكْرة، مع السّلامة مِن التّكَلّف وسوء الصَّنعة، والبراءة مِن التّعقيد.[5] **وقِوامه، تخيّر الألفاظ** وحُسن

---

(١) **البيان والتَّبيين** (١/ ٧٥، ٨٢).

(٢) **لباب الآداب**، أسامة بن منقذ (ص٥٨٤هـ) (١/ ٤٤٢) **غُرر الخصائص الواضحة**، محمد بن إبراهيم بن يحيى (ت ٧١٨ هـ) (ص١٨٥).

(٣) **غُرر الخصائص الواضحة** (ص١٨٣).

(٤) باختيار ما يؤدي المعنى الدَّقيق دون ما يشترك معه في تأدية المعنى العام. **الصّناعتين** (ص٤٢).

(٥) **التَّعقيد**: ما كان **خفيّ الدّلالة** على المراد؛ لخللٍ إمَّا **في لفظه**، وهو الواقع في نظمه وتركيبه، بسبب التَّقديم والتَّأخير أو الحذف أو الفصل... وإمَّا **لخللٍ معنويّ**، وهو خللٌ **في انتقال الذّهن** مِن **المعنى الأوَّل** المفهوم مِن اللّفظ إلى **المعنى الثَّاني المقصود**. يُنظر: **كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم** (١/ ٤٨٦). **وعيون الأخبار** (٢/ ١٨٩). **والبيان والتَّبيين** (١/ ١٠٦).

تأليفها؛ لهذا قيل: ليست **البلاغةُ** بخِفّة اللّسان، وكثرة الهذيان، ولكنَّها **بإصابة المعنى، والقصدِ** إلى الحُجّة"[1] وعلى هذا، فهي تعلو وتَسْفُل في الكلام بنسبة ما تُراعى فيه **مقتضيات الحال،**[2] إذ تكمن البراعة في مدى إفادة النّظم **لدقيق المعاني وخفيّ الصِّفات؛** لأنَّ المعاني والأفكار ما هي إلَّا **ولائد الإسناد** - وهو نسبة أمرٍ إلى أمرٍ بالإثبات أو النَّفي-[3] وهو أصل **الفائدة ومناطها.**[4]

وعلى قدْر **وضوح الدَّلالة** وحُسنِ الاختصار، **يكون إظهارُ المعنى؛ والدّلالةُ الظَّاهرةُ** على المعنى الخفيِّ هو **البيان** الذي **نطق** به **القرآن** -وبذلك **تفاخرتِ العربُ،** وتفاضلتْ أصناف العجم-[5] إذ إنَّ **أسمى بيانٍ وأبلغه** تجده في **نظم** القرآن **وتأليفه،** ففيه **سرّ الإعجاز،** وداعي التّحدّي. والعلم **بنهجه**

---

(١) **قاله:** خالِدُ بنُ صَفْوانَ المِنْقَرِيّ (ت١٣٣هـ). **العقد الفريد** (٢/ ١٢٢). ويُنظر: **نفحة اليمن فيما يزول بذكره الشّجن** أحمد بن محمد الشرواني (ت١٢٥٣هـ) (ص١٧٨).

(٢) **جواهر البلاغة** (ص٤٣).

(٣) كقولك: **جاشت أشواقه،** فقد أثبتَّ **الجيشان للأشواق،** فالجيشان مُثْبَتٌ، والأشواق مُثْبَتٌ له، فلو قلت: الأشواق.. الجيشان.. لم تفد شيئاً، وإنَّما **أفدت بالإثبات** بأنْ قلت: جاشت أشواقه، فأثبتَّ للأشواق فعلاً وحدثاً هو الجيشان. **خصائص التَّراكيب دارسة تحليلية لمسائل علم المعاني، د.** محمّد محمّد أبو موسى (ص٧٧).

(٤) **عروس الأفراح** (١/ ١١٥) تتألف الجملة العربية مِن رُكنين، هما **المُسْنَد،** ويُسمَّى **محكوماً به، والمسند إليه،** ويُسمَّى **محكوماً عليه. فالمُسند** إليه هو **المُتحدَّث عنه،** ولا يكون إلَّا **اسماً، والمسنَد** هو **المُتحدَّث به،** ويكون **فعلاً أو اسماً،** وهذان **الرّكنان** هما عمدة الكلام، وما عداهما **فضلةٌ أو قيدٌ. والمبتدأ** في الجملة الإسمية **مُسْنَدٌ إليه،** وكذا **الفاعل** في الجملة **الفعلية. معاني النَّحو** (١/ ١٤). فالكلام لا يتكوَّن مِن **جزءٍ واحدٍ،** بل لا بدّ مِن **مُسندٍ ومُسندٍ إليه.** وكذلك **كلّ حرف** يدخل على جملةٍ، فإذا قلت: «**كأنَّ**» اقتضت مُشبّهاً ومُشبّهاً به: «**كأنَّ زيداً أسدٌ**»، و«لو، ولولا» تقتضيان جُملتين تكون الثّانية جواباً للأولى. **دلائل الإعجاز،** ت: د. هنداوي (ص١٠).

(٥) **البيان والتَّبيين** (١/ ٧٥، ٨٢).

وطريقته هو سبيل معرفة **نُكته وأسراره**، وإلَّا بقيت محتجبةً في أكمامها.[1] وقد تصدّى لذلك علماء أجلاء خاضوا لُجَج البحث وغماره، منهم: **الجاحظ** (ت٢٥٥هـ)؛ حيثُ صنف كتاباً سمَّاه «**نظم القرآن**»، **تلاه** في تصنيف كتاب يحمل نفس الاسم: **مُحَمَّدُ بنُ يزيدٍ** الواسطيّ (ت٣٠٦هـ) **وأبو بكرٍ السِّجستانيّ** (ت٣١٦هـ) **وأبو زيدٍ البَلْخيّ** (ت٣٢٢هـ)، وجميعها مفقودةٌ. وفي هذا المبحث أربعة مطالبٍ: **الأوَّل**: **النَّظم والتّأليف** عند أبي عُثْمانَ الجاحِظ. **الثَّاني**: النَّظم والتّأليف عند أبي سُلَيْمانَ الخَطَّابِيّ. **الثّالث**: النَّظم والتّأليف عند أبي بكر الباقلّانيّ. **الرَّابع**: النَّظم والتّأليف عند أبي بكرٍ الجُرجانيّ.

المطلب الأوَّل: النَّظم عند أبي عُثْمان الجاحظ

لعلَّ الجاحظ عَمْرو بن بَحْرٍ (ت٢٥٥هـ) أوَّل مَن تكلَّم عن النَّظم ودوره في الإعجاز والبلاغة، إذ دفعه الردّ على القول **بالصَّرْفة** إلى البرْهَنة على أنَّ إعجاز القرآن **ذاتيّ يكْمنُ في نظمه**، بيَّن ذلك في كُتُبه: «البيان والتَّبيين والحيوان والرَّسائل»، فضلاً عن «نظم القرآن» - أشار إليه في كُتبه الأُخرى، وعزا إليه العلماء مِن بعده[2] -. وهو أوَّلُ مَن صرَّح بأنَّ **البلاغة نظمٌ وصياغةٌ**، وتراه ينكر على مَن ذهب إلى **استحسان المعاني**، بأنَّها مطروحةٌ في الطّريق يعرفُها العجميّ والعربيّ... وإنّما **الشَّأن** في إقامة الوزن، **وتخيّر اللّفظ، وجَوْدة السّبك**، فما الشِّعر إلَّا **صناعةٌ**، وضربٌ مِن النّسج، وجِنسٌ مِن التّصوير».[3] **وأجوده** ما كان **متلاحمَ الأجزاء**، سهلَ المَخارج، أُفرغ إفراغاً جيداً، وسُبك

(١) **الكشاف عن حقائق غوامض التّنزيل** (٣/ ٦٣و٤/ ١٣٤).

(٢) **تاريخ آداب العرب** (٢/ ١٠٠-١٠١).

(٣) **الحيوان** (٣/ ٦٧).

سبكاً واحداً، فهو يجري على اللِّسان كما يجري الدِّهان.[1] وفي هذا إشارةٌ إلى **التّلاؤم**، وهو **حُسنُ الكلام** في السَّمع، **وسهولته** في اللّفظ، **ووقعُ معناه** في النَّفس، فهو كالخطِّ الحَسَنِ والبيان الشّافي، والمتنافر كالخطِّ القبيح.[2]

وذكر الجاحظ **عيباً** سمَّاه **الاستكراه**- وهو التّنافر ونقيضه التّلاؤم - وهو تقاربُ **مخارجِ الحروفِ والألفاظِ**،[3] كما سبق بيانه في بيت الشِّعر: "وقبرُ حربٍ بمكانٍ قفرٍ"؛ حيث قال: «وأحسنُ الكلام ما كان **مسبوكَ الألفاظِ**، سهلَ مخارجِ الحروف، وليس شيءٌ في هذا الباب مثلَ القرآن الكريم؛ **لذلك لا يُسْأم ولا يُمَلّ** على كثرة الدَّرس والتَّرداد».[4]

وبيَّن - **مِن جهةٍ** - أنَّ **الفضيلة** في الكلام **إنَّما تتجلّى في النّظم**، وأنَّه **مكمن الإعجاز، ودلّل عليه**، لو أنَّ رجلاً مِن العرب قرأ على رجلٍ مِن خُطبائهم وبلغائهم **سورةً واحدةً**، طويلةً أو قصيرةً، لتبيَّن له في **نظامها ومخرجها**، وفي **لفظها وطبعها**،[5] أنَّه **عاجزٌ عن مثلِها**، ولو تحدّى بها أبلغ العرب لظهر عجزه عنها».

---

(١) **البيان والتبيين** (١/ ٦٧).

(٢) **إعجاز القرآن** للباقلّانيّ (ص٢٦٩-٢٧٠). يُنظر: **النكت في إعجاز القرآن** (ص٩٦).

(٣) قال **يحيى بن حمزة** العلويّ (ت٧٤٥هـ): وإنْ كانت مفردات الحروف **مختلفةً في العذوبة والسّلاسة**، فإنَّ شيئاً منها **غير مستكرهٍ**، لكن الاستكراه إنَّما يعرض مِن أجل التَّأليف، لِمَا يحصل بسببه مِن **التّنافر والثِّقل**، فلأجل هذا كانت العناية في **أحكام التَّركيب والتَّأليف**؛ لأنَّه رُبمَّا حصل على وجهٍ **يفيد رقَّة اللّفظ وحلاوته**، فيكون **حسناً**، ورُبمَّا حصل على وجهٍ يفيد **ثقلاً وتعثّراً** في اللّسان، فيكون قبيحاً، فإذن العناية كلّها في التَّركيب. **الطّراز لأسرار البلاغة** (١/ ٥٩).

(٤) **البديع في نقد الشّعر** (ص١٦١-١٦٢). يُنظر: **البيان والتبيين** (١/ ٧٤-٧٥).

(٥) نقلها في **دلائل الإعجاز** (ص٣٨٩): في نظامِها ومَخْرجها، منْ لفظِها وطابَعِها.

ومِن **جهةٍ ثانيةٍ**، أوضح أنَّ الفضيلة لا تظهر في **الحرف والحرفين والكلمة والكلمتين، وعلّله**؛ لأنَّك ترى أنَّ النَّاس قد يتهيأ في طباعهم ويجري على ألسنتهم أنْ يقول رجلٌ منهم: «الحمْدُ لله» و«على الله توكلنا»... وهذا كلّه في القرآن، غير **أنَّه متفرِّقٌ غيرُ مجتمعٍ**. ولو أراد أنطقُ النَّاس أنْ يُؤلف مِن هذا الضّرب سورةً - ولو كانت قصيرةً - على **نظم القرآن** وطبعه وتأليفه ومخرجه **لمَا قدِر عليه**، ولو استعان بجميع قحطان ومعد بن عدنان.[1]

وأشار إلى وجوهٍ **مِن البلاغة والإعجاز** في كتابٍ له، وصفه بقوله: «**ولي كتابٌ** جمعت فيه آياً مِن القرآن؛ لتعرف بها ما بين **الإيجاز والحذف**، وبين **الزّوائد والفضول والاستعارات**، فإذا قرأتها رأيت **فضلها في الإيجاز**، والجمع **للمعاني الكثيرة** بالألفاظ **القليلة**. فمنها قوله ﷻ حين **وصف خمر أهل الجنّة**: ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ﴾ [الواقعة:١٩]، فهاتان الكلمتان جمعتا **جميع عيوب خمر** أهل الدّنيا. وقوله ﷻ حين **ذكر فاكهة أهل الجنّة**: ﴿لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ [الواقعة:٣٣]، فقد جمع بهاتين الكلمتين **جميع تلك المعاني**».[2]

وقد نهل مِن مورده - كما سيتبيّن - مَن تكلّم بعده عن فضيلة النّظم والتّأليف، واقتفى أثره من جاء بعده. قال **الحسن بن بشر** الآمدي (ت٣٧٠هـ): «ليس الشِّعر عند أهلِ العلم به إلَّا **حُسْنُ التَّأتِّي**، وقرب المأخذ، **واختيار الكلام**، ووضع الألفاظِ في مواضعها».[3] وقال **أبو هلال العَسْكري** (ت٣٩٥هـ): «ليس الشَّأن في إيراد المعاني، وإنَّما هو في **جَوْدة اللَّفظِ وصفائِه**، وحسنِه وبهائِه... **مع صحة السّبك والتَّركيب**... وليس يُطلبُ مِن **المعنى إلَّا أنْ يكون صواباً**....

---

(١) **الرّسائل للجاحظ** (٣/ ٢٢٩).

(٢) **الحيوان** (٣/ ٤١).

(٣) **الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتريّ** (١/ ٤٢٣).

والمعاني **مُشْتَرَكةٌ بين العقلاء**، وإنَّما **تتفاضلُ النَّاسُ في الألفاظ ورصفها وتأليفها ونظمها**».[1]

المطلب الثَّاني: النَّظم عند أبي سُلَيْمانَ الخَطَّابِيّ

ألَّف أبو سُليمان الخَطَّابِيّ (ت٣٨٨هـ) رسالةً بعنوان: «**بيان إعجاز القرآن**»، تكلّم فيها عن جملة أمورٍ، منها: بيان قِوام الكلام، وسبب تعذر معارضة القرآن الكريم، وعمود البلاغة وسرّ الإعجاز، ودور الفكر في النَّظم والتَّأليف.

أوَّلاً، قِوامُ الكلام، وتحقُّقه في القرآن الكريم، وتعذر معارضته

ذكر أبو سُليمان أنَّ قِوام الكلام **بثلاثةِ أشياءَ**: «لفظٌ حاملٌ، ومعنى به قائمٌ، ورباطٌ لهما ناظمٌ». **والمتأمل** في القرآن يجد هذه الأمور منه في **غاية الشَّرف والفضيلة؛ حتّى لا ترى**:

ألفاظاً أفصحَ ولا أجزلَ ولا أعذبَ مِن ألفاظه. ولا **نظماً أحسنَ** تأليفاً **وأشدَّ تلاؤماً وتَشاكُلاً** مِن نظمه. **ولا معاني** تشهد لها العقول **بالتّقدّم في أبوابها، والتّرَقِّي** إلى أعلى درجات الفضل مِن نعوتها وصفاتها. وهذه **الفضائل الثَّلاثُ** إنْ وُجدت في كلام البشر، وُجدت على **التَّفرق**، أمَّا أنْ توجدَ **مجموعةً** في نوعٍ واحدٍ منه، **فلا تُوجد** إلَّا في كلام **العليم القدير**.[2] ولذلك؛ فإنَّه **يتعذر على البشر الإتيان بمثله، لـ**:

- عدم إحاطتهم بجميع **أسماءِ اللّغة العربية** وألفاظها التي هي ظروفُ المعاني والحواملُ لها.

---

(١) **الصناعتين: الكتابة والشّعر** (ص ٥٧ – ٥٨، ١٩٦).

(٢) **بيان إعجاز القرآن** (ص٢٧-٢٩).

- وعجز أفهامهم عن **إدراك جميع معاني الأَشياء** المحمولة على تلك الأَلفاظ.

- وقصور معرفتهم عن **استيفاء جميع وجوه النّظوم** التي بائتلافها وانسجامها يتوصّلون إلى اختيار **الأفضل والأحسن** مِن وجوهِها.

ثانياً، عمود البلاغة وسرّ الإعجاز في القرآن الكريم.

بيَّن أبو سُليمان أنَّ القرآن الكريم إنَّما **صار معجزاً**؛ لأَنَّه جاء **بأفصح الألفاظ، في أحسن نُظوم التَّأليف، مُضمَّناً أصحَّ المعاني**. وهذا يقتضي بيان عمود البلاغة وقِوامها، ودور الفكر في النَّظم والتَّأليف.

١) **عمود البلاغة**، اختيارُ اللّفظِ **الأكثر دقّةً وملاءمةً للسِّياق**، ففي اللّغة ألفاظٌ **متقاربةٌ في المعنى، وقِوام ذلك**: وضعُ كلّ نوعٍ مِن الألفاظ التي تشتمل عليها فصولُ الكلام موضعَه **الأخصّ** به، الَّذي إذا **أُبدِلَ مكانَه غيرُه، حصل منه**: إمَّا **تبدّل المعنى** الذي يكون منه **فسادُ الكلام**. أو **ذهاب الرَّونق** الذي يكون معه سقوط البلاغة.

وذلك؛ لأنَّ في الكلام **ألفاظاً مُتقاربةً في المعاني**، يحْسَبُ أكثرُ النَّاس **أنَّها متساويةٌ** في بيان مراد الخِطاب، والأمر فيها وفي ترتيبها - عند علماء أهل اللُّغة - بخلاف ذلك؛ لأنَّ لكلّ **لفظةٍ خاصيّةٍ** تتميَّز بها عن صاحبتها في بعض معانيها وإنْ اشتركتا **في بعضها، مِن ذلك**:

- «**ذاك وذلك**»، الإشارة بـ «**ذاك**» تقع إلى **الشَّيء القريب منَّك**، و«**ذلك**» فيما كان مُتراخياً عنك.[١]

---

(١) ورد في المطبوعة: "**ذلك**" في موضع "**ذاك**"، وهو خطأٌ مِن النّساخ. **بيان إعجاز القرآن** (ص ٣٢) قال أهل اللغة: "ذا" للقريب، و"ذلك" للبعيد، و"ذاك" للمتوسط. **شرح الرّضي على الكافية**، لابن الحاجب (٢/ ٤٧١).

- «**مِنْ وعَنْ**»، **يفترقان في مواضع**، كقولك: **أخذت منه** مالاً، **وأخذت عنه** عِلماً، فإذا قلتَ: **سمعت منه** كلاماً، أردت **سماعه مِن فيه**، وإذا قلت: **سمعت عنه** حديثاً، كان ذلك **عن بلاغٍ**، وهذا على **ظاهر الكلام وغالبه**. وقد **يتعاقبان** في مواضع مِن الكلام.

- **ومِن هذا الباب**: ما رواه البَراءُ بْنُ عازِبٍ أنَّ أعْرابِيّاً جاء إلى النَّبِيِّ ﷺ، فقال: يا رسولَ اللهِ، عَلِّمْني عملاً يُدْخِلُني الجَنَّةَ، فقال: «**أَعْتِقِ النَّسَمَةَ، وَفُكَّ الرَّقَبَةَ**». فقال: يا رَسولَ اللهِ، أوَ لَيْسَتا بواحِدَةٍ؟ قال: لا، إنَّ عِتْقَ النَّسَمَةِ أَنْ تَفَرَّدَ بعِتْقِها، وفَكَّ الرَّقَبَةِ أَنْ تُعِينَ في عِتْقِها».[1] فتأملْ كيف **رتَّب الكلامين**، واقتضى مِن كلّ واحد منهما **أخصَّ البيانين** فيما **وضُعَ له** مِن **المعنى**.

- وفي قوله تعالى: ﴿**وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ**﴾ [الزخرف: ٣٦]، زَعمَ ابنُ قُتيبة (ت٢٧٦هـ) أنَّه مِن قوله: «**عَشَوْتُ إلى النَّار أَعْشُو**»، إذا نظرتُ إليها.[2] وقد **غلَّطوه** في ذلك، فقالوا: إنَّما معناه: "مَن **يُعرِض عن ذكر الرَّحمن**". فلم يُفرق بين: **عَشَوْتُ إلى الشَّيء**، **وعَشَوْتُ عنه**. فلم يُحسن ترتيبَه وتنزيلَه. وهذا الباب **عظيمُ الخطر**، كثيراً ما يَعْرضُ فيه **الغلط**،

---

(١) قال الهيثمي: رَواهُ أَحْمَدُ، وَرِجالُهُ ثِقاتٌ. **مجمع الزَّوائد** (٤/ ٢٤٠). **المسند** (١٨٦٤٧).

(٢) قال في كتابه **غريب القرآن** (ص٣٩٨): ولا أرى القول إلَّا قولَ أبي عبيدةَ، ولم أر أحداً يُجيز «عَشَوْتُ عن الشَّيء»: أعرضتُ عنه؛ إنَّما يقال: «تَعاشَيْتُ عن كذا»؛ أيْ تغافلتُ عنه كأنّي لم أره. ومثله: «تعامَيْتُ». أهـ. **قال أَبو عُبَيْدَةَ** مَعْمَر بن المثنى (ت٢٠٩هـ): تظلمُ عينه عنه، كأنَّ عليها غشاوةً. **مجاز القرآن** (٢/ ٢٠٤). وقال **الفرَّاء** (ت٢٠٧هـ): يريد: ومَن **يُعرض عَنْهُ**، ومَن قرأها: (ومن يَعْشَ) بِفَتْحِ الشِّينِ: أَيْ **يَعْمَ عَنْهُ**. **معاني القرآن** (٣/ ٣٢) وهي قراءة ابن عباس. قال **الخَليلُ بْنُ أَحْمَدَ**: «أَصْلُ الْعَشْوِ، النَّظَرُ بِبَصَرٍ ضَعيفٍ». يُقالُ: عَشَى يَعْشَى عَشاً، إذا عَمِيَ فَهُوَ أَعْشَى. **تفسير البغوي** (٧/ ٢١٣) والمعنى: مَن لا ينظر في **حُجج** الله بالإعراض منه عنه إلَّا نظراً ضعيفاً، كنظر مَن قد عَشِيَ بصره. **جامع البيان** (٢١/ ٦٠٤).

وقديماً عَنِيَ به العربيّ الصَّريحُ.[1]

٢) دور الفكر في نظمِ الكلام وتأليفِه، النَّظم البليغ لا بُدَّ له **مِن الحذق وإعمال الفكر**؛ وإعجاز القرآن وبلاغته لا تقتصر على **مُفرد الألفاظ** التي منها يتركب الكلام دون **ما يتضمنه** مِن **ودائعه** التي هي **معانيه، وملابسه** التي هي **نُظوم تأليفه**.

أمَّا مُفردات الألفاظ، فلا يحيطُ بها إلَّا نَبيٌّ.[2] فهذا **ابن عباس** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا -وهو ترجمان القرآن- كان يقول: لا أعرف «حَناناً»، ولا «غِسْلِين»، ولا «الرَّقيم». وهل في اللّغة «التَّفَثُ» في شيءٍ مِن كلام العرب؟ وإنَّما أخذوه عن أهل التَّفسير على ما عقِلوه مِن مُراد الخطاب.[3]

أمَّا المَعاني الَّتي تحملها الألفاظ، فالأمْرُ في مُعاناتِها أشَدّ؛ لأنَّها **نَتائِجُ العُقولِ**، وولائدُ الأفهام، وبناتُ الأفكار.

أمَّا رُسومُ النَّظْمِ، فالحاجةُ إلى **الثَّقافةِ والحِذْقِ** فيها أكْثَرُ؛ لأنَّها **لِجامُ الألفاظِ**، وزِمامُ المعاني، وبه يتَّصِلُ أجزاءُ الكلامِ، ويلْتَئِم بعْضُه ببعْضٍ، فتقومُ له **صورةٌ في النَّفْس** يتشكَّل بها البيان.

---

(١) **بيان إعجاز القرآن** (ص٢٩-٣٤). قال **الأزهريّ** (ت٣٧٠هـ): أغْفَل **القُتَيْبيّ** -ابن قتيبة- **موضع الصَّواب**، واعترضَ على **الفرَّاء** يَرُدّ عليه... فالعربُ تقولُ: **عَشَوْتُ إلى النَّارِ** أعْشو عَشْواً، أيْ قَصَدتُها مُهْتَدياً بها، **وعَشَوْتُ عنها**، أيْ أعْرَضْت عَنْها، فيُفرِّقون بينَ «**إلى وعن**» موصولَيْن بالفِعْلِ. **تهذيب اللغة** (٣/ ٣٧).

(٢) قال الإمام الشَّافعي (ت٢٠٤هـ): لسان العرب أوسع الألسنة مذهباً، وأكثرها ألفاظاً، ولا نعلمه يحيط بجميع علمه إنسان غيرُ نبيّ، ولكنّه لا يذهب منه شيء على عامّتها، حتى لا يكون موجوداً فيها مَن يعرفه. **الرِّسالة** (ص٤٢).

(٣) والآيات حسب ترتيب الكلمات أعلاه: ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾ [١٣:مريم] ﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ﴾ [الحاقة:٣٦] ﴿أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ﴾ [الكهف:٩] ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ﴾ [الحج:٢٩].

وإذا كان أمر النَّظم والتَّأليف على ما سبق بيانه، فليست **ذاربة** اللّسان **وطلاقته** كافيةً لهذا الشّأن، ولا كلّ مَن أُوتي حظاً مِن **بديهةٍ وعارضةٍ** نهضَ بحمله، واضطلع بعبئه، ما لم يجمع إليها سائر **الشَّرائط التي ذُكرت، وعلى الوجه** الذي **بُيِّن**. وأنّى لهم ذلك، ومَنْ لهُم بِه؟.[1]

المطلب الثّالث: النَّظمُ عند أبي بكر الباقلّانيّ

مِن جُمْلة ما تكلَّم عنه أبو بكر الباقلّانيّ (ت٤٠٣هـ) في كتابه «إعجاز القرآن»: تآلف ألفاظ القرآن الكريم وتآخي معانيه، وإحكام نظمه وإيجاز بيانه، وظهور الحِكْمة في التّرتيب والمعنى.

أوَّلاً، تآلف الألفاظ وتآخي المعاني.

أشار أبو بكر الباقلّانيّ إلى أنَّ **ألفاظ القرآن متآلفةٌ غيرُ شاردةٍ**، مِن ذلك أنْ تحْسَب أنَّ وضع «**الصّبح**» في موضع «**الفَجْر**» **يَحْسُنُ** في كلّ كلامٍ؛ فإنَّ إحدى اللّفظتين قد **تَنفرُ** في موضعٍ، **وتزلّ** في موضعٍ، **لا تزلّ** عنه **اللّفظة** الأُخرى، بل تتمكن فيه **غيرَ مُنازعةٍ**. وتجدُ الأخرى - لو وُضعت موضعها - لكانت **نابيةً** غير مُستقرّةٍ، **وشاردةً** غير مطمئنةٍ.[2] ومَن تأمَّل موقع كلمة ﴿لِيَأْخُذُوهُ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ﴾ [غافر:٥] فلا يجد لفظةً تقع في الحسن موقعها أو تقوم مقامها في الجزالة؟ ولو وضع موضعها: «ليقتلوه، أو ليرجموه، أو لينفوه، أو ليهلكوه...» ما كان ذلك بارعاً ولا بالغاً.[3]

---

(١) **بيان إعجاز القرآن** (ص ٣٦).

(٢) **إعجاز القرآن** (ص١٨٣-٨٤).

(٣) **إعجاز القرآن** (ص١٩٧).

ومعانيه متآخيةٌ غيرُ متنافرةٍ، فلا تجد في لفظٍ معنى يوجه **الخاطر** إلى **ناحيةٍ**، وآخر يليه يوجهه إلى **ناحيةٍ أُخرى**، بل نواحيه متحدةٌ، إمَّا **بالتَّقابل**، وإمَّا **بالتّلاصق والمجاورة**، تجد معنى **كلّ لفظٍ يُمهد لمعنى اللّفظ الآخر**.

ومثَّل لتآلف الألفاظ وتآخي المعاني وتلاقيها، بقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [الشورى:٥٢].

فمِن جهة الألفاظ، الآية **بديعةُ التَّأليف**، كلّ **كلمةٍ** منها **تامَّةٌ**. فكلمات: «أَوْحَيْنا - رُوحًا - أَمْرِنا» **متآلفةٌ** في نُطْقِها، وفي **مخارجها**، وفي **نغمها**.

ومن جهة المعنى، يدلّ قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَا﴾ على **صدوره مِن الرُّبوبية**، ويَبِينُ **عن وروده عن الإلهيّة**. فجعله **روحاً**؛ لأنَّه **يُحْيي الخلق**، فله **فضل الأرواح** في الأجساد، وجعله **نوراً** لأنَّه **يُضيء** ضياءَ الشَّمس في الآفاق.

وأضاف **وقوع الهداية به** إلى **مشيئته**، ووقف **وقوع الاسترشاد** به **على إرادته**، فرسول الله ﷺ لم يكن ليَهتَديَ إليه **لولا توفيقُه**، ولم يكن **ليَعلمَ** ما في الكتاب ولا الإيمان **لولا تعليمُه**، وإنْ لم **يكن ليهتدي** لولاه، فكيف **له أنْ يهدي!**، فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾.[1]

وترتبط الآية بالتي **قبلها** -﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوۡ يُرۡسِلَ رَسُولٗا فَيُوحِيَ بِإِذۡنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٞ﴾ [الشورى:٥١]- بكلمة «كَذَلِكَ» إشارةً إلى **اتصالهما**، **فالسَّابقةُ تُبيِّنُ طُرق** الوحي، واللَّاحقةُ **تذكرُ الوحي إلى رسول الله** ﷺ.

---

(١) **إعجاز القرآن** (ص١٨٦-١٨٧).

وتـدلّ **كلمـة** ﴿أَوۡحَيۡنَآ﴾ علـى أنَّ خطـاب الله ﷻ لرُسـلِه **لا يكـون جهـراً**، فالرِّسالة تكون بين **المُرْسِل والمُرسَل إليه**. وفيها **إبطالٌ** لقول مَن يقولون: ﴿أَرِنَا ٱللَّهَ جَهۡرَةً﴾ [النساء:١٥٣] أو الـذين يقولـون: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ مَلَكٞ﴾ [الأنعام:٨] دون بيان نوع الوحي، إذ هو على **ضروبٍ مختلفةٍ**.

وفي قوله: ﴿مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ﴾ **إيماءٌ إلى ثلاث حقائق:**

الأولى، أنَّ رسول الله ﷺ **ما كان قارئاً ولا كاتباً**؛ لـذلك **عَبّرَ بالدِّرايـة** عـن **المُكتَسب** مِن العلم، **ونفى الدِّراية في الإيمان**؛ لأنَّه لم يكن هناك **مَن يُلقِّنه علـمَ الإيمـان** إلَّا مـا كـان مِـن **الفطـرة السَّـليمة**. وإنْ كـان ﷺ قبـل البعثـة مُوحَّـداً **فمقتضيات الإيمان** – مِن صلاة وصيام... – **لم يكن يدريها**. وبهـذا يُفسَّـرُ قولـه تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ﴾ [الضحى:٧].

الثَّانية: في هذا الكلام حُجَّةٌ أنَّ **القرآن** الكريم مِن **عند الله** ﷻ؛ لأنَّه ﷺ **لـم يكـن يقـرأ ولا يكتـب**، كمـا دلَّ عليـه قولـه: ﴿وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ مِن قَبۡلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذٗا لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ﴾ [العنكبوت:٤٨].

الثَّالثة: **نفيُ الدِّراية** مُتّجهٌ إلى **الحقيقة**، أيْ: إنَّـه ﷺ مـا كـان يـدري **حقيقـة الكتاب، ولا تفصيل الإيمان**، وهذه تأكيدٌ لنفي علمه بالكتاب وبتفاصيل الإيمان **عِلمَ درايةٍ**.[1]

ثانياً، شمول التَّآلف والتّآخي، وعمومه.

تآلف الألفاظ وتآخي المعاني وتلاقيها لا يقتصر على الآية الواحدة، بل

(١) يُنظر: **المعجزة الكبرى القرآن** (ص٩٦-٩٨).

هو **متحققٌ** في **مجموع الآيات ذات الموضوع الواحد، وعموم آيات القرآن** بعضها مع بعضٍ، **ومع كامل السّورة**. ويُمثِّل الباقلّانيّ لذلك **بسورة النَّمل،** حيثُ جاءت **الأحداثُ فيها متسلسلةً، والجملُ مترابطةً**. فبعد أنْ أورد قوله ﷻ: ﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنۡ حَوۡلَهَا وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [النّمل:٨]، قال: فقد ذكر ما **أُجْرِي له الكلام**:

مِن **عُلو أمر هذا النَّداء، وعِظَمِ** شأن هذا **الثَّناء**. وكيف **انتظمَ** مع **الكلام الأوَّل،** وهو قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ [النّمل:٦]. وكيف اتَّصل **بتلك المُقدِّمة،** وهي قوله: ﴿إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا﴾ [النّمل:٧]. وكيف **وصلَ بها ما بعدَها** مِن **الإخبار** عن **الرّبوبية،** في قوله: ﴿وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [النّمل:٨]. **وما دلّ به عليها** مِن **قَلب العصا** حيّةً، وجعلِها **دليلاً** يدلّه عليه، **ومعجزةً** تهديه إليه، وهي قوله: ﴿وَأَلۡقِ عَصَاكَۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهۡتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنّٞ وَلَّىٰ مُدۡبِرٗا وَلَمۡ يُعَقِّبۡۚ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفۡ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾ [النّمل:١٠].

فهذه الكلمات **المُفردة** قائمةٌ **بأنفسها في الحُسْن**، وفيما **تتضمنه** مِن **المعاني الشَّريفة، وما شَفَعَ** به هذه الآية، **وقَرَنَ به** هذه الدّلالة، مِن نور **البرهان،** وهي قوله: ﴿وَأَدۡخِلۡ يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٖ﴾ [النّمل:١٢].

وكلّ آيةٍ، وكلّ **مقطعٍ** منها، فيها مِن **عجيب النّظم، وبديع الرَّصف**، فيما لو **أُفردت** لكانت في الجمال غايةً، وفي **الدّلالة آيةً**، فكيف إذا **قارنتها أخواتها،** ممَّا **تجري** في الحُسنِ **مَجراها**، وتأخذُ في معناها!.

ومِن قِصةٍ إلى قِصةٍ، ومِن بابٍ إلى بابٍ، مِن غير خللٍ يقع في **نظم الفصل إلى الفصل**، حتّى **يُصوِّرَ الفصلُ وصلاً**، ببديع التّأليف، وبليغ التّنزيل.

ومَن أراد أنْ **يتبيَّنَ صدق ذلك، فليَعْمد** إلى **قصةٍ مِن هذه القَصص، فيعبرَ** عنها **بعبارةٍ من جهته،** ويُخبرَ **عنها بألفاظٍ مِن عنده،** حتّى يرى -فيما جاءَ به- **النَّقصَ الظَّاهرَ،** ويتبيَّنَ **في نظم القرآن الدَّليلَ الباهرَ.**

ولذلك **أعادَ قِصةَ موسى** عليه السلام **في سُورٍ متعددةٍ،** وعلى طُرقٍ شتى، وفواصلَ مختلفةٍ، **مع اتفاق المعنى.**(١)

ثالثاً، إحكام نظمه وإيجاز بيانه والعجز عن مثله.

يتصف نظم القرآن الكريم **بالتّأليف المُعْجِز،** وبيانه **بالإيجاز المُحْكم،** ولو تهيأ **لبليغ** أنْ يتصرف **قدرَ آيةٍ معجزةٍ** في أشياءَ مختلفةٍ، **فيجعلها مؤتلفةً** مِن غير أنْ **يَبينَ** على كلامه **إعياءُ الخروجِ والتَّنقلِ،** أو يظهرَ على خطابه **آثارُ التَّكلّف** - حتّى لو ظَفِر بمثل تلك **الألفاظ والكلمات** - فإنْ اتفقَ له هذا في **أحرفٍ مَعدودةٍ وكلماتٍ قليلةٍ،** فلا يتفقُ له في **قدْر ما يُقال** إنَّه **مِن القرآن مُعجزٌ؛** فالصّبحُ يطمسُ النّجومَ الزّاهرةَ، والبحرُ يغمُرُ الأنهارَ الزّاخرةَ.

مِن ذلك: ما جاء في **وصف كتاب سُليمان** عليه السلام إلى ملكة سبأ، في قوله ﷻ: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ﴾ الآيات [النمل:٢٠-٣٤].

فإنَّه **لا يتهيأ لأدميٍّ** وصف هذا الكتابَ بعد ذكر **العنوان والتَّسمية،** بهذه **الكلمة الشَّريفة:** ﴿أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾، **والخُلوص** مِن ذلك إلى ما صارت إليه **مِن التَّدبير،** واشتغلت به **مِن المَشُورة،** ومِن **تعظيمها أمر المستشار،** ومِن **تعظيمهم أمرها** وطاعتها، بتلك **الألفاظِ البديعة، والكلماتِ البليغةِ.**

ثُمّ ذكرَ كلامها، فتجدُ **تَمكّن قولِها:** ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾.

---

(١) **إعجاز القرآن** (ص١٨٦-١٩٠).

وذكرَ قولهم: ﴿قَالُوا نَحْنُ أُولُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ فلا تجد في صفتهم أَنْفُسَهم أبرع ممَّا وصفهم به.

وقوله: ﴿وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ﴾، تجد براعته، وعجيبَ معناه، وملاءمَته لِما قبله، وتَمَكّنَ الفاصلة: ﴿فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾.(١)

ففي هذا الاختصار بيانٌ مع الإيجاز. فالكلام قد يفسدُه الاختصارُ ويُعمِيه الإيجازُ، وهذا ممَّا يزيده الاختصارُ بسطاً - لتمكنه - والإيجازُ تصرّفاً يتجاوز محلّه وموضعه.

أمَّا كلامُ البشر، فكم مِن كلامٍ مبسوطٍ يقْصُرُ عن البيان، وحديثٍ طويلٍ يضيقُ عن الإفهام، ولو أحسن البيان وأجاد الإفهام، لأخلَّ بما يجب فيه مِن شروط الإحكام. ولو ظَفِرتَ بذلك كلّه في كلام خطيبٍ أو شاعرٍ، لرأيته ناقصاً في وجه الحِكْمة، أو مُسْتنْكَرَ اللّفظ، وحْشيّ العبارة، أو جيِّدَ البلاغة مُسْتَجْلَبَ المعنى...

أمَّا في القرآن فلا تجدُ إلَّا ما إذا بُسِطَ أفادَ، وإذا اختُصِرَ كَمُلَ في بابه وجادَ...

وقوله: ﴿قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ ثلاثُ كلماتٍ: وهي أنَّ الْمُلوكَ إذا دَخلوا قَرْيَةً عُنوةً وقهراً خرّبوها. وأذلوا أعزّتها، وأهانوا أشرافها، وقتلوا وأسروا، فذكرت لهم عاقبة الحرب وسوء مغبتها.

---

(١) التّمكين: أنْ تأتي فاصلة الآية مُستقرّةً في مكانها، غير نافرةٍ ولا مُستدعاة بِما لَيْسَ لَهُ تعلق بلفظ الآية أو معناها؛ بحيث لو لم تُذكر لكمّلها السّامع بطباعه بدلالةٍ مِن اللّفظ عليها. وسيأتي تعريف التّمكين عند البلاغيين.

والفاصلةُ فيها - وهي الكلمة **الثَّالثة**: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ﴾ - **غايةٌ في التَّمَكُّن**، وفي حُسْنِ موقعها وبارع معناها؛ حيث أرادت: وهذه **عادتهم المستمرة الثّابتة** التي لا تتغير.(١)

وخلاصةُ القول: إنَّ **تعادلَ هذا النَّظم** في الإعجاز **قائمٌ في طِوال الآيات وفي قِصارها**، وكذا في **سائر السّور**، في فواتحها وخواتمها، وفي بواديها ومقاطعها، وفي بيانها وفواصلها، وفي مواضع فصلِها ووصلِها، ومواضع تنقّلِها وتحَوّلها.(٢)

رابعاً، ظهورُ الحِكْمةِ في التّرتيب والمعنى.

أجاب أبو بكرٍ الباقلّاني عن **تساؤلٍ مفترضٍ**، بأنَّا نجد آياتٍ مِن القرآن نظمها بخلاف ما وصفت، ولا تتميز الكلمات بوجه البراعة، والتي هي عندك منه مقدارٌ **يزيد على الكلمات المفردة**، وحدٌّ يتجاوز **حدَّ الالفاظ المُسْتَندة**.

مِن ذلك أنَّ قوله ﷻ: ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمۡ أُمَّهَٰتُكُمۡ وَبَنَاتُكُمۡ وَأَخَوَٰتُكُمۡ وَعَمَّٰتُكُمۡ وَخَٰلَٰتُكُمۡ﴾ الآية [النساء:٢٣] ليس **مِن القَبيل الذي يمكنُ إظهارُ البراعة فيه**، وإبانةُ الفصاحة عليه، إنَّما يجري مَجْرَى ما يُحْتاجُ إلى ذكره مِن الأسماء والألقاب، فلا يمكنُ إظهارُ البلاغةِ فيه، وطلبُها في نحو هذا ضربٌ مِن الجهالة. بل الذي يُعتبر في نحو ذلك: **تنزيلُ الخطاب، وظهورُ الحكمة في التَّرتيب والمعنى**، وذلك حاصلٌ في هذه الآية:

ألَّا ترى أنّه بدأ بذكر الأُمِّ؛ لعِظَم حُرْمَتها، وإدلائها بنفسها، ومكان بعضيَّتِها، فهي **أصلٌ** لكلّ مَن يُدلي بنفسه منهنَّ، ولأنَّه ليس في **ذوات الأنساب أقربُ منها**.

---

(١) وقيل: هو تصديقٌ مِن الله ﷻ لقولها. **الكشاف عن حقائق غوامض التّنزيل** (٣/ ٣٦٥).

(٢) **إعجاز القرآن** (ص١٩١-١٩٤).

ولمَّا **جاء إلى ذوات الأسباب**، ألحق بها حُكمَ **الأُمِّ مِن الرِّضاع**؛ لأنَّ اللَّحمَ يُنْشِزُهُ اللَّبن بما يغْذُوه، فيتحصَّل بذلك أيضاً لها حُكم البعضيّة، **فنشرَ الحُرمةَ** بهذا المعنى، وألحقها بالوالدة.

وذكرَ **الأخواتِ مِن الرَّضاعة**، فنبَّه بها على **كلِّ مَن يُدلي بغيرها**، وجعلها **تلو الأُمِّ** مِن الرَّضاع.

والكلامُ في إظهار **حِكَمِ هذه الآية** وفوائدِها يطولُ... ولم **تنفكّ مِن الحِكَم** التي **تخْلُفُ حِكْمَةَ الإعجاز في النَّظم والصِّياغة، والفائدةِ** التي **تنوبُ مَنابَ العُدول** عن **البراعة** في **التَّأليف**.

وبهذا يكون أبو بكر الباقلَّانيّ قد أرسى **قاعدةً في البلاغة** في **آياتِ الأحكام**، فمنها ما تُراعى فيها لإمكان ذلك، ومنها ما لا تُراعى لعدم إمكانه.

أمَّا ما تُراعى فيه البلاغة، فيُعتبرُ فيها ما يُعتبرُ في غيرها، وقد وُجد في القرآن في بابه ما ليس عليه مزيدٌ في البلاغةِ وعجيبِ النَّظم.

أمَّا ما لا تراعى البلاغة في أفراد كلماته وآحاد ألفاظه، فقد تجد ذلك مع تَرَكّب الكلمتين والثَّلاث، ويطَّرِد ذلك في الابتداء والخروج، والفواصل وما يقع بين الفاتحة والخاتمة مِن الواسطة، أو باجتماع ذلك، أو في بعض ذلك، ما يخْلُفُ الإبداعَ في أفرادِ الكلمات. وإنْ كانت الجملةُ والمُعظمُ على ما سبق الوصف فيه.[1]

---

(١) **إعجاز القرآن** (ص٢٠٧-٢٠٩).

المطلب الرَّابع: النَّظم والتّأليف عند أبي بكرٍ الجُرجانيّ

ألَّف أبو بكرٍ الجُرجانيّ (ت٤٧١هـ) ثلاثةَ كُتبٍ لها صلةٌ بإعجاز القرآن، فضلاً عن إرسائه علوم البلاغة، وتوضيح معالمها، وأهمها «**دلائل الإعجاز**» وضعه ليدلّل فيه أنَّ إعجاز القرآن يكمُن في نظمه، [1] وقد أفاد ممَّن سبقه- خاصّة **الجاحظ**، فأكمل ما **بدأوه، وأتمَّ ما نقصوه. وأوضح ما أغمضوه**، حتّى انجلت قواعد النّظم، وبانت رسوم التّأليف. وفيما يأتي عرضٌ لأبرز ما تكلّم عنه وفصَّل فيه عن ذلك.

أولاً، معيار فصاحة الألفاظ ودليله.

أرسى أبو بكر الجُرجاني قاعدةً بيَّن فيها معيار الفصاحة، ومفادُها أنَّ **الألفاظ** المُجرّدة **لا توصف بالفصاحة**، ولا تتفاضل **كلمتان مُفردتان**، ولا تُوصف لفظةٌ بكونها فصيحةً إلَّا إذا كانت **أكثر ملاءمةً وإفادةً للمعنى** في **سياقه**. إذ الفضيلة - وخلافها - في مدى **ملاءمة معنى اللَّفظة** لمعنى التي **تليها**، ممَّا لا تَعلّقَ له بصريحِ اللَّفظ. إلا أنَّه **يُفاضل** بين الألفاظ **قبل النَّظم** في حالتين:

الأولى، بأنْ تكون هذه **مألوفةً مستعملةً**، وتلك **غريبةً وحشيّةً**. **والثّانية**، أنْ تكون **حروفُ** هذه أخَفَّ، **وامتزاجُها أحسنَ**، وممَّا **يَكُدُّ اللسانَ أبْعَدَ**.[2]

ودلَّل على **صحة معيار التَّفاضل** بين الألفاظ- وهو اختيار اللّفظة التي هي **أدلّ** على **معناها** الذي وُضعت له مِن **صاحبتها**- **مِن وجهتين**:

---

(١) وخصّه لعلم المعاني. والكتابان الآخران: «**الرِّسالة الشَّافية**»: وضعها ليُثبت حقيقة الإعجاز لا ليُبيِّن أسراره، تكلَّم فيها عن عجز العرب عن معارضة القرآن، وإذعانهم له، مع رد القول بالصَّرفة. «**أسرار البلاغة**»: وضعه توطئةً للكلام عن دلائل الإعجاز، وخصّه لعلم البيان.

(٢) **دلائل الإعجاز** (ص٤٤، ٤٦).

الأولى؛ لأنَّه **لا يُحكم بالتّفاضل** بين مفردتين قبل أنْ يُنْظرَ إلى **المكان** الذي **تقعان فيه** مِن **التّأليف والنَّظم**، وبالتّالي فلا تُوصف **لفظةٌ بالفصاحة** وحُسن ملاءمة **معناها لمعاني جاراتها**، وفضل مؤانستها لأخواتها، دون اعتبار **مكانها** مِن **النَّظم**.

الثّانية؛ لأنَّه لا أحد يصف لفظة بكونها «**متمكِّنةً ومقبولةً**»، أو «**قلقةً ونابيةً**»، إلّا وغرضه أنْ يُعبر عن **حُسن الاتفاق** بينَ هذه وتلك مِن جهةِ **معناهما**، أو عن **سوء التّلاؤم**، وعدم صلاحية **السّابقة** أنْ تكونَ **لِفْقاً للتَّالية** في مؤادَّها.(١)

ولتوضيح ذلك مثَّل "**أبو بكرٍ الجُرجاني**"، بقوله ﷻ: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود:٤٤]. فما يظهر في هذه الآية مِن **مزيّةٍ وفضيلةٍ**، ويتجلّى فيها **مِن إعجازٍ**، لا يرجع إلّا إلى **ارتباط كلماتها بعضِها ببعضٍ**، مِنْ حيثُ **لاقَت الأولى بالثَّانية**، والثَّالثة بالرَّابعة... وأنَّ **الفضلَ تَناتَجَ** ما بينَها، وحصَل مِن مجموعها.

وتعليل ذلك؛ أنَّه لا يُمكن **لفظةٍ منها** - لو **أُخِذَت** مِن بين **أخواتها وأُفردتْ** - أنْ تؤدي مِن الفصاحة ما تُؤدِّيه **وهي في مكانها** مِن الآية. **قُل**: «ابلَعي»، **واعتبرْها وحْدَها** مِن غير أنْ تَنْظُر إلى **ما قَبْلَها وما بعدَها**، وكذلك فاعتبرْ سائرَ ما يليها. **وتفصيل ذلك**:

أنَّ مبْدَأ العظمةِ في أنْ **نُوديت** الأرضُ ثُمَّ **أُمِرَتْ** بما هو مِن شأنها، وأنَّ النِّداء بـ «**يا**» دونَ «**أيّ**»، نحو «**يا أيّتها الأرضُ**».(٢)

---

(١) **لَفَقَ** الثَّوبَ يَلْفِقُه: ضَمَّ شُقَّةً إلى أُخْرَى، فَخاطَهُما، وتَلافَقَ القومُ، أي تلاءمتْ أمورُهم. **الصّحاح** للجوهري (٤/ ١٥٥٠).

(٢) اختير "يا" دون سائر أخواتها؛ لكونها أكثر استعمالاً، ولدلالتها على بعد المنادَى الذي =

ثُمَّ **إضافةِ «الماءِ» إلى «الكافِ»** دونَ أنْ يقالَ: **«ابْلَعي الماء»**.

ثُمَّ أتبعه **بنداء السَّماء** وأمرها بما يَخصّها.

ومِنْ ثَمَّ مجيْ **الفعل** في: ﴿وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ﴾ على صيغة **«فُعِل»** -المبني للمجهول- للدّالّةِ على أنَّه لم يَغِضْ **إلَّا بأَمر آمرٍ وقُدرةِ قادرٍ**.(١)

ثُمَّ **تأكيدُ ذلك وتقريرُه**، بقولهِ تعالى: ﴿وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ﴾.

ثُمَّ **ذِكْرُ فائدة هذه الأمور**، وهو: ﴿وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّ﴾...

فهذه الخصائص، وتلك الرّوعة، **لا تَعلّقَ لها باللّفظ** مِن حيثُ هو **صوتٌ مسموعٌ وحروفٌ تَتوالى** في النّطق، بل لِما بين **معاني ألفاظِها مِنَ اتّساقِ**. **فاللّفظ** الواحد **يقع مَقبولاً، ومكروهاً**، تبعاً **لمدى ملاءمته** لِما **يُجاورُه**. **والكلمة** قد **تروق وتُؤنس** في موضع، و**تَثْقُل وتُوحِش** في **موضع** آخر، فلو كانت تستحقّ المزيّةَ في **ذاتِها**، وعلى **انفرادِها**، دون **حالها مع أخواتها المجاورةِ** لها في النَّظْم، لَما **اختلف بها الحال**، ولكانت إنَّما **تَحْسُن أبداً**، أو **لا تَحْسُن**.(٢)

= يستدعيه مقام إظهار العظمة، ويؤذن بالتَّهاون به، ولم يقل: يا أرض بالكسر؛ تجنباً لإضافته التّشريف تأكيداً للتهاون. ولم يقل: "يا أيتها الأرض" للاختصار مع الاحتراز عمَّا في "أيتها" مِن تكلّف التَّنبيه غير المناسب للمقام؛ لكون المخاطَب غير صالح للتّنبيه على الحقيقة. **الإيضاح في علوم البلاغة** (ص٣١٣). **بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة** (٣/ ٥٦٠).

(١) اختير "وَغِيضَ" على "غُيِّض" -المبني للمجهول أيضاً، والمعلوم منهما: غاض- المشدّدة؛ لكونه أخصرَ وأخفَّ وأوفقَ لـ"قيل". **الإيضاح** (ص٣١٤). **بغية الإيضاح** (٣/ ٥٦٠).

(٢) **دلائل الإعجاز** (ص٤٤-٤٨).

ثانياً، التَّلاؤمُ اللَّفظيّ والفصاحة.

إذا كان حُسنُ الكلام يبدأ مِن تلاؤم **الحروف والألفاظ**، وكان مِن مذهب أبي بكرٍ الجُرجانيّ أنَّ النَّظمَ يكون في **الألفاظ المُتآلفة والمعاني المُتلاقية**، فما **موقع التَّلاؤم** منه عنده، ولِمَ **لم يُفْرِدْه بالذِّكر**؟. ذلك لأنَّه عقد فصلاً يردّ فيه على من قصر **صفة الفصاحة على اللّفظ**، وادّعى بأنْ لا معنى لها **سِوى التَّلاؤمِ اللَّفظيّ**، وتعديلِ مِزَاجِ الحُروفِ حتى لا يتلاقى في النُّطقِ حروفٌ تَثْقلُ على اللّسَان؛ حيث يقول: وقصر الفصاحة على **كَوْن اللفظِ كذلك**، وجَعله المراد بها، يلزم منه إخراج "**الفصاحة**" مِن **حيِّز** "**البلاغةِ**"، ومِنْ أنْ تكونَ **نَظيرةً لها**. وفعل ذلك **يتعيَّن منه** أحد **أمرين**:

إمَّا جعله **العُمْدةَ في المفاضلةِ** بينَ العبارتين وعدم **التَّعريج** على غيرِه. أو جعله **أحدَ ما يُفاضل به، ووَجْهاً** منَ **الوجوه** التي **تَقْتضي** تقديمَ كلامٍ على كلامٍ.

فإنْ **أخذنا بالأوَّل**، لزم منه قَصْر **الفضيلة** عليه حتّى لا يكون **الإعجازُ إلَّا به وفيه**، وفي ذلك ما لا يخفى **مِن الشَّناعة**؛ لأنَّه يؤدّي إلى أنْ لا يكون **لمعاني البلاغة مدخلٌ** فيما له كان القرآنُ **مُعْجزاً**؛ مِن حيثُ هو بليغٌ، وكلامٌ شريفُ النَّظم، بديعُ التأليف؛ لأنَّه **لا تَعلُّقَ لشيءٍ** من هذه المعاني **بتلاؤمِ الحروف**. **ويلزم** منه: جواز أنْ يكون هناك **نظمٌ** للألفاظِ وترتيبٌ لا على **نَسَق المعاني**، ولا على وجْهٍ **يُقْصَد به الفائدةُ، ثُمَّ يكونَ مع ذلك مُعْجزاً**. وكفى به **فساداً**.

وإنْ **أخذنا بالثَّاني** -كون **التَّلاؤم في عِداد** ما **يُفاضل** به على الجملة- لم **يكن له بهذا الاعتبار ضررٌ**؛ لأنَّا **إمَّا** أنْ **نعمد إلى إخراج** "**الفصاحة**" مِن حيِّز "**البلاغة والبيان**" -وأنْ تكون نظيرةً لها- وما هو شبههما مِن براعةٍ وجزالةٍ، وأشباه ذلك ممَّا يُنبئُ عنْ شرفِ النَّظْمِ. **أو نجعلهما** - الفصاحة والبلاغة -

اسماً مُشتركاً يقَعُ **تارةً** لِما تَقعُ له تلك، وأُخرى لِما يَرْجع إلى **سلامةِ اللّفظِ** ممَّا يَثْقُل على اللِّسان. قال: "ليس واحدٌ مِنَ الأمرين بقادحٍ فيما نحن بصدده".[1]

مِن هذا يتبيَّن أنَّ الفصاحة - والتَّلاؤمُ أحدُ معانيها - **شرطٌ لبلاغة النَّظم**، يمكنُ إخراجُها مِن حيِّز البلاغة لتكون **وصفاً للألفاظ**، وتكون **البلاغةُ وصفاً للنَّظم**. أو تكون -الفصاحة- **اسماً مُشتركاً**، يُراد بها تارةً **صفة اللَّفظ**، وأُخرى **صفة النَّظمِ** البليغ. ما يعني أنَّ الاختلافَ اختلافُ اصطلاحٍ، وأنَّ تلاؤم الحروف والألفاظ شرطٌ لازمٌ.[2]

وبهذا يتضح أنَّ عدم **إفراده التّلاؤم بالذّكر**، يرجع إلى كونه لا يَحكُم على كلمةٍ بالفصاحة أو خلافِها إلَّا **في سياق النَّظم**، ومِن مقتضاه انتفاءُ التَّنافر.

ثالثاً، بلاغةُ الكلام، وكيفيّة نظمه.

تكلّم أبو بكر الجُرجانيّ عمَّا تقع فيه البلاغة، وقِوام النَّظم، وكيفية حدوثه، وبراعته، ونظم الحروف والكَلِم.

أمَّا بلاغة الكلام، فليست في **كلماته** المُفردة، أو في **معانيه**، بل **في نظمه**، والذي **قِوامه**: تعليقُ الكلمات بعضها ببعضٍ، وجعلُ بعضها بسببٍ مِن بعضٍ.[3]

وكيفية حدوثه، تترتّبُ الألفاظ فيه **بترتّب المعاني في النَّفس**، بحُكم **أنَّها خدمٌ للمعاني**، وتابعةٌ لها، ولاحقةٌ بها، هذا مِن **جهةٍ**. ومِن **جهةٍ ثانيةٍ**؛ لأنَّ **العلم بمواقع المعاني** في النَّفس علمٌ **بمواقع الألفاظ** الدَّالة عليها في **النّطق**، ما يعني

---

(١) **دلائل الإعجاز** (ص٥٩-٦٠).

(٢) هذا ما ينحو إليه أبو بكر الجرجاني وهو جعل الفصاحة والبلاغة اسماً مشتركاً يُعرف المراد مِن خلال السّياق.

(٣) **دلائل الإعجاز**، تح: هنداوي (ص٧).

تُرتّب المعاني في **النَّفس أوَّلاً، ثُمَّ تتبعها الألفاظ** مُرتبةً وفقها.

وتظهر البراعة فيه: باختيار **اللّفظ** الذي هو **أخصّ** في **تأدية المعنى**، وأكشف عنه، وأتمّ له، وأحرى بأنْ يَكسبه نُبلاً، ويُظهر فيه مزيّةً.

لهذا؛ ينبغي أنْ **يُنظر** إلى **الكلمة قبل دخولها في التَّأليف**، وقبل أنْ تصير إلى **الصّورة** التي بها **يكون الكَلِم** إخباراً أو أمراً أو نهياً أو استخباراً أو تَعَجّباً... **وتؤدي في الجملة معنىً** مِن المعاني التي لا سبيل إلى إفادتها إلّا **بضمِّ كلمةٍ إلى كلمةٍ**، وبناء لفظةٍ على لفظةٍ.(١)

والفرق بين نظم الحروف ونظم الكَلِم، أنَّ **نظْمُ الحروفِ** تَواليها في النّطق دون أنْ **يقتضي معنىً**. فلو أَنَّ واضع اللُّغة قال «**ربضَ**» مكان «**ضرَبَ**»، لَما كان في ذلك ما يؤدي إلى فسادٍ. أمَّا **نظم الكَلِم، فاقتفاء آثار المعاني** في تأليفها، وترتيبُها على حسب **ترَتّب المعاني في النَّفس**؛ لأنَّه نظمٌ يعتبرُ فيه **حالُ المنظوم** بعضه معَ بعضٍ، **وهو** نظيرُ النَّسج والتّأليف والصّياغة وما أشبَه ذلك ممَّا يُوجب اعتبار الأجزاءِ بَعْضِها مع بعضٍ، حتّى يكونَ لوضعِ كلٍّ حيثُ وُضع **علّةٌ تَقْتَضي ذلك**، ولو وُضِع في مكانٍ غيره **لم يصْلُح**.

وبمعرفة هذا **الفرقِ**، يتبيَّن أنْ ليس **الغرض بنظم الكَلِم** توالي ألفاظه في النَّطق، بل تناسق دلالاته، وتلاقي معانيه على الوجه الذي يقتضيه العقل.(٢)

رابعاً، تعريفُ النَّظم وابْتِناؤُه.

فضلاً عن كلام أبي بكر الجرجاني عن مكانة النَّظم ودوره في الإعجاز والبلاغة، عرَّف به وبيَّن كيف يُبنى، واختلاف دلالته، مع التّعليل والتّمثيل.

---

(١) **دلائل الإعجاز** (ص٤٤).

(٢) **دلائل الإعجاز** (ص٤٩).

١) كنه النّظم وحدّه وتعريفه، ووجوه تعلُّق الكَلِم.

كُنه النّظم: وضع الكلام الوضع الذي **يقتضيه علم النّحو**، ومعرفة **مناهجه**، وحفظ **رسومه**، دون زيغٍ عنها أو إخلالٍ بها؛ لأنَّه **مهما جَهدنا** أفكارنا فلن نجد للكلِمِ المفردةِ سِلْكاً يَنْظِمُها، وجامعاً يَجْمعُ شمْلَها ويؤلِّفُها، ويَجْعلُ بعضَها بسبَبٍ مِنْ بعضٍ، **غيرَ توخِّي** معاني النّحو وأحكامهِ فيها.[١]

وحدّه: العمل بقوانين النّحو **ورعاية معانيه وفروقه**، وهي **ليست معانيَ ألفاظٍ** فيتصوَّر أنْ يكون لها تفسيرٌ،[٢] إنمَّا المراد منها -معاني النّحو- **مواضعها في نسق الكلام ونظم الأسلوب**، لا مجرّد الصّنعة الإعرابية التي تُجَرى بمعزلٍ عن المعنى.[٣] **وبيان ذلك**:

لو أنَّ **عاقلاً رتَّب** في نفسه ما يُريد أنْ يَتكلَّم به، فليس لقوله: «**ضرب**» معنى سوى أنْ يجعله **خبراً** عن «زيدٍ»، ويجعل «**الضّرب**» الذي أخْبَرَ بوقوعِه منه **واقعاً** على «**عمرٍو**». ويجعل «**يومَ الجمعةِ**» **زمانَه** الذي وقَعَ فيه. ويجعل «**التَّأديبَ**» **غرَضَه** الذي فعَل «الضّرْبَ» مِن أجْله، فيقول: «**ضَرَبَ زيدٌ عَمراً يومَ الجمعةِ تأديباً له**». وهذا كما تَرى **هُو تَوخِّي** معاني النّحو فيما بين **معاني** هذه

---

(١) **دلائل الإعجاز** (ص٨١، ٣٩٢).

(٢) **دلائل الإعجاز** (ص٨١).

(٣) **الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق** (ص١٢١). المعاني النّحوية ليست الإعراب؛ وذلك أنَّ العِلْم به مشترَكٌ بينَ العَربِ كلِّهم، وليس هو ممَّا يُسْتنبَط بالفكْرِ، ويُسْتعانُ عليه بالرويَّة؛ فليسَ أحدُهم، بأنَّ إعرابَ الفاعل الرفعُ أو المفعولِ النصبُ... بأعلم مِن غيره ولا ذاك ممَّا يَحتاجون فيه إلى حِدَّةِ ذهنٍ وقوةِ خاطرٍ، إنَّما الذي تقَعُ الحاجةُ فيه إلى ذلك، العلم بما يُوجِبُ الفاعليةَ للشيءِ إذا كان إيجابُها مِن طريقِ المجازِ، كقوله ﷻ: ﴿فَمَارَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ﴾ [البقرة:١٦]، وأشباه ذلِك، ممَّا يجعلُ الشَّيء فيه فاعلاً على تأويلٍ يَدقُّ، ومن طريقٍ تَلْطُفُ، وليس يكونُ هذا علماً بالإعراب، ولكن بالوصْفِ الموجبِ للإعراب. **دلائل الإعجاز** (١/ ٣٩٥-٣٩٦).

الكَلِم. ولو أنَّك فرضْتَ **أنْ لا تتوخَّى** = في «**ضرَب**» أن تَجْعَلَه **خبراً** عن «**زيدٍ**» وفي «**عمرٍو**» أنْ تَجْعَلَه **مفعولاً به** الضّرب، وفي «**يومِ الجمعة**» أنْ تَجْعَلَه **زماناً** لهذا الضّرب، وفي «**التّأديبِ**»، أنْ تَجْعَلَه **غَرَض زيدٍ** من فعلِ الضّرب = ما تَصوَّرَ في عقلٍ، ولا وَقَع في وَهْمٍ، **أنْ تكونَ مُرتِّباً لهذه الكَلِم**، وهو العِبْرةُ في الكلام كلِّه.(١)

وتعريفه: **توخِّي** معاني النَّحو وأحكامِه، **ومراعاة** وجوهِه وفروقه فيما بين معاني **الكَلِم**. وذلك بأنْ تأتي **المعنى** مِن الجهة التي هي **أصحُّ لتأديته**، وتختار له **اللّفظ** الذي هو **أخصُّ به، وأكشفُ عنه**. والتّوخِّي هو معدن البلاغة ومرجع المزيّة وموجب الفضيلة،(٢) فلو **فرضنا خلو الألفاظ مِن معانيها**، ومن **توخّي معاني النَّحوِ** وأحكامه، لَمَا حدث **نَظْمٌ وترتيبٌ**، ولا استقام **تأليفٌ وصياغةٌ**. وإذا نظرنا إلى سياق الآيات في **سورة الفاتحة** تبيَّن لنا كيف **تترتّب الألفاظ** وتُؤلَّف الكلمات تبعاً **لمعاني النّحو وأحكامه**.

فـ «**الحمدُ**» مِن قوله ﷻ: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ **مبتدأٌ**، و«**لله**» **خبرُه**، و«**ربِّ**» **صفةٌ** لاسم الله ﷻ، **ومضافٌ** إلى «العالمين». و«**العالمين**» **مضافٌ إليه**. و﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ **صفتان**، كالرَّب. و«**مالكِ**» مِن قوله: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ **صفةٌ** أيضاً، **ومضافٌ إلى يوم**. و«**يوم**» مضافٌ إلى «**الدِّين**». و«**إيَّاك**» **ضميرُ اسم الله** ﷻ، وهو **ضميرٌ يقَعُ موقِعَ الاسمِ** إذا كان **الاسمُ منصوباً**. **أيْ**: يصح مكانه القول: «اللهَ نَعْبُدُ»، و«نَعْبدُ» هو **المُقتضي** معنى النَّصْب فيه. وكذلك حُكْمُ: ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾... فهذه المعاني لا يُتصوَّرُ أنْ تكون **معانيَ ألفاظٍ**،

---

(١) **دلائل الإعجاز** (ص٤٣، ٤٠٥).

(٢) **دلائل الإعجاز** (ص٥٢٥).

فكْون «الحَمْدُ» مبتدأً، و«ربِّ» صفةً، وكونُه مضافاً إلى «العالمين» **لا يرجع إلى معاني أنْفُس ألفاظها...**[1]

وجوه تعلُّق الكَلِم.

أورد **أبو بكرٍ تعريفاً آخر للنَّظم**، بأنَّه **تعليق الكَلِمِ** -وهو اسمٌ وفعلٌ وحرفٌ- **بعضِه ببعضٍ، وجعلِ بعضِه بسببٍ مِن بعضٍ**. ووجوه التّعلق فيما بينها ثلاثةٌ: تعلُّق اسمٍ باسمٍ، وتعلُّق اسمٍ بفعلٍ. وتعلُّق حرفٍ بهما.

فالاسمُ يتعلَّقُ بالاسمِ بأنْ يكون: خبراً عنهُ أو حالاً منه، أو تابعاً له: صفةً أو تأكيداً أو عطفاً أو بدلاً، أو بأنْ يكونَ **مضافاً** الأوَّل إلى الثَّاني، أو بأنْ يكونَ **الأوَّلُ يعملُ في الثَّاني** عملَ الفِعل، ويكون الثّاني في حُكم **الفاعل له** أو **المفعول**، وذلك في **اسم الفاعل**، كقولِهِ ﷻ: ﴿رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلظَّالِمِ﴾ [النساء:٧٥]، وقوله ﷻ: ﴿وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ ۝٢ لَاهِيَةٗ قُلُوبُهُمۡ﴾ [الأنبياء:٢-٣]. **واسم المفعول**، وكقولِهِ ﷻ: ﴿ذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّجۡمُوعٞ لَّهُ ٱلنَّاسُ﴾ [هود:١٠٣]، **والصّفة المشبَّهة**، كقولنا: زيدٌ حَسَنٌ وجهُهُ، وكريمٌ أصلهُ. **والمصدر**، كقوله ﷻ: ﴿أَوۡ إِطۡعَٰمٞ فِي يَوۡمٖ ذِي مَسۡغَبَةٖ ۝١٤ يَتِيمٗا﴾ [البلد:١٤،١٥]...

وأمَّا **تعلقُ الاسمِ بالفعلِ**، فبأنْ يكونَ **فاعلاً** له، أو **مفعولاً مطلقاً**، فيكون مصدراً قدِ انتصب به، كقولك: ضربتُ ضرباً. أو **مفعولاً له**، كقولك: ضربتُ زيداً. أو **ظرفاً** مفعولاً فيه زماناً أو مكاناً، كقولك: خرجتُ يومَ الجُمعة، ووقفتُ أمامك. أو **مفعولاً معه**، كقولنا: جاء البردُ والطيالسةَ. أو **مفعولاً لأجله**، كقولهِ ﷻ: ﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ﴾ [النساء:١١٤].

---

(١) **دلائل الإعجاز** (ص٤٥٢-٤٥٤).

وأمَّا تعلُّق الحرفِ بهما فعلى ثلاثةِ أضربٍ:

أحدُها، التَّوسط **بين الفعل والاسم،** وذلك في حُروفِ **الجرَّ** التي من شأنها أنْ **تُعَدّي الأفعال** إلى **ما لا تَتَعدَّى إليه بأنفسها** مِنَ الأسماء، كأنْ تقولُ: "مررتُ" فلا يصلُ إلى نحو: زيدٍ وعمرٍو. فإذا قلت: مررتُ بزيدٍ أو على زيدٍ. وجدتَهُ قد وصل "**بالباء** أو **على**". وكذلك سبيل **الواو** الكائنة بمعنى "**مع**" في قولنا: "لو تُرِكتِ النّاقةُ وفصيلَها لرضْعِها" بمنزلة **حرف الجرِّ** في **التوسُّط بين الفعل والاسم** وإيصاله إليه، إلَّا أنَّ الفرقَ أنَّها لا تعملُ بنفسها شيئاً لكنَّها تُعينُ الفعل على عمله النَّصب.

ثانيها: تعلُّق الحرف بالعطف، وهو أنْ يدخُل **الثَّاني** في عمل العامل في **الأوَّل،** كقولنا: "جاءني زيدٌ وعمرٌو، ورأيتُ زيداً وعَمراً، ومررتُ بزيدٍ وعمرٍو".

ثالثها: تعلُّقه **بمجموع الجُملة،** كتعلُّق حرف **النَّفي والاستفهام والشّرْط والجَزاء** بما **يدخلُ عليه.** وذلك أنَّ مِن شأن هذه المعاني أنْ تتناول **ما تتناولهُ بالتَّقييد** وبعد أنْ **يُسند إلى شيءٍ.** معنى ذلك أنَّك إذا **قلت:** ما خَرج زيدٌ، وما زيدٌ خارجٌ، لم يكنِ **النّفيُ الواقعُ بها** مُتناوِلاً **الخروجَ على الإطلاق** بل الخروجُ **واقعاً من زيدٍ ومُسنداً إليه.** وإذا **قلت:** "هل خَرجَ زيدٌ" لم تكنْ قد **استفهمتَ عنِ الخُروج مُطلقاً** ولكنْ عنه **واقعاً مِن زيدٍ.** وإذا **قلت:** "إنْ يأتِني زيدٌ أُكْرِمْهُ" لم تكن جعلت **الإتيان** شرطاً **بلِ الإتيان مِن زيدٍ.** وكذا لم تجعل الإكرام على الإطلاق جزاءً للإتيان بل الإكرامُ واقعاً منك. كيف وذلك يؤدَّي إلى **أشنعِ ما يكونُ** مِنَ المُحال، وهو أنْ يكون هاهُنا **إتيانٌ من غيرِ آتٍ، وإكرامٌ من غير مُكرِمٍ،** ثُمَّ يكونُ هذا شرطاً وذلك جزاءً.

ومختصرُ الأمر أنَّه لا يكون **كلامٌ مِن جزءٍ واحدٍ،** وأنَّه لا بدَّ من **مُسْنِدٍ ومُسْنَدٍ إليه،** وكذلك السَّبيلُ في كلِّ حرفٍ رأيتَهُ يدخلُ على جملةٍ، **كإنَّ**

وأخواتِها. ألَّا تَرى أنَّك إذا قلتَ: "**كأنَّ** " يَقْتضي مُشبَّهاً ومُشبَّهاً بِهِ، **كقولك**: كأنَّ زيداً الأسد. وكذلك إذا قلت: "لو" و"لولا" وجدْتَهما يقتضيانِ جُملتينِ تكونُ **الثَّانيةُ جواباً للأولى**.

وجملة الأمر أنَّه لا يكون **كلامٌ مِن حرفٍ وفعلٍ أصلاً**، ولا مِن **حرفٍ واسمٍ**، إلَّا في النِّداء نحو: «يا عبد الله»، وذلك إذا حقّقَ الأمر كان كلاماً **بتقدير الفعل المضمر** الذي هو «**أعني**» و «أريد» و «أدعو» و «يا» **دليلٌ عليه**، وعلى قيام معناه في النَّفس. فهذه هي الطّرق والوجوه في **تعلّق الكَلِم بعضه ببعضٍ**، وهي كما تراها، معاني النَّحو وأحكامه.(١)

٢) ما يقع فيه النّظم، والغرض منه، واختلاف دلالته.

أ- ما يقع فيه النّظم. النَّظم يكون للمعاني، وفيها يحدث، **وليس للألفاظ**؛ وذلك:

- لأنَّ الألفاظ **أوعيةٌ للمعاني، تَتْبَعها** في مواقعها، فإذا وجب لِمعنىً أنْ يكونَ أوَّلاً في **النَّفس**، وجَب للَّفظ الدَّال عليه أنْ يكون مثْلَه أوَّلاً في **النّطق**. ولو لم يكن الغرض **ترتيب المعاني** والنّطق **بالألفاظ** على حَذْوها لمَا **اختلف حالُ اثنين** في العِلْم **بحُسْن النَّظم**، أو **عدمه**.

- ولأنَّه لا **اعتبار** للفظةٍ مع صاحبتها إذا **عُزِلت دلالتُهما** جانباً، ولو أنَّ الألفاظ **انخلعت** مِن دلالاتها لمَا كان شيءٌ أحقَّ بالتّقديم مِن شيءٍ، ولا تُصُوِّرَ أنْ يجِب فيها **ترتيبٌ ونَظْمٌ**.

- ولمَّا كان **النَّظمُ** - الذي تَتَفاضَلُ مراتِبُ البلاغة مِن أجله - **صَنْعةً يُستعانُ عليها بالفِكر**، فَمُحالٌ أنْ تتفكَّرَ في أمرٍ **ولا تَصنَعَ فيه شيئاً**، **والمعاني هي التي**

---

(١) **دلائل الإعجاز**، تح هنداوي (ص٧-١٠).

تَحَدُثُ فيها صَنْعتُك، وتَقعُ صياغتُك ونظمُك.[1]

ب- الغرضُ مِن النَّظم وطريق الوصول إليه.

إذا كان «نظمُ الكَلِم»: **اقتفاءَ آثارِ المعاني** في تأليفها، فالغرض منه **تناسق دلالتها وتلاقي مَعانيها** على الوجهِ الذي يقتضيه **العقل**؛ لأنَّ **الألفاظ** لا تستحقُّ مِن حيثُ هي ألفاظٌ أنْ تُنظمَ على وجهٍ دون وجهٍ، **ولا يُتصور أنْ يُقصَدَ به التَّوالي في النّطق.**[2]

وطريق الوصول إلى الغرض بأحد ضربين:

الأوَّل، تصلُ إلى الغرض مِن النَّظم **بدلالة اللّفظِ وحده**، كـ خرج زيدٌ، وعمرٌو منطلِقٌ، إذا قصدت أنْ تُخبر عن خروج زيدٍ وانطلاق عمرٍو.

الثَّاني، لا تصِلُ منه إلى الغرضِ **بدلالة اللّفظِ وحدَه**، بل **اللّفظ يدلّ على معناه** الذي يقْتضيه **موضوعه في اللّغة، ثُمَّ تَجدُ لهذا المعنى دَلالةً ثانيةً** تَصِلُ بها إلى الغرض. ومَدارُ هذا الأمر على «**الكناية والاستعارة والتَّمثيل**»،[3] وهو ما

---

(١) **دلائل الإعجاز** (ص٥٠-٥٢).

(٢) **دلائل الإعجاز** (ص٤٩-٥٠).

(٣) **الكناية**: لفظٌ أُريد به لازم معناه، مع جواز إرادة المعنى الحقيقي، لعدم وجود قرينةٍ مانعةٍ مِن إرادته، نحو: «زيدٌ كثير الرّماد» فالمراد **كرمه**، ولا يمنع إرادة كثرة الرّماد حقيقة. **والفرق بين الكناية والمجاز** صحة إرادة المعنى الأصلي في الكناية، دون المجاز. وقد تمتنع إرادة المعنى الأصلي في الكناية، لخصوص الموضوع، كقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الزمر: ٦٧]. **جواهر البلاغة** (ص٢٨٧-٢٨٨). يُنظر: **عروس الأفراح** (٢/ ٢٠٦). **والاستعارة**: استعمال **لفظٍ ما** في غير **ما وُضِع له** لعلاقة المشابهة، مع قرينةٍ صارفةٍ عن إرادة المعنى الموضوع له. **لذلك**؛ فهي تشبيهٌ بليغ حُذف أحد طرفيه، المشبّه أو المشبّه به. فإذا قيل: «رأيت أسداً يرمي» فقد شبّه الرّجل الشّجاع بالأسد، ثُمَّ استعير اسم المشبّه به -وهو الحيوان المفترس- للمشبّه، وهو ذات الرّجل الشّجاع. يُنظر: **المنهاج الواضح للبلاغة** (١/ ١٠٤). **البلاغة العربية** (٢/ ٢٢٩). **والتّمثيل**، يأتي التّعريف به.

يُسمى: "**معنى المعنى**"، مِن ذلك إذا قلت: «هو **كثيرُ الرَّماد**»، أو: «**طويلُ النِّجادِ**»، أو في المرأةِ: «**نَؤُومُ الضّحى**». فإنَّكَ في ذلك لا تُفيدُ غرضَك الذي تعني **مِن مجرَّد اللّفظ**، لكنْ يدلّ اللّفظُ على معناه الذي **يُوجِبُهُ ظاهرهُ**، ثُمَّ **يَعْقِلُ السَّامعُ مِن ذلك المعنى** - على سبيلِ الاستدلالِ - **معنىً ثانياً** هو **غَرَضُك**، كمعرفتِكَ مِنْ «**كثيرِ الرَّماد**» أنَّه **مضيافٌ**، ومِن «**طويلِ النِّجاد**» أنَّه **طويلُ القامة**، ومِن «**نؤوم الضّحى**» في المرأة أنَّها **مُتْرفَةٌ مخدومةٌ**، لها مَنْ يَكفيها أَمْرَها. فما دلَّ عليه **ظاهرُ اللّفظ** يُسمّى: «**المعنى**»، وما **عُقل منه** على سبيل الاستدلال يُسمّى: «**معنى المعنى**».

ج- اختلاف الدّلالة باختلاف النَّظم.

تختلف دلالة الكلام باختلاف طريقة نظمه وتأليفه؛ لأنَّ قِوامه مراعاة **الفروق الدّقيقة** بين المعاني النّحوية، واعتبار **حال المنظوم** بعضه مع بعضٍ، ومعنى يدل عليه **ظاهر اللّفظ**، وآخر **يُعقل منه**؛ ما يعني أنَّه عند **تَغَيّر النَّظْم**، لابُدّ مِن **اختلاف الدّلالة**. كما في مسائلِ «**التَّقديمِ والتَّأخيرِ**»، وكقولك: «إنَّ زيداً كالأسد»، و«كأنَّ زيداً الأسدُ» - كما يأتي بيانه- حيث لم **يتغيَّر مِن اللّفظِ** شيءٌ إنَّما **تغيَّرَ النَّظمُ** فقطّ.[1]

خامساً، مرجع المزيّة في الفُروقِ والوجوهِ النّحوية.

ترجع المزيَّة في الفروق الدّقيقة بين الوجوهِ والمعاني النّحويّة إلى **أمرين**:

الأوَّل، لا ترجع المزيّة في النَّظم إلى مجرَّد **العلم بالفروق**، بل تجب **للعلم بمواضِعها**، وما ينبغي **أنْ يُصنعَ فيها**، فليس الفضل **أنْ تعلم** أنَّ «**الواو**» للجمع، و«**الفاء**» للتَّعقيب بغير تَراخٍ، و«**ثُمَّ**» له بشرطِ التَّراخي، بل أنْ يتأتَّى لك إذا

---

(١) **دلائل الإعجاز** (ص٢٦٢-٢٦٥).

نظَمْتَ شعراً وألَّفْت رسالةً أنْ **تُحْسِنَ التّخيّرَ**، وأنْ **تَعْرِف** لكلٍّ مِن ذلك **مَوضِعَه**.[1]

الثَّاني، لا تجب **المزيّة لعبارةٍ** حتّى يكون **لمعناها تأثيرٌ** لا يكونُ **لصاحبتها**. **والمعنى**، هو **الغرض** الذي يُريد المتكلِّم **أنْ يُثْبته أو يَنْفيه**. نحْو أنْ تَقْصِد **تشبيه الرَّجلِ بالأسد**، فتقول: «**زيدٌ كالأسد**». ثُمَّ أردت الزِّيادة في **معنى تشبيهه؛ لبيان فرط شجاعته**، بحيث لا يَرُوعُه شيءٌ، حتّى يُتوهَّم أنَّه أسدٌ في صورة آدميٍّ، فتقول: «**كأنَّ زيداً الأسدُ**». فهذه **الزِّيادةُ** وهذا **الفرقُ**، لم يحدُثا إلَّا بما **تُوَخِّيَ في نظمِ اللَّفظِ وترتيبِهِ**، حيثَ قُدِّمت «**الكافُ**» إلى صدر الكلام ورُكِّبتْ مع «**أنَّ**».[2]

سادساً، أمثلة على مراعاة الفروق الدَّقيقة بين المعاني النَّحويّة.

إذا كانَ النَّظم: توخّي معاني النَّحو وأحكامِه وفُروقِه ووُجوهه، فلا شيء **يبتغيهِ النَّاظمُ بنَظْمه** غيرَ أنْ ينظرَ في **وُجوهِ كلِّ بابٍ وفُروقهِ، فينظر**:

في «**الحروف**» التي **تَشْتركُ في معنى**، ثُمَّ يَنفردُ كلُّ **واحدٍ منها بخصوصيةٍ** في ذلك المعنى، فيضعُ كُلّاً مِن ذلك في **خاصِّ معناهُ**. نحْوَ أنْ يجيءَ بـ «**ما**» في **نفي الحال**، وبـ «**لا**» إذا أراد **نفي الاستقبال**، وبـ «**إنْ**» فيما **يترجَّحُ** بينَ أنْ **يكونَ** وأنْ **لا يكون**، وبـ «**إذا**» فيما عِلمَ **أنَّه كائنٌ**.

وفي «**الجملِ**» **التي تُسْرَدُ**، فيعرفَ **موْضعَ الفصلِ** فيها مِن **موضعِ الوَصْل**، ثُمَّ يعرف فيما حقّه الوصْل موضع «**الواو**» من موْضعِ «**الفاء**»، وموضع «**الفاء**» ومِن موضعِ «**ثُمَّ**»، وموضع «**أو**» مِن موضعِ «**أم**»، وموضَعَ «**لكنْ**» مِن موضعِ «**بل**».[3]

---

(١) **دلائل الإعجاز** (ص٢٤٩-٢٥٠).

(٢) **دلائل الإعجاز** (ص٢٥٨).

(٣) الوصل والفصل **أحد الأبواب** في **علم المعاني**، وهو العلم **بمواضع العطف والاستئناف، ومعرفةُ كيفية** إيقاع **حروف العطف** في **مواقعها**، أو **تركها** عند عدم الحاجة إليها، **أمرٌ صعبٌ**؛ =

وتستبين أهمية معرفته أنَّه لمّا سُئل أحدهم عن **حدِّ البلاغة**، قال: «**مَعْرِفَةُ الفَصلِ منَ الوصلِ**»؛ **قال أبو بكرٍ الجرجاني**: «ذاك لغموضِه ودقةِ مَسْلكِه، وأنَّه لا يَكْمُلُ لإحرازِ الفضيلة فيه أحدٌ، إلَّا كَمَلَ لسائِر معاني البلاغة».(١)

ويتصرَّفَ في التّعريف والتَّنكير، والتّقديم والتّأخير، وفي الحذف والتّكرار، والإضمار والإظهار، فيصيب بكلٍّ مِن ذلك مكانَه، ويستعملَه على ما ينبغي له.(٢)

= وذلك لغموضه ودقة مسلكه. **والوصل**: عطف **جملة على أخرى** بـ «الواو». **والفصل**: **ترك هذا العطف** بين الجملتين، والمجيء بها منثورة، **تستأنفُ** واحدةً منها بعد الأُخرى. فالجملة الثّانية: تأتي في الأساليب البليغة **مفصولةً** أحياناً، **وموصولةً** أحياناً. فمِن **الفصل**، قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [فصلت:٣٤] فجملة «**ادْفَع**» **مفصولةٌ عمّا قبلها**، وهي خبريةٌ لفظاً ومعنى، وجملة «**ادْفَعْ**» إنشائيةٌ لفظاً ومعنى، ولو قيل: «**وادْفَعْ** بِالَّتي هِيَ أَحْسَنُ»، لَما كان بليغاً؛ لأنَّ الفصل لا يوهم خلاف المقصود؛ لذا وجب الفصل بينهما. **ومِن الوصل** قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة:١١٩] عطف جملة: «**وَكونوا**» على ما قبلها، ولو قلت: «**اتَّقوا الله**، كونوا مَعَ الصَّادِقينَ»، **لَما كان بليغاً**. فكلّ مِن **الفصل والوصل يجئ لأسبابٍ بلاغيَّةٍ**. ومِن هذا يُعلم أنَّ **الوصل**: **جمعٌ وربطٌ بين جُملتين** بـ «**الواو**» خاصَّةً **لصلةٍ بينهما** في الصّورة والمعنى، أو **لدفع اللَّبس**. **والفصل**: **ترك الرَّبط بين الجُملتين**، إمَّا لأنَّهما **مُتحدتان** صورةً ومعنى، أو **بمنزلة المتحدتين**، وإمَّا لأنَّه **لا صلة بينهما** في **الصّورة أو في المعنى**. **وبلاغة الوصل** لا تتحقق إلَّا بـ «**الواو**» العاطفة دون **بقية حروف العطف**؛ لأنَّها **الأداة التي يحتاج العطف بها إلى لُطف في الفهم، ودِقةٍ في الإدراك**، إذ لا تفيد إلَّا **مُجرَّدَ الرَّبط، وتَشريكَ ما** بعدها لِمَا قبلها في الحكم، نحو: «مضى وقت الكسل، وجاء زمن العمل». بخلاف العطف بغير «الواو» فيفيد **مع التَّشريك معاني أخرى، كالتَّرتيب مع التَّعقيب** في «الفاء»، **وكالتَّرتيب مع التَّراخي** في «ثُمَّ» وهكذا باقي حروف العطف التي إذا عطف بواحدٍ منها **ظهرت الفائدة**، ولا يقع **اشتباه في استعماله**. **جواهر البلاغة** (ص١٧٩-١٨٠). ويُنظر: باب الفصل والوصل في: **دلائل الإعجاز** (ص٢٢٢).

(١) **دلائل الإعجاز** (ص٢٢٢).

(٢) **دلائل الإعجاز** (ص٨١-٨٢).

سابعاً، الفرق بين الإخبار بالاسم أو بالفعل.

ثمَّة فرقٌ بين الإخبار **بالاسم أو بالفعل، أمَّا الاسم**، فموضوعُه أنْ **يُثْبَتَ به المعنى للشَّيءِ** مِن غيرِ أنْ يَقتَضي **تجدُّده. وأمَّا الفعل**، فموضوعه أنَّه يقتضي **تَجدُّدَ المعنى** المُثْبَتِ به **شيئاً بعد شيءٍ**.

وبيانُ ذلك: إذا قلت: «**زيدٌ مُنطلقٌ**»، فقد أثبتَّ **الانطلاق فعْلاً** له، مِن غيرِ أنْ **تجعلَه يَتجدَّد ويَحْدُث** منه **شيئاً فشيئاً**، ويكون **معناه كالمعنى** في قولك: «زيدٌ طويلٌ، وعمرٌو قصيرٌ». فكما لا تقصد أنْ تَجعل الطّول أو القِصَر **يتجدَّد ويَحدث**، بل **تُثْبِتُهما** وتَقْضي بوجودهما. كذلك لا تتعرَّض في قولك: «**زيدٌ مُنطلقٌ**» لأكثرَ **مِن إثباتِه لِزَيدٍ**.

وأمَّا **الفعلُ**، فإنهُ **يُقْصَدُ فيه إلى ذلك**، فإذا قلتَ: «زيدٌ يَنْطلقُ»، فقد زَعمْتَ أنَّ الانطلاقَ يقعُ منه **جُزءاً فجُزءاً**، وجعلْتَه **يُزاوله** ويُزَجِّيه، أيْ: ويدفعه.

ومثال عدم صلاحيّة أحدهما في موضعِ صاحبِهِ، في قوله ﷻ: ﴿وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ﴾ [الكهف:١٨]، فلا أحد يشكّ في **امتناعِ الفعلِ** هَهُنا، وأنَّ القول: «كَلبُهم **يبسُطُ** ذراعَيه»، **لا يؤدِّي الغرض**؛ لأنَّ الفعل يقتضي **مزاولةً وتجدُّدَ الصِّفة** في الوقت، ويَقْتضي الاسمُ **ثُبوتَ الصِّفةِ وحُصولها** مِن غيرِ أنْ يكونَ هناك مُزاولةُ فعلٍ، ومعنىً **يَحْدُث شيئاً فشيئاً**. ولا فرْقَ بينَ: «**وكلبهم باسِطٌ**»، وبينَ: «**وكلْبُهم واحدٌ**» مثلاً، في عدم **إثبات مزاولة** فعلٍ، بل فيها **إثبات** صفةٍ هو عليها؛ لأنَّ الغرض **تأديةُ هيئة** الكلب.

والفرق أبيَنُ وأوضح **في الصِّفاتِ المُشبَّهةِ**، فـ «**زيدٌ طويلٌ، وعمرٌو قصيرٌ**» لا يصلُح مكانه: «**يطُول ويَقْصرُ**»، وإنَّما يقال ذلك إذا كان الحديث عن **شيءٍ يَزيد ويَنمو**، كالشَّجر والنَّبات والصَّبي، ونحوه ممَّا يتجدَّد فيه الطّول، أو يَحْدث

فيه القِصَر. فأمَّا **التَّحدّث عن هيئةٍ ثابتةٍ**، وعن شيءٍ لا يكون فيه تَزايدٌ وتجدُّدٌ، فلا **يَصْلُح فيه إلَّا الاسْمُ**.

ومِن الفروق الدَّقيقة بين **المعاني النَّحويّة: تنكير** الخبر **وتعريفه**. حيث يكون في كلّ حالٍ **غَرضٌ خاصٌّ، وفائدةٌ** لا تكونُ في غيره. **مِن ذلك**:

«**زيدٌ منطلقٌ**»، يكون مع **مَنْ لم يعلَمْ أنَّ انطلاقاً كان**، لا مِنْ زَيْدٍ ولا مِنْ عَمْرٍو، فأنتَ تُفيدُه ذلك ابتداءً.

كما يفيد **جواز** أنْ يكون الانطلاق مِن زيدٍ، فإنْ قيل: «**زيدٌ المنطلقُ**» صار الذي كان معلوماً على جِهة **الجواز**، معلوماً على جهة **الوجوب**.

وإذا أرادوا **تأكيدَ هذا الوجوبِ** أدْخلوا **ضمير الفصل** بين الجزءين، فقالوا: «**زيدٌ هو المنطلق**».[1]

«**زيدٌ المنطلق**، و**المنطلق زيدٌ**» المبتدأ والخبر **معرفتان**، وفي الظَّاهر أنَّهما **مِن حيثُ الغرض** سواءٌ، وهو **إثبات انطلاقٍ سَبَق العلم به** لزيدٍ، بل **بينهما فرقٌ ظاهرٌ**:

تقول: «**زيدٌ المُنْطلق**»، لمن **علم انطلاقاً كان**، لكنَّه **لم يعلم ممَّن كان**، فأنت تخبره أنَّه مِن زيدٌ.

وتقول: «**المُنْطلقُ زيدٌ**»، لمَن **رأى** إنساناً **ينطلق مِن بُعْدٍ**، إلَّا أنَّه **لم يتبيّنه**، فأنت تخبره **أنَّ** الذي تراه **هو زيدٌ**. فالخطاب في **الأوَّل** مع مَن لديه علمٌ

---

(١) **دلائل الإعجاز** (ص١٧٥-١٧٨). «**زيدٌ هوَ المنطلقُ**»: توسط الضَّمير "هو" بين المبتدأ وخبره، يُسميه البصريون فصلاً، والكوفيون عماداً. والغرض مِن دخول الفصل في الكلام: إرادةِ **الإيذان بتمام الاسم وكَمالِه**، وأنّ الذي بعده خبرٌ، وليس بنعتٍ. وقيل: أُتي به ليُؤذِن بأنَّ الخبر معرفةٌ. **الأصول في النّحو** لابن السرّاج (١/ ٥٨) **شرح المفصَّل** لابن يعيش (١/ ٢٤٧).

بالانطلاق، وفي **الثَّاني** مع مَن كان خالي الذِّهن عنه.[1]

ثامناً، مثال على اختلاف المعنى بسبب التَّقديم والتَّأخير.

التَّقديم والتَّأخير مِن الأساليب البلاغية التي تستبين مِن خلالها **دقائق الوجوهِ والفُروقِ النّحويّة**؛ لأنَّ مِن شأن الوجوه والفُروق أنْ تَحْدُثَ بسببها - وعلى حسَبِ الأغراضِ والمعاني التي تَقَعُ فيها - **دقائقُ وخفايا لا يُتَنبَّه لأكثرِها**؛ لشدّة خفاءها وفرْطِ غُموضها، بخلاف ما كان بيِّناً لا يَحتمِل إلَّا **الوجه الذي عليه**، ولا يحتاج إدراكه إلى **فكْرٍ وروية، فلا مَزِيّةَ فيه**. وإنَّما تكون **المزيَّة والفضل** لِما احتمل في **ظاهر الحال** وجهاً آخر **غير الذي جاء عليه**، ويكون للوجه الذي **جاء عليه** حُسْناً وقَبُولاً تعدَمُهما إذا أنت تركْتَه إلى الثَّاني، كما في قوله ﷻ: ﴿ **وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ** ﴾ [الأنعام:١٠٠].

فإنَّ لتقديم «**الشّركاءِ**» حُسناً وروعةً لا تجدها إذا **أخَّرت**، فقلت: «**وجعلوا الجِنَّ شُركاءَ اللهِ**»، **وبيان ذلك**: أنَّ جملة المعنى الحاصلة مع **التَّقديم أو التَّأخير**: «أنَّهم جعلوا الجنَّ شُركاءَ وعبدوهُمْ مع الله ﷻ».

أمَّا تقديم «الشّركاء» فإنَّه **يفيد معنى آخر**، وهو: «**ما كانَ يَنبغي أن يكونَ لله شريكٌ، لا مِن الجنِّ ولا مِن غيرهم**».

أمَّا إذا أُخِّر، فقيل: «جعلوا الجِنَّ شُركاءَ لله»، لم يفد سوى **الإخبار** أنَّهم **عبَدوا الجِنِّ** مع الله تعالى. أمَّا **إنكارُ أنْ يُعْبَد معه** غيرُه، وأنْ **يكونَ له شريكٌ** مِنَ الجِنِّ أو غيرِهم، فليس في اللّفظِ **مع تأخيرِ** «الشُركاءِ» **دليلٌ عليه**.

وتقدير الكلام مع التَّقديمِ: أنَّ «**شركاءَ**» مفعولٌ أوَّلُ «**لجعلَ**»، **ولفظ**

---

(١) **دلائل الإعجاز** (ص١٨٥-١٨٧).

الجلالة «لله» في موضعِ **المفعولِ الثَّاني**، ويكونُ «**الجِنّ**» على **تقدير كلامٍ ثانٍ، كأنَّه قيل**: «فمَن جَعلوا شركاءَ لله تعالى»؟ **فقيل**: «الجِنّ». **وعلى هذا التَّقدير**، يكون الإنكار واقعاً على **مُطلق الشّركاء**، وأنَّ **اتخاذ الشّريك** مِن غير الجنِّ داخلٌ دخول **اتِّخاذِه مِن الجِنِّ**؛ لأَنَّ **الصِّفةَ** إذا ذُكِرت **مُجَرَّدةً** غيرَ مُجْراةٍ على شيءٍ،[1] كان **النَّفْيِ الذي تَعَلَّقَ** بها **عامّاً** في كلِّ ما يجوزُ أنْ تكونَ له تلك الصِّفةُ. فإذا قلتَ: «**ما في الدار كريمٌ**»، **نفَيْتَ الكينونَةَ** في الدِّارِ عنْ كلِّ مَنْ يكون الكرَمُ صفةً له. وحكْمُ الإنكارِ حكْمُ النَّفي.

أمَّا إذا أُخِّرَ «شُرَكاء»، **فقيل**: «وجعَلوا الجِنَّ شُرَكاءَ الله»، كان «**الجِنّ**» **مفعولاً** أوَّلَ، و«**الشّرَكاء**» **مفعولاً ثانياً**. وإذا كان كذلك، كان «الشّركاء» **مخصُوصاً غيرَ مُطْلَقٍ**؛ لأنَّه محالٌ **اجراؤه خبراً** عن **الجنِّ ثُمَّ يكون عامّاً** فيهم وفي غيرهم.

وبهذا يتبيَّن **عِظَم شأنِ النَّظم**، وكيف **يكون الإيجازُ به، والزِّيادة في المعنى** دون أنْ **يُزاد في اللّفظ**، إذ الأمرُ ليس إلَّا **تقديمٌ وتأخيرٌ حصَل به مِن زيادةِ المعنى**، ما إنْ حاولتَه **مع تَرْكه** لم يحصل لك، واحتجْت إلى أنْ **تَسْتَأْنِف** له **كلاماً**، نحو أنْ تقول: «وجعلوا الجنَّ شُركاءَ الله، **وما يَنْبغي** أنْ يكونَ للهِ شريكٌ، لا مِن الجنِّ ولا مِن غَيْرهم». ثُمَّ لا يكون له - إذا عُقِلَ مِن كلامَيْن - مِن الشَّرَف والفخامة **ما تَجِدُه له** وقد عُقِلَ مِن هذا **الكلام الواحد**.[2]

---

(١) «غيرَ مُجْراةٍ»: غير مضافةٍ. فـ «شُرَكاءَ الْجِنَّ»، شُرَكاء: جميع شريكٍ، على وزن «فعيل» صفةٌ مشبهةٌ؛ ولكونها غير مُقيّدةٍ **أفادت العموم**. بخلاف: «جعلوا الجِنَّ شُركاءَ الله»، **فلا تفيد العموم لإضافتها**.

(٢) **دلائل الإعجاز** (ص٢٨٥-٢٨٨).

خلاصة هذا المبحث

يَحْسُن إجمال سمات ومعايير النَّظم والتَّأليف،[1] وتحققها في القرآن الكريم؛ **لتقريب الصّورة** وتجليتها في الأذهان، **وتسهيل دركها** على الأفهام، بعيداً عن الشَّرح والتّفصيل.

أولاً، فصاحة الكلام.

قِوام الكلام: لفظٌ حاملٌ، ومعنى به قائمٌ، ورباطٌ لهما ناظمٌ. **وأحسنه** ما كان سهلَ مخارجِ الحروف، مسبوكَ الألفاظِ. ولا تُوصف الألفاظ المجرّدة **بالفصاحة**، فالفضيلة تكون في ملاءمة معنى اللَّفظة لمعنى التي تليها، وكونها أكثر ملاءمةً وإفادةً للمعنى في سياقه. **باستثناء الغريبة الوحشية**، وما **يكدّ** اللّسان. **ودليلُ ذلك**، أنَّ **اللّفظ الواحد** يقع مَقبولاً، ومكروهاً، **تبعاً لمدى ملاءمته لِما يُجاورُه. والفصاحة** شرطٌ لبلاغة النَّظم، يمكن عدّها **وصفاً للألفاظ**، والبلاغةُ **وصفاً للنَّظم**. أو **اسماً مُشتركاً**، يُراد بها تارةً **صفة اللَّفظ**، وأُخرى **صفةَ النَّظمِ** البليغ.[2] **والتَّلاؤمُ اللّفظيّ**، أحد معانيها، وهو **حُسنُ الكلام في السَّمع**، وسهولته في **اللّفظ**، ووقعُ **المعنى في النَّفس**.

ثانياً، نظم الكلام وتأليفه.

نظْمُ الحروفِ: **تَواليها في النّطق** دون **أنْ يقتضي نظمُها معنىً. ونظمُ الكَلِم**: **اقتفاءُ آثار** المعاني في تأليفها وترتيبُها على حسبِ **ترَتّب المعاني في النَّفس. ويقوم النّظم على** توخّي معاني النّحو وأحكامه وفروقه ووُجوهه، والعملُ بقوانينه وأُصولِه، من غير زيغ عنها أو إخلال بها. **وأجوده**: ما كان **متلاحمَ**

---

(١) وهي مستخلصةٌ مِن كلام الجاحظ، والخطّابي، والباقلّاني، والجرجاني.

(٢) هذا توجيه أبي بكر الجُرجاني في التّفريق بين الفصاحة والبلاغة.

الأجزاء، سهل المخارج، آخذاً بعضه بأعناق بعضٍ. والنَّظم **يكون للمعاني، وفيها يحدث، وليس للألفاظ**؛ لأنَّها تأتي على حَذْوِها. **وأصل الفائدة** ومناطها **في الإسناد**، وهو نسبة أمرٍ إلى أمرٍ بالإثبات أو النَّفي.

وتترتّب الألفاظ **بتَرَتّب المعاني في النَّفس** أوَّلاً، بحكم أنَّها خدمٌ لها، ولاحقةٌ بها، ثُمَّ تتبعها الألفاظُ مُرتبةً وفقها؛ لذلك أنْ يُنظرَ إلى الكلمة قبل دخلوها في التَّأليف، وقبل أنْ تصير إلى **الصّورة** التي بها **تؤدي في الجملة معنىً** مِن المعاني التي لا سبيل إلى إفادتها إلّا بضمِّ كلمة إلى كلمة، وبناء لفظةٍ على لفظةٍ.

و**عمود البلاغة**: اختيارُ اللّفظِ **الأخصّ** في **تأدية المعنى**، والأكشف عنه، ووضعه موضعه الأخصّ به، الَّذي إذا **أُبدِلَ مكانَه** غيرُه، **حصل منه**: **تبَدّل المعنى**، أو **ذهاب الرَّونق** الذي يكون معه سقوط البلاغة؛ لأنَّ الألفاظ **المتقاربة** في المعنى ليست **متساويةً** في بيان **مراد الخِطاب**؛ فلكلّ **لفظة خاصيّة** تتميَّز بها عن صاحبتها في بعض معانيها وإنْ اشتركتا **في بعضها**.

والغرض مِن نظم الكَلِم **تناسقُ دلالتها، وتلاقي مَعانيها**، على الوجهِ الذي يقتضيه **العقل**. ما يعني أنَّ **نظم الكلام وتأليفه، لا بُدَّ** له **مِن الحِذق وإعمال الفكر؛ لأنَّه عند تَغَيّر النَّظْم** لابُدّ مِن **تَغيّر المعنى**. **ويحصل الوصول** إلى **الغرض**:

إمَّا بدلالة اللّفظ وحده، كـ خرج زيدٌ، إذا قصدت أنْ تُخبر عن خروجه. أو **بدلالةٍ إضافيةٍ** يقتضيها موضوعه في اللّغة، ومدار ذلك على «الكناية والاستعارة والتَّمثيل»، وهو ما يُسمّى: **معنى المعنى**، كـ "كثير الرّماد".

وإذا كانَ النَّظم يقوم على **توخّي معاني النَّحو** وأحكامِه، فينبغي على النَّاظم أنْ ينظرَ في **وُجوهِ كلِّ بابٍ وفُروقهِ**؛ لأنَّ **ثمَّة فرقٌ** بين الإخبار بالاسم أو بالفعل... **ولأنَّ المزيّة** في النَّظم، لا ترجع إلى مجرَّد **العلم بالفروق**، بل تجب **للعلم بمواضِعها**، وما ينبغي **أنْ يُصنعَ فيها**. كما لا تجب لعبارة حتّى يكون لمعناها تأثيرٌ لا يكونُ لصاحبتها.

ثالثاً، بلاغة الكَلِم.

أبلغ الكلام: ما صحت مبانيه، وبانت معانيه. **ومداره** تخيّر الألفاظ، وحُسنُ تأليفها، **وتلاقي معانيها**. **والبلاغة** لا تظهر في **الحروف المنظومة والألفاظ** المجرّدة، بل **في النَّظم والتَّأليف**، وهو وراء كلّ كلامٍ بليغٍ،

وقِوام **النَّظم**: **تعليقُ الكَلِم بعضها ببعض**، وجعلُ بعضها بسببٍ مِن بعض. وليس الشَّأن فيها استحسان المعاني، بل **تخيّر اللّفظ وجَوْدة السّبك**؛ لأنَّ **النَّظم صناعةٌ** وضربٌ مِن النّسج والتّصوير. وبلاغته **أثرٌ لازمٌ** لسلامة **تأليفِ الألفاظ** وحُسن انسجامها. وتكمن **براعته** في إفادته لدقيق المعاني وخفيّ الصِّفات.

رابعاً، فصاحة ألفاظ القرآن وبلاغة نظمه.

تتصف كلمات القرآن الكريم بخروجها عن الوحشي المُسْتكره، والغريب المُسْتنكر، وعن الصّنعة المُتكلَّفة، مع حُسن سّبك ألفاظه، وسهولة مخارج حروفه، وقربه مِن الأفهام.

وكلماته متلاقيةٌ، غيرُ شاردةٍ، فلو **نُزعت كلمة** منه، أو أزيلت عن وجهها، ثُمَّ **أدير لسانُ العرب** كلّه على أحسن منها في تأليفها وموقعها وسدادها، لم يتهيأ ذلك، ولا **اتسعت له اللّغة** بكلمةٍ واحدةٍ.

ومعانيه **متأخيةٌ غيرُ متنافرةٍ**، تجد معنى كلّ لفظٍ **يمهد لمعنى اللّفظ الآخر**. وهذا **متحقّقٌ** في **الآية** الواحدة، وفي **عموم الآيات** بعضها مع بعضٍ، وفي **كامل السّورة**.

وقِوام الكلام، تجده في القرآن **الكريم على أتمّه**، فلا أفصح ولا أعذب مِن **ألفاظه**. ولا أحسن تأليفاً وأشدّ تلاؤماً **مِن نظمه**. **ومعانيه** تشهد لها العقول بالسّموِّ إلى أعلى درجات الفضل مِن نعوتها وصفاتها.

وصار القرآن الكريم معجزاً؛ لأنَّه جاء **بأفصح الالفاظ**، في **أحسن نظوم التَّأليف، مُضمّنا أصح المعاني**. **والإتيان بمثل هذه الأمور**، والجمع بين أشتاتها حتّى تنتظم وتتسق، أمرٌ **تعجز عنه قوى البشر**، ولا تبلغه قُدَرُهم؛ لأنَّها نتائج العقول، وولائد الأفهام.

وهذه **الفضائل** قد توجد على **التّفرق** في أنواع الكلام، لكنّها لا توجد مجموعةً في **نوع واحدٍ** منه إلَّا في كلام العليم القدير.

المبحثُ الثَّالث

وجوُه نظم القرآن الكريم المعجزة

مِن أبيَن وجوه إعجاز القرآن الكريم، **بلاغة نظمه وتأليفه** على وصفٍ لا يهتدي الخلق إلى مثله، لا يَأْتيهِ الباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ ولا مِنْ خَلْفِهِ؛ تَنْزيلٌ مِنْ حَكيمٍ حَميدٍ، **تحدَّى** أنْ يُؤتى بمثله: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء:٨٨]، ولَمَّا **سمعته الْجِنّ** لم يتمالكوا حتّى قالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ﴾ [الجّن:١-٢]، لا يخْلقُ على طُول الرَّدِّ، ولا تنقضي عجائبُه.(١) ولا حدَّ لبديع تأليفه، ولا نهاية لوجوه إعجازه، **مِن ذلك**:

أوَّلاً، حُسْنُ تأليفِه والتِئامُ كَلمِه، وبلاغته الخارقة **عادة العرب**، مع أنَّهم **خُصّوا** مِن البلاغة والحِكَمِ **بما لَمْ يُخَصَّ به** غيرُهم، وأُوتوا مِن ذرابةِ اللّسان ما يُحيّر الألبابَ، **بهَرَتْ عقولَهم بلاغَتُهُ**، وظهرتْ على **كُلِّ مَقُولٍ فصاحتُهُ**...(٢) **مِن ذلك**، لمَّا سَمِع **الوَليدُ بن المُغيرَةِ** مِن النَّبيِّ ﷺ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النّحل:٩٠]، لم **يتمالك** نفسه حتّى قال: والله إنَّ لَهُ لَحَلاوَةً، وإنَّ عليهِ لَطَلاوَةً، وإنَّ أسْفَلَهُ لَمُغْدِقٌ، وإنَّ أعْلاهُ لَمُثْمِرٌ، ما يَقولُ هذا بَشَرٌ.

وحُكِيَ أنَّ **عُمَرَ بنَ الخطابِ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان يوْماً نائماً في المسجدِ، فإذا هو برجلٍ قائمٍ على رأسه يتشهَّدُ شهادة الحقّ، فاسْتخْبَرَه، فأعلمَه أنَّه **مِن بطارقةِ**

---

(١) **يُنظر: إعجاز القرآن**، للباقلّانيّ (ص١٨٣وما بعدها).

(٢) **الشِّفا بتعريف حقوق المصطفى** (١/ ٢٥٨).

الرُّوم، مِمَّنْ يُحْسِن كلام العربِ، وأنَّه سَمِعَ **رجُلاً مِن أسْرَى** المُسْلمينَ **يقرأُ آيةً**، قال: **فتأَمَّلتُها**، فإذا قد **جمع** فيها ما **أنزل** الله على **عيسى ابن مَرْيَمَ** عليه السلام من أحوال الدُّنْيا والآخرة، وهي قولُهُ: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ﴾ [النور:٥٢] الآية.(١)

ثانياً، خروجُ نظمه عن الوحشيّ المُسْتكْره، والغريبِ المُستنْكر، والصَّنعة المُتكلَّفة. مع قُربه إلى **الأفهام**: يبادرُ معناه لفظَه، ويسابقُ المغزى منه عبارتَه، وهو مع ذلك ممتنعُ المطلب، عسيرُ المتناولِ، **غير مُوهِمٍ** - مع دنوِّه في موقعِه - **أنْ يُقْدرَ عليه**، أو يُظْفرَ به. بخلاف **كلام فصحائِهم وشعر بلغائِهم، فلا ينفكّ مِن تصرّفٍ في غريبٍ مسْتنكرٍ**، أو وحشيٍّ مُسْتكْرَهٍ، ومعانٍ مُسْتبعدةٍ، أو كلامٍ مُبْتذَلٍ.

مِن ذلك، تجد كلماتٍ لها **معنى حسناً وآخر قبيحاً**، لكنَّها في النَّظم القرآني لا تكون مَعيبةً؛ **للقرينة المُصاحبة**، كما في قوله جل جلاله: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف:١٥٧]، فلفظة «**التّعزيز**» مشتركةٌ، تطلق على **التَّعظيم والإكرام**، وعلى **الضَّرب** الذي هو دون الحدِّ، وذلك نوعٌ مِن الهوان، وهما **معنيان ضِدَّان**. وقد وردت في الآية **ومعها قرائنُ** مِن قَبلها وبعدها، **خصّصت معناها بالحُسْن**، وميَّزته عن القبيح. ولو أنَّها **وردت مهملةً بغير قرينةٍ**، وأُريد بها المعنى الحَسن **لَسَبَق إلى الوهم** ما اشتملت عليه مِن المعنى القبيح. كما لو قال قائلٌ: لقيت فلاناً فعزّرته، لسبق إلى الفهم أنَّه ضربه وأهانه، ولو قال: لقيت فلاناً فأكرمته وعزّرته، لزال ذلك اللّبس.(٢)

---

(١) **الشِّفا** مع حاشية الشّمُني (١/ ٢٦٢-٢٦٣). **تفسير السَّمعاني** (ت ٤٨٩ هـ) (٤/ ١٢٣).

(٢) **المثل السَّائر في أدب الكاتب والشَّاعر** (١/ ٢٠٢).

ثالثاً، عدمُ تفاوتِ نظمِه أو **تباينِ تأليفِه، على ما يتصرَّف إليه مِن الوجوهِ** التي يشتملُ عليها: مِن ذِكر المواعظ والحِجاج، والحِكَم والأحكام، والإعذار والإنذار... وما يتصرّفُ إليه مِن وجوه الخطابِ، **وما يُعادُ ذكرُه** مِن القصةِ الواحدةِ، مِن غير قصورٍ أو خللٍ، **أو** انحطاطٍ عن **المنزلةِ العُليا**، أو إسفافٍ إلى **الرّتبة الدّنيا. بخلافِ العربِ**، تُنْسبُ إلى **حكيمهم كلماتٌ معدودةٌ**، وألفاظٌ قليلةٌ، وإلى شِاعرهم **قصائدُ محصورةٌ**، يقعَ فيها اختلالٌ، ويعترضُها اختلافٌ، ويكتنفُها **التَّجوّزُ**. كما أخبر الله ﷻ أنَّ كلام الآدمي إنْ **امتدَّ وقعَ فيه التَّفاوتُ**، وبان عليه الاختلالُ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء:٨٢]. فمِن الشُّعراء مَن **يجود في المدح** دونَ الهجوِ، أو يسبقُ في **التَّقريظِ** دونَ **التَّأبينِ**... ومِن النَّاس مِن يجودُ في **الكلام المُرسلِ**، فإذا أتى **بالموزون** قصَّر ونقصَ نُقْصاناً بيِّناً. والمُتأمل في كلام الشَّاعر البليغ لا يجده على **سويةٍ واحدةٍ**، فقد يأتي بما **حَسُنَ لفظُه وجادَ معناه**، أو بما فسدَ، أو قَصُرَ لفظه، أو يأتي بالغاية في البراعة في معنىً، فإذا **جاء إلى غيره وقف دونه. ولهذا قيل**: أشعرُ النَّاسِ: امْرُؤُ الْقَيْس إذا رَكِب، وزُهَيْرٌ إذا رَغِب، والنَّابغةُ إذا رَهِبَ، وعنترةُ إذا كَلِبَ -غَضِبَ- والأعشى إذا طَرِبَ.(١)

وبالمقابل تجد القرآن- حتّى في المسائل التي يتعذر عرضها **بالأساليب البلاغيّة** المعهودة، **كالأحكام** والحدود والفرائض؛ لِمَا تحتاجه مِن إحكامٍ ودقةٍ- يأتي **نظمه وتأليفه** في غاية **الإحكام والاتساق**، كما في الآيات التي

---

(١) يُنظر: **الشِّعر والشُّعراء** (١/ ٦٥). **الصِّناعتين: الكتابة والشِّعر** (ص٢٣). **إعجاز القرآن** (ص٣٧) أيْ إنَّ أجود شعر امرئ القيس كان في وصف الخيل والصَّيد، وزهير في المدح، والنَّابغة في الاعتذار، والأعشى في وصف الخمر. **أشعار الشّعراء السّتة الجاهليين** يوسف بن سليمان الشنتمري الأندلسي، المعروف بالأعلم (ت٤٧٦هـ) (ص٤٥).

تتحدّث **عن الطَّلاق** -الذي قد يُصبح **أمراً لازماً**- يأتي بين تضاعيفها **ما يُخفف مِن أثر الصَّدمة**، خاصَّة على **الزّوجة**؛ لأنَّها الأضعف: ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ﴾ [النساء:١٣٠]. وقد **بيّنت** الآيات - في قوله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ إلى قوله: ﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [الطلاق:١-٧] - ما يتعلق بأحكام الطَّلاق والعدّة، وبعض أحكام الرّضاعة، والنّفقة.

ولِمَا يتركه الطّلاق من آثارٍ **نفسيةٍ واجتماعيةٍ**، أشارت الآيات إليها **بألطف تعبيرٍ، ترويحاً عن نفسٍ** مجروحةٍ أرَّقتها حُرقة ألم الفِراق؛ حيث تكون الخَيبة مُخيمةً، والعلاقات هَشةً؛ وذلك بفتح **باب الأملِ للنّفوس** التي **اعتراها يأسٌ** مِن حياةٍ زوجيّةٍ سويّةٍ، إذ يقول ﷻ - بعد وضع الحدود، وأنَّ تعدّيها ظلمٌ-: ﴿لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾ [الطلاق:١] فقد يكون **الطّلاق مخرجاً** مِن تلك الحال التي **تعترك** فيه **الأحاسيس والمشاعر** بين **عِشْرةٍ طيبةٍ**، أو **فُرقةٍ** لا ظُلم فيها: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق:٢]. وأيّها **وقع**، فهو **مقدّرٌ**: ﴿قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق:٣].

وبعد ذكر العِدّة - وهي فيصلُ **تفرقةٍ أو عودةٍ**، ومطلوبٌ أثنائها: **إمساكٌ بمعروفٍ أو تسريحٌ بإحسانٍ** - يقول **للنّفوسِ الحزينة** التي عايشت الحاضر والماضي، **وتجهل القابل**، وما **يطويه**: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾.

وبعد ذكر النّفقة وأحوالها، والإرضاع **ومقدار الواجب** فيه، كان **الختام** بذكر **ما تطيب به نفس** المُعسِر: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾ **والوعد** بعد **ضيق العيش** سَعةً فيه: ﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾. وهكذا جاءت الآيات:

تبعثُ الأمل في النّفوس، وتدعو إلى الرّضا **بقضاء الله** وقدره، إذ تَعِدُّ مِن يتَّقِ الله ﷻ أنْ يجعل له مِن أمره يُسراً.

وتُرشدُ إلى أنَّ هذا **النَّوع** مِن **الخطاب**، هو ما ينبغي أنْ يُقال عند **تأزّم النَّفوس وتقطُّع الصِّلات**، بعد **وُدٍّ كان قائماً**، أو كان **يُرجى** له **الاستمرار**. وكذا مَن رأى **أسرةً** استولى عليها اليأس مِن **صلاح** حياتها الزّوجية، أو **ذهب رخاؤها**، بأنْ **يفتح باب الرَّجاء** فيها، بعد إغلاق باب الأمل.

وتحملُ معاني نبيلةً؛ فقد خُوطب المسلمون -**بعد النَّبيِّ** ﷺ - **بالجمع**؛ إشارةً إلى **تكافلهم وتعاونهم** في المواطن الحَرجة، **والرِّفق بالمرأة المُطلّقة**، بأنْ لا تُرهق **بإطالة عدّتها**، فتكون -بين اليأس والرَّجاء- **في قلقٍ نفسيٍ**.[1]

وإذا كان **سرد الأحكام**، يأتي في كلام النَّاس **جافاً**؛ فإنَّه في القرآن يأتي مُشرقاً يبعث **بوارق الأمل** في النّفوس، مع العظة، والتّوجيه إلى **العدل المُطلقِ** المُنظِّم للأُسرة في سلامتها وبقائها، وفي فصلها وانتهائها.[2]

رابعاً، عدمُ تفاوتِ كلامهِ في الفصلِ والوصلِ، فمع اختلافِ فنونِه وما يتصرّفُ فيه مِن الوجوهِ والطّرقِ المختلفةِ، يجعلُ **المختلفَ كالمؤتلفِ، والمتباينَ كالمتناسبِ**. وهذا **أمرٌ تبينُ به الفصاحةُ** وتظهرُ البلاغةُ، ويخرجُ معه الكلام عن حدِّ العادة، ويتجاوزُ العرف. **مِن ذلك**، قوله ﷻ: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ

---

(١) في قوله: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ أمر الله تعالى الزَّوْجَ بِتَطْليقِ امْرَأَتِه إذا شاءَ الطَّلاقَ في طُهْرٍ لم يُجامِعْها فيه، كي لا تطول العدّة. **مفاتيح الغيب** (٣٠/ ٥٥٩).

(٢) يُنظر: **المعجزة الكبرى القرآن** (ص١٧٤).

كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [القصص:٤] فهذه الآيةُ مؤلفةٌ مِن **ستِ كلماتٍ**،[١] تشتملُ على **جُمْلةٍ وتفصيلٍ**:

فبعد أنْ **أجمل** القول بذكرِ **العُلُوِّ** في الأرض، **فصَّل** فيه بذكر **ما نتج عنه** مِن **استضعافٍ** انتهى **بذبحِ** الوِلْدان **وسَبْيِ** النِّساء، وإذا **تحكَّم** في هذين الأمرين **فتحكُّمه** بما **دونهما** أيسر.

ثُمَّ أتى بالفاصلة: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ التي **أوغلتْ في التَّأكيدِ**،[٢] وكفَتْ في **التَّظليم**،[٣] وردَّتْ آخرَ الكلامِ على أوله، وعطفتْ **عَجُزَه على صدرِه**.

ثُمَّ ذكرَ **وعدَه تخْليصَهم**، وما **أعدّه لهم**، بقوله: ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾ [القصص:٥]. وهذا مِن **التَّأليف بين المُؤتلفِ**، و**الجمع بين المسْتَأنسِ**.[٤]

خامساً، الإيجاز وجزالة المعاني، مِن وجوه إعجازه كثرة معانيه التي لا يجمعها كلام البشر، وذلك مِن وجهين:

الأوَّل، ما يجمعه قليل الكلام مِن كثير المعاني. كقوله ﷻ: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ

---

(١) هي: علو فرعون في الأرض. جعل أهلها شيعاً. استضعاف طائفةٍ. ذبح الأبناء. استحياء النّساء. الحكم بفساده.

(٢) الإيغال: ختمُ الكَلام بما يُفيد نُكْتَةً **يتمّ المَعْنى دُونَها، زيادةً في المبالغة**. ستأتي أمثلة عليه. يُنظر: **الإيضاح في علوم البلاغة** (٣/ ٢٠٢).

(٣) التَّظليم: ظلَّمه: إذا نسبه إلى الظّلم. **شمس العلوم** نشوان بن سعيد الحميري (٧/ ٤٢٤٩).

(٤) **إعجاز القرآن**، للباقلّانيّ (ص١٩٤).

مُوسَىٰٓ أَنۡ أَرۡضِعِيهِۖ فَإِذَا خِفۡتِ عَلَيۡهِ فَأَلۡقِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحۡزَنِيٓۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيۡكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴾ [القصص:٧] حَكى **الأَصْمَعِيُّ** (ت٢١٦هـ) أنَّه سمِع كلام **جارِيةٍ**، فقال لها: **قاتَلكِ الله ما أَفْصَحَكِ!** فقالت: أوَ **بعدّ** قول الله ﷻ - وتلت الآية - فصاحةٌ. جمَع في آية واحِدةٍ بين: **أمريْن ونهيين وخبرين وبِشارتينِ**. أمَّا **الأمران**: ﴿أَنۡ أَرۡضِعِيهِ﴾، و﴿فَأَلۡقِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ﴾، وأمّا **النّهيان**: ﴿وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحۡزَنِيٓ﴾، وأمَّا **الخبران**: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ﴾ و﴿فَإِذَا خِفۡتِ عَلَيۡهِ﴾ وأمَّا **البشارتان**: ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيۡكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾.(١)

والثَّاني، أنَّ **ألفاظه تحتمل معاني متغايرةً**، تحَار فيها العقول، وتذهل فيها الخواطر، وتكلّ فيها القرائح، ثُم لا تبلغ أقصاه، ولا تدرك منتهاه، حتّى اختلفت فيه الوجوه وتقابلت فيه النَّظائر.(٢)

سادساً، مَجيء معانيه في الحِجاجِ ودلائل التَّوحيد، وقواعد الدِّين، وأحكام الشَّرع، على نحوٍ - مِن **موافقة الألفاظ** بعضها بعضاً في اللّطف والبَراعة - **يتعذّرُ على البشر ويمتنعُ**؛ لأنَّ **تخيُّرَ** الألفاظِ **للمعاني المتداولةِ، والأسبابِ الدّائرةِ** بين النَّاسِ، أسهلُ وأقربُ مِن **تَخيّر الألفاظ لمعانٍ مُبتكرةٍ**، وأسبابٍ مستحدَثةٍ، فإذا **برع اللّفظ** في المعنى **البارع**، كان **ألطفَ وأعجبَ** مِن أنْ يُوجدَ **اللّفظُ البارعُ** في المعنى **المُتداول**. **مِن ذلك**:

اختلاف الصّيغة لاختلاف الدّلالة، تبعاً للمعنى المراد بيانه، كما في **التَّعبير** عن المعجزة في **إنجاء نوح** عليه السلام وأصحاب السَّفينة، **بالإفراد**: ﴿وَجَعَلۡنَٰهَآ

(١) الشِّفا مع حاشية الشّمُني (١/ ٢٦٢-٢٦٣). تفسير السَّمعاني (ت٤٨٩هـ) (٤/ ١٢٣).

(٢) أعلام النّبوة للماوردي (ص٧٨).

ءَايَةً ﴾[1] **والتَّعبير** عن المعجزة في **إنجاء إبراهيم** عليه السلام، **بالجمع**: ﴿لَّآيَٰتٍ﴾.[2] قال «**آيَةً**» بالإفراد؛ لأنَّ **الإنجاء** بالسَّفينة شيءٌ **تتسع له العقول**، فلم يكن فيه مِن الآية إلَّا **بسبب إعلام الله** ﷻ **إيَّاه بالاتخاذ** وقتَ الحاجة، فإنَّه **لولاه لَمَا اتخذه**؛ لعدم حصول علمه بما في الغيب، **وبسبب أنَّ الله** ﷻ **صان السَّفينة** عن المُهلكات، كالرِّياح العاصفة. وقال «**آيات**» بالجمع؛ لأنَّ **الإنجاء مِن النَّار أمرٌ عجيبٌ**.

وقال في **الأولى**: ﴿ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾؛ لأنَّ السَّفينة **بقيت أعواماً** حتّى مرَّ عليها النَّاس، ورَأوْها، **فحصل العلم** بها لكلِّ أحدٍ. وفي **الثَّانية**: ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾، خصَّ «الآيات» **بالمؤمنين**؛ لأنَّ تبريد النَّار **لم يبق، ولم يظهر** لمَن يعده إلَّا **بطريق الإيمان به والتَّصديق**.

وجاء في **الأولى**: ﴿وَجَعَلْنَٰهَآ﴾؛ لأنَّ السّفينة **ما صارت آيةً في نفسها**، ولولا خلقُ الله ﷻ **الطّوفان** لبقيَ **فعلُ نوح** عليه السلام **سَفَهاً**، فالله ﷻ جعل السّفينة **بعد وجودها** آيةً. **وفي الثَّانية**: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ﴾؛ لأنَّ تبريد النَّار **في نفسه آيةٌ**، إذا وجدت **لا تحتاج إلى أمرٍ آخر**، كخلق الطّوفان حتّى يصير آيةً.[3]

وممَّا لا عهد للعرب في معرفة عوائده، ما دلّ عليه قوله ﷻ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [الأنبياء:٣٣]، فكلمة: «**يَسْبَحونَ**»

---

(١) ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [العنكبوت:١٥].

(٢) ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت:٢٤].

(٣) **مفاتيح الغيب** (٢٥/ ٤٥ -٤٦).

أفادت معاني كثيرةً، فالله ﷻ خلق اللَّيل والنَّهار، **نعمةً منه، ودليلاً** على عظمة سلطانه، بواسطة **دوران الأرض** حول نفسها، لتتحقق الفائدة المرجوة مِنهما، **بالظَّلام والسّكون، والضّياء والأُنس**، والتّفاوت أو التَّساوي في الطُّول والقِصر، على مدار السّنة. وخلق أيضاً **الشّمس والقمر للإضاءة** وإمداد الأحياء **بحرارة الشَّمس**، وإفادة بعض **المزروعات** والثّمار بضوء القمر. وكلٌّ مِن الشّمس والقمر والنّجوم والأرض **يدور في فلكه**، دوران المغزل في الفلكة، فلا يدور المغزل إلَّا بالفلكة، ولا الفلكة إلَّا بالمغزل، كذلك الشَّمس والقمر والنّجوم لا تدور إلّا به، ولا يدور إلَّا بهنَّ، كما قال جلَّ جلالُه.(١)

سابعاً، مجيءُ نظمه على أحسن وجوه التَّخلّص والانتقال بين موضوعاته، ترى **البُلغاء**، وإنْ أجادوا في ذكر الأغراض، كان منهم الخطأ **والإساءة في نظمها، كُلّاً** أو جُلّاً، «**فالشّعراء**» حينما يجيئون بمعانٍ عِدّة، أكثر ما **يجيئون بها أشتاتاً** لا يلوي بعضها على بعضٍ، وقليلاً **ما يهتدون إلى حُسن التَّخلُص** مِن غرضٍ إلى آخر، كما في الانتقال مِن النَّسيب إلى المدح... «**والكُتَّاب**» رُبَّما **استعانوا** على سدِّ تلك الثَّغرات باستعمال **أدوت التَّنبيه**، أو **الحديث عن النَّفس**؛ كقولهم: ألا وإنَّ - هذا ولكنَّ - بقي علينا - نعود - قُلنا... هذا شأن الأغراض المختلفة إذا تناولها الكلام الواحد في المجلس الواحد. فكيف لو جِيء بها في **ظروف مختلفةٍ وأزمانٍ متطاولةٍ**؟ ألَّا تكون الصّلةُ فيها أشدَّ انقطاعاً، والهوةُ بينها أعظمَ اتساعاً؟.(٢)

وهذا الفن لا يجيء **على أتمَّه وأبيَنه**، إلَّا في كتاب الله العزيز. وهو ما يُعرف **بحُسن التّخلّص**، أو الخُلُوص. **ومعناه**: الانتقال ممَّا **ابتُدئ الكلام به** إلى

---

(١) **التّفسير المنير**، د. وهبة الزّحيلي رحمه الله تعالى (١٧/ ٤٧) و«فَلَكَةُ الْمِغْزَلِ": قِطْعَةٌ مُسْتَديرَةٌ تُجْعَلُ في أَعْلاَهُ. يُنظر: **تفسير ابن كثير** (٥/ ٣٤١).

(٢) **النبأ العظيم** (ص١٧٧).

المَقْصُود،[1] أو **مِن غرضٍ** أو **موضوعٍ** إلى **آخر**، على وجهٍ سهلٍ، **يختلسه اختلاساً دقِيق المعنى**، بحيثُ **لا يشعر السَّامع بالانتقال** مِن الأوَّل إلَّا وقد وقع في الثَّاني، لشدّة **الالتئام والانسجام** بينهما، حتّى كأنَّهما **أُفرغا في قالبٍ واحدٍ**.[2] والفرق بين التَّخلص والاستطراد، أنَّ **الاستطراد** يُشترط فيه **الرّجوع إلى الكلام الأوَّل**، أو **قطع** الكلام، فيكون المُسْتطْرَد به آخر كلامه، والأمران معدومان في التَّخلص، فإنَّه **لا يرجع** إلى **الأوَّل** ولا يقطع الكلام، بل يستمر على ما يتخلَّص إليه.[3] وفي القُرآن الكريم مِن **التَّخلّصات العجيبة ما يُحيِّر العقول**، ويسْحرُ الألباب، **مِن ذلك**:

ما جاء في **سورة الشّعراء**، قوله تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ﴾ [الشعراء:٦٩-٧٣]، إلى قوله: ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء:١٠٢]؛ حيث **رتَّب** إبراهيم عليه السلام كلامه مع المشركين **حين سألهم**:

أوَّلاً، عمَّا يعبدون، سُؤال **مُقرِّرٍ** لا سؤال **مُستفْهِمٍ**، **ثُمَّ أنْحى** على **آلهتهم**؛

---

(١) وهو التَّخلّص مِن المقدمة بأسلوب حَسَنٍ بديع للدخول في الموضوع المقصود بالذّات. **البلاغة العربية** (٢/ ٥٥٨).

(٢) **الإتقان** (٣/ ٣٧٣). ويُنظر: **خزانة الأدب وغاية الأرب لابن حجة الحموي** (١/ ٣٢٩).

(٣) **خزانة الأدب وغاية الأرب لابن حجة الحموي** (١/ ٣٢٩) وقيل: الفرق بين التَّخلّص والاستطراد، أنَّك في **التَّخلّص تركت ما كنت فيه بالكلّية**، **وأقبلت** على ما تخلَّصت إليه. وفي الاستطراد **تمرّ** بذكر الأمر الذي **استطردت إليه مروراً** ثُمَّ تتركه وتعود إلى ما كنت فيه كأنَّك لم تقصده، وإنَّما عرض عروضاً. قيل: وبهذا يظهر أنَّ ما في سورتي الأعراف والشَّعراء مِن باب الاستطراد. **الإتقان** (٣/ ٣٧٤).

فأبطل أمرها، بأنَّها لا تضرّ ولا تنْفع، ولا تُبْصر ولا تسمع. **وعلى تقليد آبائهم** الأقدمين، فكَسَره **وأخرجه** مِن أنْ يكون **شُبهةً**، فضلاً عن أنْ يكون **حُجَّةً**.

ثُمَّ **أراد الخروج** مِن ذلك إلى ذكر **الإله** - ﷻ - الذي لا تجب **العبادة** إلَّا له، ولا ينبغي الرّجوع والإنابة إلَّا إليه، **فصوَّر المسألة** في **نفسه دونهم**، بقوله: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ﴾ [الشعراء:٧٧] على معنى: **إنِّي فكرت في أمري**، فرأيت عبادتي لها **عبادةً للعدو** -الشَّيطان- فاجتنبتُها، وآثرت **عبادة مَن الخيرُ** كلّه في يده. **وأراهم** بذلك أنَّها **نصيحةٌ ينصح بها نفسَه**؛ لينْظُروا، فيقولوا: **ما نصحنا إلَّا بما نصح به نفسَه**، فيكون ذلك **أدعى لهم إلى قَبول قوله، والاستماع** منه، **ولو قال**: «**فإنِّهم عدوٌ لكم**»، لم يكن بتلك المَثابة. **فتخلَّص** - عند تصويره المسألة في نفسه - **إلى** ذكر الله ﷻ، فأجرى عليه تلك **الصِّفات العظام**: مِن تفخيم شأنه، وتعديد نعمه، من لَدُن خَلَقَه وأنشأه إلى حين وفاته، مع **ما يُرجّى في الآخرة** مِن رحمته؛ ليُعلم مِن ذلك أنَّ مَن هذه صفاتُه **حَقيقٌ بالعبادة**، واجبٌ **على الخلق الخضوع** له، والاستكانة لعظمته.

ثُمَّ خرج مِن ذلك إلى **ما يُلائمه ويُناسبه**، فدعا الله ﷻ بدعوات **المُخْلِصين، وابتهال الأوَّابين**؛ لأنَّ الطَّالب مِن مولاه إذا **قدَّم قبل سؤاله وتضرعه الاعتراف بالنِّعمة**، كان ذلك **أسرعَ للإجابة**، وأنجحَ لحصول الطُّلْبة.

ثُمَّ أدرج في ضمن دعائه **ذكر البعث ويوم القيامة، ومجازاة الله** تعالى مَن **آمن به واتقاه** بالجنّة، ومَن ضلّ **عن عبادته بالنَّار**، فجمع بين **التَّرغيب في طاعته، والتَّرهيب** مِن **معصيته**.

وثانياً، سألهم، - **عند معاينة الجزاء**- عمَّا كانوا يعبدون، سؤال **موبِّخٍ لهم**،

مُستهزئٍ بهم، وذكر ما هم عليه مِن النَّدم والحسرة على ما كانوا فيه مِن الضَّلال، وتمنِّي العودة؛ ليُؤمنوا.

والمتأمل في هذا الكلام يجده آخذاً بعضه برقاب بعضٍ، مع احتوائه على ضروبٍ مِن المعاني، فيَخْلُص مِن كلّ واحد منها إلى الآخر بلطيفةٍ ملائمةٍ، حتّى كأنّه أُفرغ في قالبٍ واحدٍ. فقد خرج مِن ذكر الأصنام، وتنفير أبيه وقومه مِن عبادتهم إيَّاها - مع ما هي فيها مِن التَّعرّي عن صفات الإلهيّة، فهي لا تضرّ ولا تنفع، ولا تُبصر ولا تسمع - إلى ذكر الله ﷻ، فوصفه بصفات الإلهية، فعظَّم شأنه، وعدَّد نعمه؛ ليُعْلم بذلك أنَّ العبادة لا تصحّ إلَّا له. ثُمَّ خرج مِن هذا إلى دعائه إيَّاه، وخضوعه له. ثُمَّ خرج منه إلى ذكر يوم القيامة، وثواب الله ﷻ وعقابه. فهذه تخلّصات لطيفةٌ مودعةٌ في أثناء هذا الكلام.(١)

ثامناً، وقوع نظمه موقعاً في البلاغة يخرج عن عادة كلام الْجِنِّ، فهم يعجزون عنه، ويقْصُرون دونه.(٢) وقد دلَّ قوله ﷻ: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ ﴾ الآية [الإسراء:٨٨] على أنَّ القرآن أعجز الجنَّ والإنس عن الإتيان بمثله؛ لأنَّه لَمَّا نصَّت الآية على عجز الثَّقلين، وكان الجنّ أقوى على الأشياء مِن الإنس؛ فقد دلّ عجزهم على أنَّه آيةٌ معجزةٌ. وكما دلّ -وهم الأقوى- على أنَّ غيرهم أعجز. ألَّا ترى أنَّه أنزل هذا القرآن على لسان العرب ثُمَّ عجزوا عن إتيان مثله؛ فدلَّ عجزهم عنه أنَّ العجم له أعجز.(٣)

---

(١) المثل السَّائر في أدب الكاتب والشَّاعر (٢/ ٢٥٢-٢٥٣).

(٢) إعجاز القرآن (ص٤٦).

(٣) تأويلات أهل السنة، الماتريدي (٤/ ٢٦٠).

وأدرج الجنُّ مع الإنس في **التَّعجيز** – مع أنَّها تفعل أفعالاً مُستغربةً، كما حكى الله ﷻ عنهم في قصة سليمان عليه السلام – **ليكون ذلك أبلغَ في العجز**.[1]

(١) **البحر المحيط في التفسير** (٧/ ١٠٨).

وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

الفصلُ الثّالث

خصائصُ أسلوبِ نظمِ القرآن الكريم وبيانه

المبحثُ الأوَّلُ: خصائصُ أسلوب نظمِ القرآن الكريم وتأليفه

المبحثُ الثَّاني: خصائصُ أسلوب القرآن الكريم البيانيَّة

وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

المبحث الأوَّل

خصائصُ أسلوب نظمِ القرآن الكريم وتأليفه

لنظم القرآن وتأليفه خصائصُ انفرد فيها، وسماتٌ امتاز بها، **مِن ذلك:**

أوَّلاً، خروجُ نظمه عن المعهود من أساليبِ كلام العرب، ومباينته للمألوف مِن ترتيب خطابهم.

لم يجد العرب لنظمه نظيراً، ولم يهْتدوا إلى مثله في جِنْسِ كلامِهِمْ مِن نَثْرٍ أوْ نَظْمٍ، يجري على نسقٍ بديعٍ خارجٍ عن المعروف والمألوف مِن نظام كلامهم، فلا قوافي الشِّعر تنطبق عليه، ولا سَنن أسجاع النَّثر.[1] وعلى هذا شهادةُ أهل اللّغة. **مِن ذلك:**

أنَّ **عُتْبةَ بنَ ربيعةَ**، بعد سماعه قراءة رسولِ اللهِ ﷺ آياتٍ مِن سورة فُصِّلت: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٞ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾... الآيات [فصلت:١-٣]. رجع إلى أصحابِه، فقالوا: **ما وراءَكَ يا أبا الوليدِ؟** فقال: ورائي أنِّي قدْ سمعْتُ قولاً واللهِ **ما سمعْتُ بمثْلِه قطُّ**، ما هو **بالشِّعْرِ ولا السِّحْرِ ولا الكهانةِ**، يا معشرَ قُرَيشٍ، خلُّوا ما بينَ هذا الرَّجُلِ وما هو فيه، واعتزِلوهُ، فَواللهِ ليكونَنَّ **لقولِهِ الَّذي سمعْتُ نبأٌ**، فإنْ **تُصِبْهُ العربُ** فقدْ كُفِيْتُموهُ بغيرِكُمْ، وإنْ يظهرْ **فمُلْكُهُ مُلْكُكم**، وعِزّهُ عِزُّكم. فقالوا: **سحرَكَ واللهِ يا أبا الوليدِ بلسانِه**، قال: هذا رَأيِي لكُم، فاصنعوا ما بدا لكم.[2]

---

(١) يُنظر: **إعجاز القرآن**، للباقلَّاني (**ص ٣٥**). **أعلام النّبوة**، للماوردي (ص٧٦).

(٢) **سيرة ابن هشام** (١/ ٢٩٣-٢٩٤) **الاعتقاد**، للبيهقيّ (ص٢٦٧-٢٦٨) **دلائل الإعجاز** (ص٥٨٣-٥٨٤).

وهذا **أُنَيسٌ**، قال لأخيه **أبي ذرٍّ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: لقيْتُ رَجُلاً بمكَّةَ على دينِكَ يزعمُ أنَّ اللهَ أرسلَهُ، قُلْتُ: فما يقولُ النَّاسُ؟ قالَ: يقولونَ شاعرٌ، كاهنٌ، ساحرٌ. وكانَ أُنَيسٌ **أحدَ الشُّعراءِ**، فقالَ: لقدْ **سمعْتُ قول الكهنة**، فما هو بقولِهم، ولقدْ وضعْتُ قولَهُ على **أقراءِ الشِّعْرِ**، فما يلتئمُ على لسانِ أحدٍ بعدي أنَّه شعرٌ، **واللهِ إنَّهُ لصادقٌ، وإنَّهم لكاذبونَ**.(١)

ثانياً، سلامة نهجه مِن الاختلال والاختلاف.

بلغ القرآن الكريم - مع تنوّع مقاصده، وكثرة موضوعاته، وافتنانه فيها، في تأليف كَلِمه ونظم جُمله وإحكام الصِّلة بين مباديه ونهاياته ومطالعه وفواصله - مبلغاً **كأنَّه قطعةٌ واحدةٌ** مترامِيَةُ الأطراف، متكاملةُ البُنيان، محكمةُ الالتئامِ،(٢) وفي كلّ نهجٍ يسلكه، ووجه يؤُمّه -على ما وصفه الله تعالى به- **لا يخرج** عن **تشابهه وتماثله**، كما قال: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾ ولا **عن إبانته**، كما قال: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء:١٩٥].(٣) لا تختلف مراميه ولا تتشعب أهدافه، مَسُوقٌ لغرضٍ رئيسٍ، وهو **دعوةُ الخلْق إلى الدِّين الحقِّ**. هذا بخلاف كلام الآدميين إذا قِيسَ عليهِ وُجِدَ فيه **اخْتِلافٌ** في **منهاج النَّظم ودرجات الفصاحة**، فالقصيدة تشتمل على **أبياتٍ فصيحةٍ** وأُخرى **سخِيفةٍ**، والفُصحاءُ والشّعراءُ في كُلِّ وادٍ يهيمُونَ، فتارةً **يمدحون الجُبْنَ** ويُسمُّونه حزْماً، **وتارةً يذُمُّونه** ويُسمُّونه ضعفاً، **وتارةً يمدحونَ الشَّجاعة** ويُسمُّونها صَرامَةً، **وتارةً يذُمُّونها** ويُسمُّونها تهُوراً. وذلك؛ لأنَّ **أحوال** الإنسان **تتبدل**، وأغْرَاضه تختلِفُ، **فلا تسْنحُ له الفصاحة** كلّ حينٍ، **ويمِيلُ مرّةً إلى الشَّيْءِ**، وأُخْرَى **يمِيلُ عنه**، ما يُوجِبُ اخْتِلافاً

---

(١) **مسلم**، كتاب فضائلِ الصَّحابةِ، بابُ من فضائلِ أبي ذرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (٢٤٧٢).

(٢) **مناهل العرفان** (٢/ ٣١٥-٣١٦).

(٣) **إعجاز القرآن**، للباقلّانيّ (ص٢٠٦).

في كلامِه يتعذر معه أنْ يتكلَّم **على غرضٍ** أو **نهجٍ واحِدٍ**. وقد كان النَّبيّ ﷺ بشراً تختلِفُ أحوالهُ، فلو كانَ القرآنُ كلامَه، **أو كلامَ غيرِهِ مِنَ البشَرِ** لَوجدُوا فيه اخْتلافاً كَثِيراً. مصداقُ ذلك قول الله ﷻ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء:٨٢].(١)

ثالثاً، نظمه آياته المُبدِع.

النَّظْمُ المُبدِعُ: ما كانَ **وجيزَ الألفاظِ، كثيرَ ضروبِ البديعِ** وأوجهِ البلاغِة. فأبلغُ الكلامِ، ما حَسُنَ إيجازُهُ، وقلَّ مجازُهُ، وكَثُرَ إعجازُهُ، وناسبَتْ صدورُهُ أعجازَهُ.(٢) وقد **اجتمع في القُرآن ما لم يجتمعْ** في غيرِه مِن إصابةِ المعنى، وأداءِ المقصودِ، بأوجزِ عبارةٍ وأبلغِها.(٣) قال ابنُ أبي الإصْبعِ العَدْوانيّ (ت٦٥٤هـ): ما رأيت في جميعِ ما استقرأْت مِن الكلام المنثور والشِّعر الموزونِ كآيةٍ كريمةٍ مِن كتابِ اللهِ تعالى،(٤) وهي قولُه ﷻ: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود:٤٤]، استخرجْتُ منها **واحداً وعشرينَ ضرْباً مِن المحاسنِ**.(٥)

---

(١) **البرهان** (٢/ ٤٦-٤٧) **الإتقان** (٤/ ٢٣-٢٤) ويُنظر: **مفاتيح الغيب** (١٠/ ١٥٢-١٥٣) **الجامع لأحكام القرآن** (٥/ ٢٩٠).

(٢) **التَّمثيل والمحاضرة** (ص١٥٨). **نهاية الأرب في فنون الأدب** (٧/ ١١).

(٣) **الإيضاح في علوم البلاغة** (٣/ ١٧١). ويُنظر: **الرَّسائل الأدبيَّة**، للجاحظ (ص٥٣).

(٤) قالَ تحتَ عنوانِ «بابُ الإبداعِ»: أنْ تكونَ مُفرَداتُ كلماتِ البيتِ من الشِّعرِ، أو الفصْلُ من النَّثرِ، أو الجملةُ المُفيدةُ، **مُتضمِّنةً بديعاً** بحيثُ تأتي في البيتِ الواحدِ والقرينةِ الواحدةِ **عدَّةُ ضروبٍ مِن البديعِ** بحسَبِ عدد كلماتِه أو جملِه، ورُبَّما كانَ في الكلمةِ الواحدةِ المُفرَدةِ ضرْبانِ فصاعِداً مِن البديعِ، ومتى لم تكنْ كُلّ كلمةٍ بهذه المنزلةِ فليسَ بإبداعٍ... **تحرير التّحبير في صناعة الشعر والنثر** (ص٦١١).

(٥) حُكيَ أنَّ ابنَ المُقفَّعِ - وكانَ فصيحَ أهلِ عصْرِه - أراد أن يُعارِضَ القُرآنَ، فنظمَ كلاماً، =

منها:

المُناسَبةُ التَّامَّةُ، بينَ «أَقْلِعِي وابْلَعِي».

المُطابَقةُ، بذكْرِ الأرضِ والسَّماءِ.

الإردافُ، في قوله: ﴿وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ﴾، فقد عبَّر عن استقرارِها بهذا المكانِ وجلوسِها جلوساً مُتمكِّناً، لا زيغ فيه ولا ميْل، **بلفْظٍ قريبٍ** مِن لفْظ المعنى.(١)

الاحتراسُ: في قوله ﷻ: ﴿وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، إذ الدُّعاءُ يُشعِرُ بأنَّهم مُستحقُّو الهلاكِ احتراساً مِن ضعيفٍ يتوهَّمُ أنَّ الهلاك -لعمومِه- رُبَّما **شَمِل مَن يستحقّ ومَن لا يستحقّ**، فتأكَّدَ بالدَّعاءِ على الهالكينِ؛ لكونِهم مُستحقِّينَ.(٢)

= وجعلَهُ مُفصَّلاً، وسمَّاه سُوراً، فاجتازَ يوماً بصبيٍّ يقرأُ في مَكتبٍ: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ﴾... الآية، فرجعَ، ومحا ما عملَ، وقال: أشهدُ أنَّ هذا لا يُعارَضُ أبداً، وما هو من كلامِ البشرِ. **النُّكت والعيون**، الماورديّ (١/ ٣١).

(١) الإرداف: أنْ لا يعبر المتكلّم المعنى بلفظه الموضوع له، بل يعبر عنه بلفظٍ هو **ردفه وتابعه**. فقوله: ﴿وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ﴾، حقيقته: "وجلست على هذا المكان"، وإنَّما عدل عن لفظ الحقيقة لمَا في لفظ الإرداف مِن الإشعار **بجلوس متمكنٍ**، وهذا لا يحصل مِن قولك: "جلست أو قعدت" أو غيرها. ومنه قوله: ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ﴾ [الرحمن:٥٦]، **فقصور الطّرف** في الأصل **موضوعة للعفاف** على جهة التّوابع والإرداف؛ وذلك أنَّ المرأة إذا عفّت قصَرت طرفها على زوجها، فكان قصور الطّرف ردفاً للعفاف، والعفاف ردف وتابع لقصور الطّرف. **تحرير التحبير** (ص٢٠٧). **الصناعتين: الكتابة والشّعر** (ص٣٥٠).

(٢) **الاحتراس**: أنْ يأتي المتكلّم بمعنى يتوجه عليه دَخلٌ، فيفطن له، فيأتي بما يخلّصه مِن ذلك. والفرق بين الاحتراس، والتّكميل، والتّتميم أنَّ المعنى قبل التّكميل صحيحٌ تامٌ، ثُمَّ يأتي التّكميل بزيادة يكمل بها حسنه إمَّا بفنٍ زائدٍ أو بمعنى. والتّتميم يأتي ليتمم نقص المعنى ونقص الوزن معاً. والاحتراس لاحتمال دخل على المعنى، وإنْ كان تاماً كاملاً، ووزن الكلام صحيحاً. **تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر** (ص٢٤٥).

التَّهذيبُ؛ لأنَّ مُفرَداتِ الألفاظِ موصوفةٌ **بصفاتِ الحُسْنِ**، فكُلّ لفظةٍ سهْلةُ مخارجِ الحروفِ، عليها رونقُ الفصاحةِ، سليمةٌ مِن التَّعقيد والحذف المُخِلِّ، والزِّيادةِ المُسهِبة.

التَّمكينُ؛ لأنَّ الفاصلةَ مُستقِرَّةٌ في قرارِها، مُطمئِنَّةٌ في مكانِها، **غيرُ قَلِقةٍ ولا مُستدعاةٍ**.

قال: «**وما في مجموعِ الآيةِ مِن الإبداعِ**، وهو ما سُمِّيَ به هذا البابُ، كُلّ لفْظةٍ لا تخلو عن أنْ يُستخرَجَ منها **ضرْبٌ أو ضرْبان مِن البديعِ**... غيرَ ما يتعدَّدُ مِن ضروبِها، فإنَّ **الاستعارةَ** وقعَت منها **في موضعينِ**: استعارةُ الابتلاعِ للأرضِ، والإقلاعُ للسَّماءِ. **والمجازُ** في مكانينِ، في قوله ﷻ: ﴿وَيَٰسَمَآءُ﴾. وفي **الإشارةِ والتَّمثيلِ والإردافِ**؛[1] لأنَّ المجاز مجازان: مجازٌ **بالحذْفِ، ومجازٌ بالتَّغييرِ**،[2]

---

(١) **الإشارة**: اشتمال **اللّفظ القليل** على معانٍ كثيرةٍ، بإيماءٍ إليها أو لمحةٍ تدلّ عليها. مِن ذلك قوله ﷻ: ﴿وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ﴾ فإنَّه ﷻ أشار بهاتين اللّفظتين إلى انقطاع مادة الماء مِن مطر السّماء ونبع الأرض، وذهاب الماء الذي كان حاصلاً على وجه الأرض قبل الإخبار إذ لو لم يكن ذلك لمّا غاض الماء. وكقوله ﷻ: ﴿وَفِيهَا مَا تَشۡتَهِيهِ ٱلۡأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلۡأَعۡيُنُ﴾ [الزخرف:٧١] فألمح إلى كلّ ما تميل النّفوس إليه مِن الشّهوات وتلتذه الأعين مِن المرئيات. لتعلم أنّ هذا اللّفظ القليل جداً عبّر عن معانٍ كثيرةٍ لا تنحصر عدّاً. **نقد الشّعر**، قدامة بن جعفر البغدادي (ت٣٣٧هـ) (ص٥٥). **تحرير التّحبير** (ص٢٠٢). **والتّمثيل**: أنْ يريد المتكلّم معنى فلا **يدلّ عليه بلفظه الموضوع له، ولا بلفظٍ قريبٍ مِن لفظه**، وإنّما يأتي **بلفظٍ هو أبعد** مِن لفظ الإرداف قليلاً، يصلح أنْ يكون مثالاً للفظ المعنى المراد، كقوله تعالى: ﴿وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ﴾، وحقيقة هذا: هلك مَن قضى هلاكه، ونجا مَن قدّر نجاته. وإنّما **عدل عن اللّفظ الخاصِّ** إلى لفظ التّمثيل، **لأمرين**: **أحدهما**: اختصار أمر اللّفظ. **والثّاني**: كون الهلاك والنّجاة كانا بأمر مُطاعٍ، إذ الأمر يستدعي آمراً، وقضاؤه يدل على قدرة الآمر، وطاعة المأمور، ولا يحصل ذلك مِن اللّفظ الخاصّ. **تحرير التّحبير** (ص٢١٤).

(٢) قدْ يُطلَقُ المجازُ على كلمةٍ تغيَّرَ حُكْم إعرابها بحذفِ لفظٍ أو زيادةِ لفظٍ؛ كقوله ﷻ: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾، وقوله: ﴿وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ﴾، وقوله: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾. أيْ: «أمر ربِّك، وأهل القريةِ، وليسَ مِثْلَهُ شَيْءٌ». **عروس الأفراح** (٢/ ٢٠٣).

وقدْ وقعا معاً. فانظُرْ إلى عظمةِ هذا الكلامِ، لتعلمَ ما انطوى عليه نظْمُهُ، وما تضمَّنهُ لفْظُهُ».[1]

رابعاً، نظمه الموسيقي المعجز "جهاته وتجلياته".

جاء القرآن الكريم بأفصح ألفاظٍ وأجراها على اللّسان، وأوفاها للمعاني وأحكمها في النّظم، **وأمتعها للآذان**: لها نغمٌ **موسيقيٌ وإيقاعٌ صوتيٌ**، يُثير خلجات النّفس، ويقتَحِم شغاف القلوب، حتّى لا يجد سماعه بُدّاً مِن **الاصغاء له**؛ لأنَّه يسمع ضرباً مِن الموسيقى اللّغوية في انسجامه واطراد نسقه واتزانه على أجزاء النَّفس؛[2] **ومردُّ ذلك**، أخذه مِن النَّثر جلاله وروعته، ومِن النَّظم جماله ومتعته، ووقوفه في نقطةٍ خارقةٍ لحدود العادة البشرية بين إطلاق النَّثر وإرساله وتقييد الشِّعر وأوزانه.[3] وفي ذلك يقول **سيد قطب**: "النَّسق القرآني **جمع بين مزايا الشّعر والنّثر**، فقد أعفى التَّعبير مِن قيود **القافية الموحدة والتَّفعيلات التَّامة**، فنال بذلك **حرية التَّعبير الكاملة** عن جميع أغراضه العامّة، وأخذ في الوقت ذاته مِن خصائص الشّعر: الموسيقى الدّاخلية، والفواصل المتقاربة في الوزن التي تُغني عن التَّفاعيل، والتّقفية التي تُغني عن القوافي، فجمع النَّثر والنَّظم جميعاً".[4]

---

(١) **تحرير التَّحبير في صناعة الشِّعر والنَّثر** (ص٦١٢-٦١٤).

(٢) **إعجاز القرآن** للرافعي(ص١٨١). ويُنظر: **دراسات في علوم القرآن**، محمد بكر إسماعيل (ص٣٢٨).

(٣) **مناهل العرفان** (٢/ ٣١١).

(٤) **التَّصوير الفني في القرآن**، سيد قطب (ص٨٦). **التّقفية** التي تغني عن القوافي: مصطلحٌ يُشير إلى استخدام القوافي المتقاربة أو المائلة، حيث تتشابه الكلمات في أصواتها لكنها لا تتطابق تماماً، ممَّا يفتح المجال لشعور موسيقي وإيقاعي قوي يجعل القصيدة تكتمل دون الحاجة إلى تطابق القافية التّقليدي في كلّ بيتٍ.

لهذا؛ فإنَّ أوَّل ما يلاقيك ويسترعي انتباهك مِن أسلوب القرآن الكريم **تأليفه الصّوتي**: في **جماله التَّوقيعي**، والمتمثِّل في توزيع حركاته وسكناته، ومداته وغُنَّاته. فلو أنَّها جُرِّدت عن حروفها وأرسلت مجوَّدةً في الهواء فستجد اتساقاً وائتلافاً يسترعي مِن سمعك **ما تسترعيه الموسيقى والشِّعر**، وتجدك **إزاء لحنٍ غريبٍ** لا تجده في كلام آخر لو جُرِّد وجُود. وفي **جماله التَّنسيقي**، والمتمثِّل في رصف حروفه وتأليفها مِن مجموعاتٍ مؤتلفةٍ مختلفةٍ. فلو طرقت سمعكَ جواهرُ حروفه خارجةً مِن مخارجها الصحيحة، فاجأتك منه لذةٌ أخرى في نظم تلك الحروف ورصفها وترتيب أوضاعها فيما بينها؛ هذا ينْقر، وذاك يُصفِّر، وثالثٌ يهمس، وآخر ينزلق عليه النَّفَس، وآخر يحتبس عنده...[1]

وإذا كان سرّ الإعجاز في نظم الكلام، **وجهاته ثلاثةٌ**: الحروف والكلمات والجُمل، فهو يتركب مِن **حروفٍ** هي مِن الأصوات، **وكلماتٍ** هي مِن الحروف، **وجُمَلٍ** هي مِن الكَلِم. وقد جاء القرآن الكريم بطريقة نظمٍ **تتركب** فيه **الحروف باعتبارٍ** مِن **أصواتها ومخارجها، وبإيقاعٍ** تتناسق فيه **أصوات الحروف مع صفاتها، وبكلماتٍ تتآلف مع حروفها، وجملٍ مع كلماتها. وسرّ الإعجاز** في نظمه يتناول هذه كلّها؛ حيث خرجت مِن جميعها تلك **الطَّريقة المُعجزة** التي قامت به، وهي **توازن حروفه، وائتلاف مخارجها، وتناسب أصواتها. فالحرفُ الواحد** مِن القرآن **معجزٌ في موضعه**؛[2] لأنَّه **يُمسك الكلمة** التي هو فيها، **ليُمسِك بها الآية** والآيات الكثيرة. وهذا هو السِّر في إعجاز

---

(١) **النبأ العظيم** (ص١٣٣-١٣٥).

(٢) بخلاف كلام البلغاء، فبلاغته **تُصنع لموضعها وتُبنى عليه**، فربّما وَفَت، وربَّما أخلفت، ولو رُفعت من نظم الكلام ثُمَّ نُزِّل غيرها في مكانها لرأيت النَّظم نفسه غير مختلفٍ، بل عسى أنْ يصحّ ويجود في مواضع كثيرة من كلامهم. **إعجاز القرآن والبلاغة النبوية** (ص٢١٢).

جملته إعجازاً أبديّاً. وفيما يأتي بيان جهات نظمه الموسيقي وتجلياتها.

أوَّلاً، الحروف وأصواتها.

للحروف مخارجٌ وصفاتٌ وطريقةٌ في النَّظم في القرآن، وعند العرب، وموجبٌ لتنوع الصَّوت وأثره.

١) **مخارجُ الحروف وصفاتُها.** للحروف مخارجٌ طبيعيّةٌ وصفاتٌ تعرِض لها عند النُّطق بها. **فالحرف: هيئةٌ عارضةٌ للصّوت** يتكوَّن في **مواضع** مِن الجوف والحلْق واللِّسان والخيشوم والشَّفتيْن، وهذه المواضع هي **مخارجُ الحروف،**[(١)] على ترتيب ذهابها مع الصَّوت مِن ابتداء الصَّدر: حروف المد «ا، و، ي»، وانتهاءً إلى الشَّفتيْنِ «ب، م، و». **وصفةُ الحرف،** هي **الحالة** التي **تعرِضُ له عند النُّطق به.**[(٢)] **وتنقسم الصِّفات** باعتبار ذلك إلى **أنواعٍ،** مِنها: الهمس والجهر والشّدة والرّخاوة والغُنّة والذَّلاقة والمدّ والصّفير والقلقلة.[(٣)].. **وأحسنُ الأبنية** ما كان **بامتزاج الحروف** المتباعدة بُعداً أو قُرباً غير شديدٍ.[(٤)]

٢) **نظم القرآن الموسيقي.** تقوم طريقة نظم القرآن التي **اتّسقت** بها ألفاظه، **وتألفت لها** حروف هذه الألفاظ على طريقةٍ - لم تعرفها العرب - **يُتوخّى بها**

---

(١) وعددها خمسة عشر، وقيل غير ذلك.

(٢) وهي صفاتٌ إمَّا **ملازمةٌ** للحرف لا تفارقه حتّى يتميّز عن غيره، كالجهر والرّخاوة، وإمّا **عرضيّة**، وهي الصِّفات التي تلحقه أحياناً وتفارقه أحياناً، كالتَّفخيم والتَّرقيق بالنِّسبة للرَّاء. **العميد في علم التَّجويد**، محمود بن علي بسّة المصريّ (ت١٣٦٧هـ) (ص٥٨).

(٣) **تاريخ آداب العرب** للرّافعيّ (١/ ٧٥-٨٤). يُنظر: **هداية القاري إلى تجويد كلام الباري** (١/ ٦٤).

(٤) وهناك **حروفٌ أكثرُ استعمالاً**، كـ «الواو والياء والهمزة والميم والنّون»، وهناك **أقلّها استعمالاً**، كـ «الظَّاء والذَّال والثَّاء»؛ لثقلها على اللّسان، وأصعبُها **حُروفُ الحَلْق**. **تاريخ آداب العرب**، للرّافعيّ (١/ ٧٥).

أنواعٌ مِن المنطق، وصفاتٌ مِن اللّهجة، جعلت المسامعَ لا تنبو عنه، **والقلوب** لا تلوي دونه، حتَّى لا يجد مَن يسمعه بُدّاً مِن **الإصغاء** إليه **والاسترسال** معه؛ لأنَّه يسمع **ضرباً خالصاً مِن الموسيقى اللّغوية في انسجامه واتِّزانه** على أجزاء النَّفس مَقطَعاً مَقطَعاً، ونبرةً نبرةً، كأنَّها **تُوقِّعه توقيعاً** ولا تتلوه تلاوةً.[1] وهذا **النّوعُ مِن التَّأليف** لم يكن منه في **منطق البُلغاء إلَّا الجملُ القليلةُ** التي تكون روعتها **وأوزانُ توقيعها مِن اضطراب النَّفْس** في بعض **مقامات الحماسة أو الفخر أو الغزل**... حين تستحوذ على المتكلِّم، فيرسلها وكأنَّ **ألفاظه عواطفُ تتغنى.**[2]

٣) وقد كان **منطق القوم** يجري على أصلٍ مِن تحقيق **الحروف وتفخيمها؛** ولمَّا كانت **أصوات الحرف** تنزل منزلة **النَّبرات الموسيقيّة** المُرسلة في جملتها **كيف اتفقت؛** فلابدَّ لها مِن **نوعٍ في التّركيب؛** كي **يُمازجَ بعضُها بعضاً، وتتداخل خواصّها، وتجتمع صفاتها،** ويكون منها **اللّحنُ المُوسيقيّ،** والذي لا يكون إلَّا **بالتَّرتيب الصّوتي** الذي يُثير بعضه بعضاً على **نِسبٍ معلومةٍ** ترجعُ إلى **درجاتِ**

---

(١) إنَّ أبلغ ما يثبت هذا المعنى ما رُوي أنَّ ثلاثةً من بلغاء قريشٍ، وهم: الوليد بن المغيرة والأخنس بن شُريقٍ وأبو جهلٍ، خرجوا ليلةً يتسمعون مِن رسول الله ﷺ وهو يصلِّي بالليل في جوف بيته، وأخذ كلّ رجلٍ منهم مجلساً، وكلّ لا يعلم بمكان صاحبه، فلمَّا أصبحوا تفرَّقوا فجمعهم الطَّريق، **فتلاوموا،** وقالوا: **لا نعود**... هكذا حتّى الليلة الثَّالثة، فلمَّا أصبح الأخنس، سأل **أبا سفيانٍ** عن رأيه، فقال: والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يُراد بها. فقال **الأخنس: وأنا والذي حلفت به.** ثُمَّ أتى **أبا جهلٍ،** فسأله، فقال: تنازعنا نحن وبنو عبد منافٍ الشَّرف... وكنّا كفرسي رهانٍ، قالوا: منَّا نبيٌّ يأتيه الوحي مِن السَّماء! فمتى ندرك هذه! والله لا نسمع به أبداً ولا نصدّقه. فقام عنه الاخنس به شُريق. فما صدّهم عن الإيمان إلَّا العصبية، وصدق الله تعالى إذ يقول: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ﴾ [فصلت:٢٦] يُنظر: **السّيرة النّبوية** لابن كثيرٍ (١/ ٥٠٥-٥٠٦).

(٢) يُنظر: **إعجاز القرآن والبلاغة النّبوية** (ص٢١٢). **تاريخ آداب العرب** (٢/ ١٤١).

الصَّوت ومخارجه وأبعاده. وقد كانوا **يترسّلون أو يَحذِمون** -يُسرعون- في منطقهم **كيفما اتفق لهم**، لا يراعون أكثر **مِن تكييف الصّوت**؛ دون **تكييف الحروف** التي هي **مادة الصّوت**، إلى أنْ يتفق لهم **قِطَعٌ** في كلامهم تجيء **بطبيعة الغرض** الذي تكون فيه، أو **بقصدٍ مِن المُتكلِّم**، على **نمطٍ مِن النَّظم** الموسيقيّ.

فلمَّا **قُرِئ عليهم القرآن**، رأوا **حروفَه في كلماته، وكلماتِه في جُمَلِه، ألحاناً لُغويةً رائعةً**؛ كأنَّها لائتلافها وتناسبها **قطعةٌ واحدةٌ، قراءتها هي توقيعها، فلم يَفُتْهم** هذا المعنى، وأنَّه **أمرٌ لا قِبل لهم به**، وكان ذلك **أبْيَنَ في عجزهم**؛ حتّى إنَّ مَن عارضه منهم، **كمُسيلمة**، جَنَحَ في خُرافاته إلى **ما حَسِبه نظماً موسيقيّاً**، وطوى ما وراء ذلك مِن **التَّصرف** في اللّغة **ودقائق التَّركيب** البياني. ويمكن أنْ **تتبيَّن الفارق** إذا **ما رتَّلت** قِطعةً مِن **نثر فُصحاء** العرب على طريقةٍ **تُراعي فيها أحكام التّلاوة** وطُرق **الأداء**، عندها يظهر **لك نقص كلام البلغاء وانحطاطه** في ذلك عن مرتبة القرآن، حتَّى كأنَّه بهذا التَّحسين **غُيِّر وجُرِّد** مِن صفة الفصاحة؛ لأنَّه وُزِن بأوزانٍ لم **يتّسق عليها في كلّ جهاته**، وظهر مِن **عيبه ما لم يكن يعيبُه** إذا أُرسل في نهجه. هذا بخلاف **النَّظم الموسيقي** في القرآن، فإنَّه **لا يتفق على ذلك الوجه** الذي هو فيه **إلَّا فيه**؛ **لترتيب حروفه باعتبارٍ مِن أصواتها ومخارجها، ومناسبةِ بعضها بعضاً** مناسبةً **طبيعيةً** في الهمس والجهر، والشِّدّة والرّخاوة، والتَّفخيم والتَّرقيق، والتَّفشِّي والتَّكرار.

٤) **تنويعِ الصَّوت، موجبه وأثرُه. مادة الصَّوت**، هي **مظهر الانفعالِ النَّفسي**، وهذا الانفعال **سببٌ** في **تنويع الصَّوت**، بما يُخرجه فيه **مدّاً أو غُنّة أو ليناً أو شِدّةً، ويُهيئ** له مِن **الحركات** المختلفة في **اضطرابه وتتابعه** على **مقادير تناسب ما في النّفْس مِن أُصولها**، ثُمَّ هو **يجعل الصّوت** إلى **الإيجاز والاجتماع**، أو

الإطناب والبسط، بمقدار ما يكسبه مِن **الحدوة والارتفاع**، والاهتزاز وبعد المدى، ونحوها.

ونظم القرآن الإيقاعي لغةٌ عالميّةٌ: فلو اعتبرنا ذلك في **تلاوة القرآن** على طُرق الأداء الصّحيحة، لرأيته **أبلغَ لغةٍ في استثارة الشّعور**؛ حتّى **يغلب بنظمه** كلّ طبعٍ، حتّى **العُتاة**، ومَن لا يعرفون لله آيةً، **تلين قلوبهم وتهتزُّ عند سماعه**؛ لأنَّ **تتابعَ الأصوات** على **نسبٍ معينةٍ** بين مخارجِ **الأحرف المختلفة**، هو **بلاغةُ اللّغة الطبيعيّة** التي **خُلقَت في نفس الإنسان**، والتي متى سمعها لم يصرفه عنها صارفٌ مِن **اختلاف العقل** أو **اللّسان**. وعلى هذا وحده يُؤوَّلُ **الأثرُ الوارِدُ**: «إِنَّ **الصَّوْتَ الحَسَنَ** يَزِيدُ الْقُرْآنَ حُسْناً».[1] لأنَّه يُجنِّبُ هذا **الكمال اللّغوي** ما يُعدّ **نقصاً منه إذا لم تجتمع أسباب الأداء في أصوات الحروف ومخارجها**، وإنَّما **التَّمامُ الجامع** لهذه الأسباب **صفاءُ الصّوت، وتنوعُ طبقته، واستقامةُ وزنِه** على كلّ حرفٍ.

٥) والفواصل التي تنتهي إليها آياته، ما هي إلَّا **صوَرٌ تامَّةٌ** للأبعاد التي تنتهي بها **جُمَل الموسيقى**، وهي **متفقةٌ مع آياتها في قرار الصّوت** اتفاقاً **يلائم نوعه** والوجه الذي **يُساق عليه**. وأكثر ما تنتهي **بالنّون والميم**، أو **المدّ**، وهي **حروفٌ طبيعيةٌ في الموسيقى** نفسها. فإنْ **لم تنته بواحدةٍ** مِن هذه، كأنِ انتهت **بسكون حرفٍ** مِن الحروف الأُخرى، كان ذلك **متابعةً لصوت الجُملة وتقطيع كلماتها**، وأكثر ما يكون **في الجُمل القِصار**، ولا يكون إلَّا بحرفٍ قويٍّ يستتبع **القلقلة أو الصَّفير**، أو نحوهما ممَّا هو ضروبٌ أُخرى مِن النَّظم الموسيقي.[2]

---

(١) رواه البَراءُ بنُ عازب رضي الله عنه. وأوله: «حَسِّنوا الْقُرْآنَ بِأَصْواتِكُمْ» **سنن الدّارميّ** (٤٧٤). **المستدرك** (٢١٢٥).

(٢) **إعجاز القرآن والبلاغة النّبويّة** (ص٢١٦).

ثانياً، الكلماتُ وحروفُها.

١) **الكلمةُ** في الحقيقة الوضعيّة، إنَّما هي **صوتُ النَّفْس**؛ لأنَّها **تَلْبَس قِطعةً مِن المعنى** تختصّ به على **وجه المناسبة، قد لحظته النَّفس فيها مِن أصل الوضع**. وصوتُ **النَّفْس**، هو **أوَّل الأصوات** الثَّلاثة التي لا بدَّ منها في **تركيب النَّسق البليغ**، حتّى **يستجمعَ** بها **أسباب** الاتصال **بين الألفاظ ومعانيها، وبين هذه المعاني وصُوَرها النَّفْسيّة، فيجري في النَّفس** مجرى **الإرادة، ويذهب مذهب العاطفة، وينزل منزلة العلم الباعث** على كلتيهما.

فالبيان لا يؤلف أصواتاً، إنمَّا هو **صوَرٌ نفسيةٌ** في **الطَّبيعة، وصورٌ طبيعيةٌ** في النَّفس، فإذا لم يكن **حياً** ناطقاً **يلمحُ بعضه بعضاً**، ولم يكن **بتركيبه وطريقة نظمه كأنَّما** يحمل مِن معناه للنَّفس **مادة الإرادة أو الفكر، لم يُجْدِ** شيئاً، **وصارت معانيه كأنَّها مادةٌ جامدةٌ، بل ربَّما سَفَلَ إلى** منزلة الإشارة، **التي هي أضعف البيان وأخفاه، وأشدّ التباساً** في مذاهب المعاني النَّفسية. **والأصوات الثَّلاثة:**

- **صوت النَّفْس**: هو **الصَّوت الموسيقي** الذي يكون مِن تأليف **النَّغم بالحروف ومخارجها وحركاتها، ومواقع ذلك** مِن **تركيب الكلام ونظمه** على **طريقةٍ متساوقةٍ ونضدٍ متساوٍ**؛ بحيث تكون **الكلمة** كأنَّها **خطوةٌ للمعنى** في **سبيله إلى** النَّفس.

- **صوت العقل**: هو **الصَّوت المعنوي** الذي يكون **مِن لطائف التَّركيب** في **جملة الكلام، ومِن** الوجوه البيانية **التي** يُدَاوَرُ بها المعنى، **لا يُخطئ طريقَ النَّفس** مِن أيِّ الجهات انتحى إليها.

- **صوت الحسِّ**: وهو **أبلغهنَّ شأناً**، لا يكون إلَّا مِن دقَّة **التّصوُّر المعنوي، والإبداع في تلوين الخطاب، ومجاذبة النَّفس** مرّةً وموادعتها مرّةً، **واستيلائه** على **جوهرها** بما **يُورد عليها** مِن **وجوه البيان، أو** يسوق إليها مِن **طرائف المعاني**.

٢) **دور صوت الحسِّ في النَّظم**، بمقدار ما يكون في **الكلام البليغ** مِنه يكون فيه مِن **روح البلاغة**، فإنْ خرجَ عمَّا **وقفت عنده الطباع النّفسية**، فلم يكن في بعض الكلام مقداراً معيناً **تحسّه في جهةٍ وتفقده في جهةٍ**، وتراه مرةً **ماثلاً** ومرةً **زائلاً**، بل صار **كأنَّه روحٌ للكلام ذاته**، يُبادرك الرَّوعة **في كلّ** جزءٍ منه - كما **تبادرك الحياة** في كلّ **حركةٍ للجسم الحيِّ**- فقد **خرج به ذلك** الفن مِن الكلام إلى أنْ **يكون خلْقاً روحياً**؛ وكأنَّه **تمثيلٌ بألفاظٍ لخِلقة النَّفس** في دقة التَّركيب وإعجاز الصَّنعة. وهذا المعنى، هو **روح الإعجاز** في القرآن الكريم؛ فلو **فُقِد** ولو مِن **أقلّه**؛ لوجدوا **مدخلاً فيه للقول، ومساغاً للرَّدِّ والتّماري، والأقاويل** في **معارضته**. **وذلك**؛ لأنَّ **صوت النَّفس طبيعيٌّ في تركيب لغتهم**، وإنْ تفاوت فيها كمالاً ونقصاً. **وصوت الفكر** لا يعجزهم **أنْ يستبينوه** في كثيرٍ مِن **كلام بلغائهم**. **أمَّا صوت الحسِّ، فقد خلت لغتهم** مِن **صريحه**، وانفرد به **القرآن**، وقد **كانوا يجدونه في أنفسهم**، ولكنَّهم **لا يجدون البيان** به في **ألسنتهم**؛ لأنَّه **الكمال اللّغوي** الذي **تعاطوُه ولم يُعْطوُه**، وإنَّما كانوا **يبتغون الحيلة** إليه بألوانٍ مِن **العادات وضروبٍ** مِن **التَّعبير النَّفسي**.

وما مثَلُ هذا **العجز الذي يحسونه**، إلَّا كمّن **يفتتنُ بالجمال**، فإذا رأى الوجه الجميل كانت **نظرته إليه كلاماً نفسياً**، ولو **جَهَد البلغاء أنْ يَحْكُموه بالعبارة** - كما هو في نفسه- **لأعيتهم وسائل البلاغة** أنْ يمهدوا منها لهذه الحالة النَّفسية، **ولجاؤوا** بما **لا يعدم النَّقص والاضطراب**، ممَّا حسبوه قد تكامل واستقرَّ.

وهذا مثالٌ يطّرد في كلّ ما أنت واجده مِن البلاغة العربية. فلا ترى شيئاً منها يُروعك بالتئام أجزائه ورشاقة معرضه وحسن تصويره، إلَّا وقعت منه على ضربٍ مِن الاستعانة: بالخيال أو العادة أو العاطفة. هذا، بخلاف القرآن الكريم، فلا يستعين بشيءٍ مِن ذلك في إحكام عبارته، وانتظام أسباب التَّأثير فيها، وليس إلَّا أنْ تقرأه حتّى تُحِسَّ مِن حروفه وأصواتها وحركاتها، ومواقع كلماته وطريقة نظمها ومداورتها للمعنى، بأنَّه كلامٌ يخرج مِن نفسك، وقد ذهبتْ مع التّلاوة أصواتاً، واستحال كلّ ما فيك مِن قوةٍ الفكر والحسِّ إليها، فصرت كأنَّك على الحقيقة مطويٌّ في لسانك.

وإنَّ أعجب ما في أمر هذا الحسِّ الذي يتمثَّل في كلمات القرآن، أنَّه لا يُسرف على النَّفس ولا يستفرغ مجهودها، بل هو مقتصدٌ في كلّ أنواع التَّأثير عليها، فلا تضيق به ولا تنفر منه، ولا يتخوّنها الملال، ولا تزال تبتغي أكثر مِن حاجتها في التّروُّح والإصغاء إليه، والانقياد له، وهو يُرفِّه عليها بأساليبه وطُرقه في النَّظم والبيان.(١)

٣) نزول ألفاظه وكلماته منازلها المناسبة وإتلاف أصواتها وحركاتها.

أوَّلاً، نزولها منازلها المناسبة: لمَّا كان الأصل في نظم القرآن أنْ تُعتبرَ الحروفُ بأصواتها وحركاتها ومواقعها مِن الدّلالة المعنوية، استحال أنْ يقع في تركيبه ما يسوغ الحُكم في كلمةٍ أنَّها زائدةٌ، أو حرفٍ أنَّه مضطربٌ، أو ما يجري مجرى الحشو، أو ما يُقال فيه إنِّه تغوثٌ واستراحةٌ كما تجده في أساليب البُلغاء. بل نزلت كلماته منازلها بحيث لو نُزعت كلمةٌ منه، أو أُزيلت عن

(١) وهذا يفسر ما يقوم به الأتقياء من ختمٍ للقرآن في يومٍ واحدٍ، فكثيرٌ منهم كان إذا أقبل على ربّه، ووقف بين يديه في صلاته، قرأ في الرّكعة سورةً أو سورتين مِن الطّوال، وهو مستغرقٌ لا يملّ، وكأنَّه ليس قي الأرض أو مِن أهلها.

وجهها، ثُمَّ **أدير لسانُ العرب** كلّه على **أحسن منها** في تأليفها وموقعها وسدادِها، **لم يتهيأ ذلك**، ولا **اتسعت له اللّغة** بكلمةٍ واحدةٍ.(١)

لهذا **صارت ألفاظه** - بطريقة استعمالها ووجه تركيبها - كأنَّها **فوق اللّغة**؛ لأنَّ أحداً مِن البُلغاء لا **تمتنعُ عليه فصحُ** العربيّة متى أرادها، ولكن **لا تقع له مثلُ ألفاظ القرآن** في **كلامه**، وإنْ **اتفقت له** هذه الألفاظ نفسها بحروفها ومعانيها؛ لأنَّها في **القرآن تظهرُ في تركيبٍ ممتنعٍ**، فتُعرَفُ به؛ ولهذا ترتفع إلى أنواعٍ أسمى مِن **الدّلالة اللّغوية أو البيانيّة**.

ثانياً، ائتلاف أصواتها وحركاتها وتساوقهما في النَّظم الموسيقي: تجري ألفاظ القرآن في **حركاتُها الصّرفيّة واللّغويّة** في الوضع والتَّركيب **مجرى الحروف أنفسها** فيما هي له مِن أمر الفصاحة، إذ يُهيئ **بعضُها لبعضٍ**، ويُسانده، ممَّا يجعلها **مؤتلفةً** مع **أصوات الحُروف**، ومُساوقةً لها في **النَّظم الموسيقيّ**. مِن **ذلك**:

- **ورود ألفاظٍ** هي **أطولُ الكلام عددَ حروفٍ** ومقاطع، ممَّا يكون **مُستثقلاً بطبيعة وضعه** أو **تركيبه**، لكنَّها في نظمه مِن **أعذب الألفاظ منطقاً، وأخفّها تركيباً**، إذ تراه قد **هيأ لها أسباباً مِن تكرار الحروف، وتنوع الحركات**، كما في قوله ﷻ: ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [النّور:٥٥] فهي كلمةٌ واحدةٌ مِن **عشرة أحرفٍ**، وقد جاءت عذوبتُها مِن **تنوع مخارجِ الحروف**، ومِن **نظم حركاتِها**، فإنَّها بذلك صارت **في النَّطق** كأنَّها **أربع كلماتٍ**؛ إذ تُنطق على أربعة مقاطع. **وقوله** ﷻ: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ﴾ [البقرة:١٣٧] فإنَّها كلمةٌ **مِن تسعة أحرفٍ**، وهي

---

(١) **تاريخ آداب العرب** (٢/ ١٤٩). ونحو هذا قال ابن عطية في **المُحرَّر الوجيز العزيز** (١/ ٥٢).

ثلاثةُ مقاطع، وقد **تكرّرت فيها «الياء والكاف»**، وتوسَّط بين «الكافين» **هذا المدّ** الذي هو **سِرّ الفصاحة** في الكلمة كلِّها.

- **عدم شذوذ أيّ حرفٍ** منه عن **قاعدة نظمه المُعجز**؛ حتّى الآيات التي ليس فيها إلَّا ما تسرده مِن **الأسماء الجامدة**، وهي بالطّبع **مَظنّة** أنْ لا يكون فيها شيءٌ مِن **دلائل الإعجاز**؛ ترى إعجازها أبلغ ما يكون في **نظمها وجهات سردها**، ومِن **تقديم اسمٍ** على غيره أو **تأخيره** عنه. كما في قوله ﷻ: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ﴾ [الأعراف:١٣٣]، فإنَّها **خمسةُ أسماءٍ، أخفها** في اللّفظ: «الطّوفان والجَراد والقُمَّل»، **وأثقلها**: «الْقُمَّلَ والضَّفادِعَ». **فقدّم** «الطّوفان» لمكان **المَدَّين** فيها؛ حتّى يأنس اللّسان **بخفتها**؛ **ثُمَّ** «**الجراد**» وفيها كذلك **مدٌّ**. ثُمَّ جاء **باللّفظين الشّديدين**، مبتدئاً **بأخفهما** في **اللّسان وأبعدهما في الصّوت؛ للغُنَّة التي فيه**. ثُمَّ جيء بلفظة «**الدَّم**» آخِراً، وهي **أخف الخمسة** وأقلّها **حروفاً**؛ **ليُسرع** اللّسان فيها، ويستقيم لها **ذوق النّظم**، ويتمّ بها هذا الإعجاز في التّركيب. ومهما **قُلِّبت** هذه **الأسماء** -قُدِّمت أو أُخِّرت- **لتهافت النّظم، وامتنع** أنْ يجيء منها **نظمٌ فصيحٌ**، وخرجَتْ مضطربةً في النّطق، لا يظهر أخفها مِن أثقلها.[1]

ثالثاً، الجمل وكلماتها.

١) صفة الجملة ومراتب البيان. أمَّا **الجملة**، فهي **مظهر الكلام، والصّورة النّفسية للتَّأليف الطّبيعي**، يُحيل بها الإنسان **المادة المخلوقة في الطّبيعة** إلى **معانٍ، تُصورُها في نفسه أو تصِفُها**، تراها **النّفس وتحسُّها**. وعلى حين قد **لا**

(١) يُنظر: **إعجاز القرآن والبلاغة النّبويّة** (ص٢٢٠-٢٣٥).

يراها المتكلِّم الذي أهدفها غرضاً لكلامه، ولكنَّه بالكلام كأنَّه يراها.

أمَّا مراتب البيان، فإذا رُكب الكلام على أصلٍ لا يتأدّى بالمعاني إلى أبعد مِن مظاهر الحسِّ، فهو الكلام الطّبيعي الذي ليس لأحدٍ فيه فضلٌ؛ لاستواء النَّاس مِن أصل الخِلقة وطبيعة الحياة. أمَّا إذا خرج إلى أنْ يكون في أوضاعه ومعانيه كأنَّه تصرّفٌ مِن الحواس في أنواع الإدراك ودرجاته؛ كتصرف النَّظر في اكتناه الجمال وإدراك معانيه، أو السَّمع في استبانة الأصوات وحسِّ نغماتها... فهو الكلام النَّفسي الذي يضيف إلى المُتكلّم صفة البلاغة، ويرتفع به عن أنْ يكون إنساناً مِن الجنس إلى أنْ يكون - بفضيلة البلاغة - مادةً إنسانيةً لجنس الإنسان. فإذا ارتفع إلى أنْ يصير في تقليبه ومداورته كأنَّه طرقٌ ما بين الحواس -في أنواع إدراكها- وبين النَّفْس، فهو الكلام الذي يَبينُ البليغَ ويفردُه مِن قومه، ويجعلُه مهوى قلوبهم ومحط أبصارهم، إذ يكون مِن القوة البيانية ما يجعله خليقاً أنْ يعتدّه التَّاريخُ أحد المجامع النّفيسة، أو يكون أمَّةً في نفسه.

٢) الكلام المُعجز، إذا بَعُدَ الكلامُ وأمعن حتَّى يبلغ بدقائق تركيبه وطُرق تصويره، كأنَّما يفيضُ النَّفْسَ على الحواس إفاضةً حتَّى يبلغ أنْ يكون روح لغةٍ كاملةٍ، وبيانَ أمّةٍ برُمّتها، لا يُحيله الزّمن عن موضعه، ولا يغيِّره عن جهته، وكأنَّ البلغاء -على تفاوتهم واختلاف عصورهم- طبقةٌ واحدةٌ وفي طوقٍ واحدٍ مِن العجز، يعنِتهم طلبه وإدراكه، يعرفون تركيبه، ولا يجدون له مأتىً ولا وجهاً مِن القدرة، فذلك هو الكلام المعجز، بل هو معجزة الطّبيعية الكلاميّة التي لم تُعرَف في أمّةٍ، ولا عُرف أنَّ بُلغاء قوم أقرّوا وأجمعوا عليها إجماعاً يتوارثونه على مدى التَّاريخ وتعاقب الأجيال، إلَّا ما كان في القرآن، وما لا يزال الإجماع مُنعقداً عليه، ما بقي في الأرض لفظٌ مِن العرب.

واطَّرد ذلك للقرآن مِن **جهة تركيبه** الذي **انتظم أسباب الإعجاز** مِن **الصَّوت في الحرف**، إلى **الحرف في الكلمة**، إلى **الكلمة في الجملة**، حتَّى يكون الأمر مقدَّراً على **تركيب الحواس النّفسية** تقديراً **يُطابق وضعَها** وقواها وتصرفها. **وإنَّما امتنع** أنْ يكون في **مقدور الخلق**: لأنَّه **تفصيلٌ للحروف** على نحوٍ مِن **تناسب الأجزاء في الدّقيق والجليل وقيام بعضها** ببعضٍ، **لا يُغني منها شيءٌ عن شيءٍ** في أصل **التَّركيب وحكمته**، ولا **يأتلف ائتلافه**. ثُمَّ **اشتمالها** على **سرِّ التَّركيب المكنون** الذي جعل **البلغاءَ** منها **بمنزلة الأطباء** في سعة العلم **بتركيب الأجسام الحيَّة**، دون العلم **بالوجه الذي يُمكن به التَّركيب**، على أنَّهم **لا يفوتهم** أمرٌ مِن دقائقه، **ولا يعزب** عنهم **شيءٌ** مِن **مادته**، يزدادون بها على الدَّهر **خبرةً**، ثُمَّ **ينصرفون** عنها، وهم في **العلم غير مَن كانوا**، وهي لا **تزال** عندهم على **ما كانت!**.

٢) **وسِلمَ مِن النَّقد أبد الدَّهر**؛ في حين لم يسلم **فضلٌ لمُتقدِّمٍ** على **متأخِّرٍ** إلَّا فضيلةُ **احترام الموت** واستحياء التَّاريخ، فليس في الأرض **أثارةٌ** مِن علمٍ **لم يتناولها** ناموس النّشوء **بالنَّقض** مِن إحدى جهاتها **غيرَ القرآن**؛ فإنَّه **طبقةٌ** وحده في **إعجاز تركيبه وسلامة معانيه**، لم **تُنقض منه آيةٌ** أو **كلمةٌ** أو **دونها**، ولا ذُكر معه شيءٌ **مِن كلام البلغاء**، ولا عُورض به، إلَّا **كان مرجوحاً** أبداً... **وألفاظه**، كيفما **أدرتها وتأملتها**، تصيب لها في نفسك **حلاوةً وانسجاماً**، **وتخالط إحساسك**، وتنتقل في **منازل البلاغة وطبقات البيان**، ولا تعرف منها إلَّا **روحاً تداخلُك بالطّرب**، **وتُشرِبُ قلبكَ الرّوعة**. وتقرأ **طائفةً مِن آياته** فلا تلبث أنْ تعرف لها صفةً مِن الحسِّ **ترفد ما بعدها وتمده**، حتَّى لا ترى آيةً **أدخلتِ الضَّيمَ على أختها**، أو أظهرت عيباً فيها.

٣) وتجري طريقة نظمه وتركيبه على استواءٍ واحدٍ في تركيب الحروف باعتبارٍ مِن **أصواتها ومخارجها**، وفي التَّمكين **للمعنى بحسَّ الكلمة وصفتِها، ثُمَّ الافتنان** فيه **بوضعها مِن الكلام** موضعاً **لا يتفاوت ولا يختلّ**. ويجري **نظمه وتركيبه** على نمطٍ واحدٍ في **القوة والإبداع**، لا تقع منه على لفظٍ **يُخلّ بطريقته، فإذا أخرجتَ ألفاظه مِن أماكنها**، وأزلتها عن روابطها، رأيتها كأنَّما **خرجت مِن لغةٍ إلى لغةٍ، لبُعد** ما كانت فيه ممَّا **صارت** إليه. وذلك بخلاف أيِّ كلامٍ غير القرآن، ترى لكلّ **لفظةٍ فيه روحاً** في تركيبها، فإذا أفردْتها **وجدتها قريبةً** ممَّا كانت؛ لأنَّها هي **نفسها كانت مِن روح التَّركيب**، ولم يكن لهذا التّركيب في جملته **روحٌ خاصَّةٌ** بالنَّسق والنَّظم.

٤) وروح التّركيب هذه، **انفرد** بها **نظم القرآن**، وخرج **ممَّا يُطيقه النَّاس**؛ ولولاها لم **يكن حيث هو**، كأنَّما **وُضع جملةً واحدةً** ليس بين **أجزائها تفاوتٌ أو تباينٌ**. تراه ينظر في التّركيب إلى **نظم الكلمة وتأليفها، ثُمَّ** إلى **تأليف هذا النَّظم**. فمِن هنا **تعلَّق بعضه ببعضٍ**، وخرج في معنى **تلك الرّوح صفةً واحدةً**؛ هي صفة **إعجازه في جملة التَّركيب**، وإنْ كان فيما وراء ذلك **متعدد الوجوه** التي يتصرّف فيها مِن **أغراض الكلام وجهات الخطاب**: كالقصص والمواعظ والحِكَم والتّعليم وضرب الأمثال... **ولولا تلك الرّوح** لخرج **أجزاءَ متفاوتةً** على مقدار ما بين **هذه المعاني ومواقعها** في النَّفوس؛ ومقدار ما بين **الألفاظ والأساليب** التي تؤديها **حقيقةً ومجازاً**.

هذا، بخلاف ما **تعرفه مِن كلام البلغاء**، تراهم **يتوخَوْن** بكلامهم أغراضاً ومعاني **يعذُب فيها الكلام، ويتّسق القول، وتَحْسنُ الصَّنعة**، ممَّا يكون أكبر **حسنه في مادته اللغوية**، فإذا **تحوّلوا** إلى **غيره**، وأفضوا إلى سواه، رأيت اللّفظ المُستكره والسِّياق المضَّطرب والعبارة المبتذلة.

أمَّا تركيب القرآن، فإذا تأملته، حِرت في الوجوه التي يتصرّف فيها في نظم كلماته، وإذا حاولت وصفه فلا تجد كلمةً أدلّ وأجمعَ لِمَا في نفسك، وأبينَ لهذه الحقيقة، غير كلمة الإعجاز. وإذا نظرت في إبداع تأليفه وتفننه في تلوين المعاني، وجدته قد نفى العربَ عن لغتهم -وهم في أرقى ما اتفق لهم مِن الصّور اللغوية- واستبدَّ بها دونهم، واستغرق كلّ محاسن البيان، حتَّى لم يدع إلَّا حُكماً واحداً -تنتهي إليه المقالة مِن أيِّ جهاتها سلك- أنَّ العرب أوجدوا اللغة مفرداتٍ فانيةً، وأوجدها القرآن تراكيبَ خالدةً، جاءت على الوجه الذي يستنفد ما في العقول مِن الفِكْر، وما في القوى مِن أسباب البحث؛ كأنَّما رُكب على مقادير العقول والقوى، وأحوال العصور المُغيَّبة.

٥) والأعجب في تخيُّر ألفاظ القرآن، استجابتها على هذا الوجه المعجز؛ فترى اللّفظ قارّاً في موضعه؛ لأنَّه الأليق في النَّظم، والأوسع في المعنى، والأقوى في الدّلالة، والأحكم في الإبانة، والأبدع في وجوه البلاغة، والأكثر مناسبةً لمفردات الآية، ممَّا يتقدمه أو يترادف عليه، حتَّى خرج التَّعبير عن معانيه بألفاظٍ أُخرى من نفس اللغة العربية مخرج التَّرجمة إلى غيرها مِن اللّغات. ومِن أعجب ما يحقّق الإعجاز أنْ معاني هذا الكتاب الكريم لو أُلبست ألفاظاً أُخرى مِن العربية، ما جاءت في نمطها وسمْتها والإبلاغ عن ذات المعنى، ولو تولَّى ذلك أبلغ بلغائها، وكان بعضهم لبعض ظهيراً؛ فقد ضاقت اللّغة عنده على سعتها؛ حتَّى ليس فيها لمعانيه غيرُ ألفاظه بأعيانها وتركيبها.[1]

(١) يُنظر: إعجاز القرآن والبلاغة النّبوية (ص٢٣٦-٢٤٨).

المبحثُ الثَّاني

خصائصُ أسلوب القرآن الكريم البيانيَّة

كما انفردَ القرآن الكريم في طريقة نظمه وتأليفه، سَما في بيانه وفنون خطابه؛ حيثُ اتّصف أسلوبه بخصائص بيانية وسمات بلاغية يعجز دونها البُلغاء، ويدين لها الفصحاء، ويحار بها العقلاء. وفيما يأتي أهم تلك الخصائص:

الخاصّة الأولى، إقناع العقل وإمتاع العاطفة.

في النَّفس الإنسانية قوتان: **قوةُ تفكيرٍ، وقوةُ وجدانٍ، أمَّا الأولى،** فتنقب عن الحقّ لمعرفته، وعن الخير للعمل به، **وأمَّا الثَّانية،** فتسجل **إحساسها** بما في الأشياء مِن **لذةٍ وألمٍ**. والبيان التّام ما يفي هاتين الحاجتين، فيؤتي النَّفس حظّها مِن **الفائدةِ العقليّةِ والمتعة الوجدانية** معاً. وهذا ما لا تجده في كلام النَّاس. فكلام الحكماء والشّعراء لا تجد فيه إلّا **غلوّاً** في جانبٍ **وقصوراً** في آخر. فالحكماء لا يبالون بالمشاعر، بخلاف الشّعراء، فيسعون إلى إلهابها، واستثارة العاطفة، وحال أكثرهم كما وصفهم الله ﷻ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾ [الشّعراء:٢٢٥]. والجمع بين هذين الطّرفين لا تجده إلَّا في كتاب الله ﷻ؛ حيث **خاطب العقل والقلب،** ودمج بين الحقِّ والجمال.[1] ففي أثناء قَصِّه وإخبارِه لا ينسى **حقَّ العقلِ** مِن **حكمةٍ وعِظَةٍ**. مِن ذلك: قصةُ إبراهيم عليه السلام مع قومه، فمِن بين ثنايا الأحداث تبرزُ **المُحاكمة العقليّة،** وتبدو **العاطفةُ الوجدانية.**

---

(١) يُنظر: **النبأ العظيم** (ص١٤٨).

١- ناظرَ عليه السلام في إثْباتِ التَّوْحيدِ وإبْطالِ القوْلِ بالشُّركاءِ والأنْدادِ في أربعة مقاماتٍ:

الأوَّل: مُناظَرتُه **معَ أبيه** حين **دعاهُ إلى التَّوحيد** وترْك عِبادة الأصْنام، **أوَّلاً بالرِّفقِ**: ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا﴾ [مَرْيَمَ:٤٢]. ثُمَّ **باللَّفظِ المُوحِشِ**: ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصۡنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوۡمَكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ [الأنعام:٧٤]. فمَن يدعو إلى الله ﷻ ينبغي أنْ **يُقدِّمُ الرِّفْق على العُنفِ**، وألَّا يُغلظ إلَّا بعد **اليأسِ** التَّامِّ.

الثَّاني: مُناظَرَتُهُ **معَ قومِه**، وهو قولُه: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ رَءَا كَوۡكَبٗاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ﴾... إلى قوله: ﴿فَلَمَّآ أَفَلَتۡ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ٧٨ إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [الأنعام:٧٦-٧٩].

الثَّالِث: مُناظَرَتُهُ مَعَ **مَلِك زمانه**؛ حيث قال: ﴿رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ﴾ [البقرة:٢٥٨].

الرَّابع: مناظرتُه مع **الكفرةِ بالفعلِ**، وهو قولُه ﷻ: ﴿فَجَعَلَهُمۡ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرٗا لَّهُمۡ﴾ [الْأَنْبِياءِ:٥٨]. ولَمَّا لم يَجدوا جواباً فما كان منْهُم إلَّا أنْ قالوا: ﴿حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمۡ﴾ [الْأَنْبِياءِ:٦٨].

٢- إثباتُ امتناعِ **كونِ الكواكبِ** أرْباباً وآلِهَةً. وذلك بُمقدِّمتين: **الأولى**، أُفُولها، ويَدُلُّ على حُدوثِها، وهي المقدمة **الثّانية**، ما يعني **عجزها** عن الإيجاد والإبْداع، **وافْتِقارها في وجودِها** إلى القادر المُختار. ولَمَّا ثَبتَ بِالدَّليلِ عدم

صلاحيتها للرُّبُوبيّة والإلهيّة، **تبرّأ منها**: ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنِۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ﴾ [الأنعام:٨٠].

٣- ولَمَّا **أَوْرَدَ** عليهِم **الحُجَّةَ، أَوْرَدوا** عليه **ما ظنُّوه حُجَجاً، منها: تقليد الآباء والأسلاف**: ﴿إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ﴾ [الزُّخْرُف:٢٣]. **وتخويفُه**، أنَّكَ لَمَّا طعنْتَ في إلَهِيَّةِ هذه الأصْنامِ أصابتك الآفاتُ والْبَلِيَّاتُ - ونَظيرُهُ ما حَكاهُ الله ﷻ في قِصَّةِ قوم هودٍ: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعۡتَرَىٰكَ بَعۡضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٖ﴾ [هود:٥٤] - وردَّ ما توهموه حجَّة، بقوله: ﴿قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنِ﴾ [الأنعام:٨٠] أيْ: لَمَّا ثَبَتَ بالدَّليلِ الموجبِ للهدايَةِ واليَقين صِحَّةُ قولي، فكيفَ ألتفتُ إلى **حُجَّتكُم العَليلة**، ومقولتكم الباطلة؟.[1]

٤- وفي **معمعةِ براهينه وأحكامه**، لا ينسى **حظَّ القلب** مِن التَّشويق والتَّرقيق، والتَّحذير والتَّنفير... **يبث ذلك** في مطالع آياته ومقاطعها وبين تضاعيفها.[2] مِن ذلك ما جاء في معرض **دعوة إبراهيم** عليه السلام لأبيه: ﴿إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا ٤٢ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا ٤٣ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا﴾ [مريم:٤٢-٤٤]؛ حيث أتت في غاية الحُسن؛ لأنَّه نبَّه أوَّلاً على **ما يدلّ على المنع** من عبادة الأوثان. **ثُمَّ أمره** باتباعه في **النَّظر والاستدلال** وترك التَّقليد. **ثُمَّ** نبَّه على أنَّ **طاعة الشّطيان** غير جائزةٍ في **العقول**. **ثُمَّ ختم بالوعيد الزَّاجر** عن الإقدام على ما لا ينبغي. **ثُمَّ** إنَّه عليه السلام إنَّه أورد هذا الكلام الحسن **مقروناً**

---

(١) **مفاتيح الغيب** (١٣/ ٣٩-٤٧).

(٢) **النبأ العظيم** (ص١٥٠).

باللّطف والرِّفق، فإنَّ قوله في مقدمة كل كلام: ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾ دليلٌ على **شدّة الحبِّ والرَّغبة** في صونه عن العقاب وإرشاده إلى الصَّواب، وختم الكلام، بقوله: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ [مريم:٤٥]،[١] وهذا يدلّ -فضلاً عن مدى حبّه له وشفقته عليه- على **حُسْنِ أدبه** مع أبيه حين لم يُصرِّح بأنَّ العذاب لاحقٌ له، ولكنَّه قال: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ﴾ فذكر **الخوف والمسَّ**، وذكر العذاب ونكَّرَهُ، ولم يَصِفْهُ بأنَّه يَقْصِدُ التَّهْويل بل **قصد اسْتِعْطافه؛** ولِهَذا **ذكر الرَّحْمَن**، ولم يذكرِ **المُنتقِم ولا الجبَّار**.[٢] ومِن **الحِكم الدّعوية** المستفادة مِن الآيات، **أوَّلاً،** قضاء **حقِّ الأبوة،** على ما قال ﷻ: ﴿وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًا﴾ [الإسراء:٢٣] مِن أعظم الحقوق، والإرشاد إلى الدِّين مِن **أعظم أنواع الإحسان،** فإذا انضاف إليه **رعاية الأدب والرِّفق** كان ذلك نوراً على نورٍ. **ثانياً، الهادي إلى الحقِّ** لا بدَّ وأنْ يكون **رفيقاً لطيفاً،** يورد الكلام لا على سبيل العنف؛ لأنَّه يصير كالسَّبب في إعراض المستمع، فيكون ذلك في الحقيقة سعياً في الإغواء.[٣]

الخاصَّة الثَّانية، خطابُه للعامّة وللخاصّة.

وهما **غايتان مُتباعدتان، فمخاطبة الأذكياء** بالواضح المكشوف نزولٌ بهم إلى ما لا يرضونَه في الخطاب. **ومخاطبةُ العامّة** باللَّمحة والإشارة يكون **حديثاً** لهم بما **لا تعيه عقولُهم.** لهذا؛ إذا أُريد **إعطاءُ كلّ فريقٍ ما يناسبُه** مِن البيان، ينبغي أنْ يُخاطب كلّ حسبه. أمَّا أنْ **تُلقى جملةً** يُخاطب بها الجميع، يراها كلّ منهم **مقدّرَةً على مقياسِ عقلِه،** وعلى وفقِ حاجتِه؛ فذلك **ما لا تجده على أتَمِّه**

---

(١) مفاتيح الغيب (٢١/ ٥٤٤).

(٢) البرهان في علوم القرآن (٣/ ٣٨١).

(٣) مفاتيح الغيب (٢١/ ٥٤٥).

إلَّا في القرآن الكريم. **يراهُ البلغاءُ أوْفَى كلامٍ** بلطائفِ التَّعبيرِ، **كما يراهُ العامّة أحسن كلامٍ وأقربه إلى عقولِهم**، لا يلْتَوي على أفهامِهم، ولا يحتاجون فيه إلى تُرجمانٍ وراء وضعِ اللّغة، فهو **متعةُ العامّةِ والخاصّةِ** على السَّواءِ، ميسَّرٌ لكلِّ مَن أراد: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر:١٧].[١] مِن ذلك قوله ﷻ: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ [النَّمل:٥٩-٦٠].

فممَّا يفهمه العامّة: أنَّ الله ﷻ **يخاطبُ لوطاً** عليه السلام بأنْ قُل: الحَمْدُ للهِ على **هلاك كفار قومي**. أو الخطاب لرسولِ الله ﷺ، قُلِ: الحَمْدُ للهِ على **هلاك كفّار الأمم الخاليةِ**، وسلامٌ على الأنبياء الَّذينَ اصْطَفاهم لرسالاته. ثُمَّ قل **إلزاماً لهم بالحُجّة**: الذي صنع هذه **الأشياء خَيْرٌ، أَمَّا يُشْرِكونَ مِن الأصنام؟** أم الذي خَلَقَ السَّمواتِ والأَرْضَ، وأنْزَلَ لكم مِنَ السَّماءِ ماءً، فأنْبَتَ به حَدائِقَ ما قدِرْتُم أنْ تُنْبِتوا شجرَها، فهل مع الله ﷻ إلهٌ يُعينه على ذلك، أم هُمْ قَوْمٌ يشركون؟.[٢]

وممَّا يفهمه الخاصَّة، إبطال حتميّة ارتباط المُسَبَّبات بأسبابها، بدلالة عقليّة وحسيّة.

أمَّا العقليّة، فإذا كان **لا شُبْهَةَ لعاقِلٍ** في أنَّ خالقَ السَّمواتِ والأَرْضَ، ومُنْزِلَ الماءِ مِنَ السَّماءِ هو الله ﷻ، فلرُبّما عرضت شبْهةٌ بأنْ يقول قائلٌ: أنا الَّذي أُلْقِي البِذْرَة في الأرضِ وأسْقيها الماءَ... **وفاعِلُ السَّبَبِ فاعِلٌ للْمُسَبَّبِ،**

---

(١) **النبأ العظيم** (ص ١٥٠).

(٢) **الكشف والبيان عن تفسير القرآن** للثّعلبيّ (٧/ ٢١٨-٢١٩). **بحر العلوم** للسمرقنديّ (٢/ ٥٨٩).

فإذاً أنا المُنْبِتُ للشَّجَرَةِ. ولَمَّا كان هذا الاحْتمالُ قائِماً أزالَه **بالالتِفات**؛ حيثُ رجعَ **مِنَ الغَيْبَة إلى التَّكَلُّمِ** بصيغةِ التَّعْظيمِ في قوله: ﴿فَأَنۢبَتۡنَا﴾.

أمَّا الحسيّة: فالواقعُ المُشاهدُ يُثبتُ **بُطلانَ التَّلازمِ بين الأسبابِ والمُسبَّباتِ، وعدمَ حتميَّةِ حدوث المُسبَّبِ** بقيام سببه؛ لذلك قال ﷻ: ﴿مَّا كَانَ لَكُمۡ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآ﴾؛ لأنَّ الإنْسانَ قد يأْتي بالبَذْرِ والسَّقْيِ والكَرَبِ ثُمَّ لا **يأْتي على وِفْقِ مُرادِه**، فعندئذٍ لا يكونُ فاعلاً لها؛ فلهذه **النُّكْتَةِ حَسُنَ الالتِفاتُ هَهُنا**.(١)

الخاصَّة الثَّالثة، تكرارُ الألفاظ والمعاني.

التَّكرارُ للألفاظ والمعاني ظاهرةٌ بارزةٌ في البيان القرآنيّ. والتّكرار: منه **المذموم**، وهو ما كان مُسْتغنىً عنه، غيرَ مُسْتفادٍ به زيادة معنى **لم يفده الكلامُ الأوَّل**؛ لأنَّه حِينَئذٍ يكون **فضلاً مِن القول ولغْواً**. وليس في القرآن الكريم شيءٌ مِن هذا النَّوع. ومنه **غير المذموم**، وهو ما كان بخلاف هذه الصِّفة، فترك التّكرار في الموضع الذي يقتضيه وتدعو الحاجة إليه يُضارع **تكلُّف الزِّيادة** عند الحاجة **إلى** الحذف والاختصار. **ويُحتاج** إليه، **ويَحْسنُ استعمالُه** في الأمورِ التي **تعْظُمُ** العنايةُ بها، **وتتجدد** الفائدة مِن ذكرها. وقد أخبرَ ﷻ **بالسَّبب** الذي مِن **أجله** كرّر الأقاصيص والأخبار، بقوله: ﴿وَلَقَدۡ وَصَّلۡنَا لَهُمُ ٱلۡقَوۡلَ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص:٥١]، وقوله: ﴿وَصَرَّفۡنَا فِيهِ مِنَ ٱلۡوَعِيدِ لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ أَوۡ يُحۡدِثُ لَهُمۡ ذِكۡرٗا﴾ [طه:١١٣].

---

(١) **مفاتيح الغيب** (٢٤/ ٥٦٢-٥٦٣) ﴿فَأَنۢبَتۡنَا﴾ التفاتٌ مِن **الغيبة إلى التّكلّم** بنون العظمة، دالاً على اختصاصه بذلك، وأنَّه لم ينبت تلك الحدائق المختلفة الأصناف بماء واحدٍ إلَّا هو تعالى. وقد رشح هذا الاختصاص، بقوله: ﴿مَّا كَانَ لَكُمۡ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآ﴾. **البحر المحيط في التّفسير** (٨/ ٢٥٧).

وقد **تكرَّرت** آياتٌ بعينها في بعض السّور، كما في سورة «**الرَّحمن**» تكررت الآيَة: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ إحْدَى وثَلاثينَ مرّةً؛ حيثُ **خاطبَ** اللهُ ﷻ بها **الثَّقلين** مِن الإنسِ والجِنِّ، **وعدَّدَ عليهم** أنواع النِّعمة التي خلقها لهم، فَكُلّما ذكر فصلاً مِن **فصول النِّعم، جدَّدَ إقرارَهم به**، واقتضاءهم الشّكر عليه. قال أبو القاسم **الكَرمانيّ** (ت٥٠٥هـ): **كرَّر ثَمانِيَةً** مِنها ذُكرت عقيبَ آيات فيها تعدادُ عجائبِ خلقِ الله ﷻ، وبدائعُ صنعه، ومبدأُ الخلق ومعادهم. ثُمَّ **سَبْعَةً** مِنها عقيبَ آياتٍ فيها **ذكرُ النَّار** وشدائدها على عدد أبْواب جهنّم. وحَسُنَ ذكرُ الآلاء عقيبها؛ لأنَّ في **صرفها ودفعها** نِعماً توازي النِّعم المذكورَة، أو لأنَّها حلَّت بالأعداء، وذلك يُعَدّ أكبر النَّعماء. وبعد هذه السَّبْعَة **ثَمانِيَةٌ** في وصف **الجِنان وأهْلِها** على عدد أبْواب الجنَّة. **وثَمانِيَةٌ** أُخْرى بعدها للجنتين اللَّتَيْنِ دونهما، فمَن **اعْتقد الثَّمانِية الأولى**، وعمل بموجبها، اسْتحق كلتا **الثّمانيتين** مِن الله ﷻ، **ووَقاه** السَّبْعَة.[1]

فوائد تكرار القصص. ذكر الماوردي (ت٤١٥هـ) أنَّ **تكرار قصصه ووعده ووعيده** فلأسبابٍ مستفادةٍ، **منها: أنَّها في التَّكرار** أوكد، **وفي المبالغة** أزيد، **ومنها: أنَّها** تتغاير ألفاظها **فتكون إلى** القبول أسرع، **وفي الإعجاز** أبلغ، **ومنها: أنَّها إنْ أخلَّ بالوقوف عليها في موضعٍ أدركها في غيره، فلم يخلّ من رَغِبٍ ورَهبٍ.**[2] ومِن تلك الفوائد:

أوَّلاً، أنَّه إذا كرَّر القِصَّةَ **زادَ فيها شيئاً**، مِن ذلك أنَّه ذكر **الحيّةَ** في عصا

---

(١) **أسرار التَّكرار في القرآن** (ص٢٣١). ويُنظر: **بصائر ذوي التمييز**، الفيروزآبادي (١/ ٤٤٩). **فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن**، زكريا الأنصاري (ت٩٢٦هـ) (١/ ٥٤٤).

(٢) **أعلام النَّبوة** للماوردي (ص٧٦).

موسَى عليه السلام، وذكرَها في موضِعٍ آخر **ثُعْباناً**، ففائدَتُه أنْ **ليسَ كُلّ حَيَّةٍ ثُعباناً**. وهذه عادةُ البُلغاءِ أنْ يُكَرِّرَ أحدُهُم في آخِرِ خُطْبَتِه أو قصيدَتِه كلمةً **لِصفةٍ زائدَةٍ**. **ومِنْ أمثلةِ ما تكرَّر ذكره مع زياداتٍ وفروقٍ**، ما اشتملت عليه سورة «**طه**» مِن ذكرِ **رُؤْيَة موسَى** عليه السلام **النَّار**، وأمرِه **أهلَه** بالمكْثِ، وإخبارِهم أنَّه **آنس ناراً**، وأطمعهم بأنْ يأْتِيهم **بنارٍ يصْطلون** بها، أو **خبرٍ يهتدونَ به** إلى الطَّريق الذي ضلّوا عنه.(١) ونقص في «**النَّمْل**» ذكر رُؤْيَته **النَّار**، وأمرِ **أهله بالمكث**، اكتفاءً بِما تقدَّم.(٢) وزاد في «**القَصَص**» **قضاءَ** موسَى **الأجَل** المَضْروب، **وسيرَه بأهله** إلى مِصر.(٣) ففي «**طه**» فصَّل، وفي «**النَّمْل**» أجْملَ، ثُمَّ فصَّل في «**القَصَص**» وبالغ فيه.(٤)

ثانياً، أنَّ **إبْرازَ الكلامِ** الواحد في **فُنونٍ كثيرَةٍ** وأساليب مختلفَةٍ **لا يخفى ما فيه مِنَ الفَصاحةِ**، كما في قصّة موسى عليه السلام مع فرْعوْن، فقد يوجد في ألفاظِها **زيادةٌ ونُقْصانٌ وتقْديمٌ وتأْخيرٌ**، وكُلّ واحدةٍ فيها ما لا يُوقف عليه إلَّا منها. فكأنَّ اللهَ عزوجل **فَرَّقَ ذِكْرَ** ما دارَ بيْنهُما **وجعلَهُ أجزاءً في تاراتِ التَّكرار**؛ لتُوجد مُتفرِّقةً فيها. ولو جُمِعت تلكَ القصَصُ في موضعٍ واحدٍ **لأشْبَهَتْ** الكُتب المُتقدِّمة في **انفراد كُلِّ قِصّةٍ منها بموْضِعٍ**، كما وقعَ في قصةِ يوسُف عليه السلام. فاجتمعَتْ في

---

(١) في قوله عزوجل: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝٩ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى﴾ [طه:٩-١٠].

(٢) في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ [القصص:٢٩]

(٣) في قوله عزوجل: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ [النمل:٢٩].

(٤) **أسرار التَّكرار في القرآن** (ص١٧٣).

هذه الخاصِّيَّةِ – مِن نظْمِ القرآنِ – **عِدَّةُ معانٍ، منها:**

أنَّ التَّكرار فيها مع سائر الألفاظ لم يُوقِعْ في **اللَّفظِ هُجْنةً**، ولا **أحْدَثَ ملَلاً، فبايَنَ** بذلك كلام المخلوقين؛ حيث إنَّه يُلبسها **زِيادَةً ونُقْصاناً، وتقْديماً وتأْخيراً؛** لِيَخرج بذلك الكلامُ أنْ تكونَ **ألْفاظُه واحِدةً بأعيانها، فيكون شيئاً مُعاداً، فنزَّهَه** عن ذلك بهذه التَّغْييرات.

و**أنَّ المعاني** التي اشتملت عليها القصة **الواحدة** صارت **متفرقةً** في تارات التَّكرير، ما **يجدُ البليغ** معه – لِما فيها مِن التَّغيير – **ميلاً إلى سماعها؛** لِما جُبلت عليه النّفوس مِن **حُبِّ التَّجدد.**

وإخراجُ صورٍ متباينةٍ في النَّظم **بمعنى واحدٍ،** وقد كان المشركون يعجبون مِن **اتساع الأمر في تكرير القَصص** والأخبار مع تغاير **أنواع النَّظم،** فعرَّفهم القرآن أنَّ مردَّ **ذلك** إلى قُدرة مَن **لا حدَّ لعلمه، ولا نهاية لكلماته:** ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾ [الكهف:١٠٩].(١)

وأنَّه لا شُبهةَ في **تعاظُمِ النَّفعِ بتكريرِ الزَّجرِ والوعظِ،** وعظيمِ موقعه مِن النَّفس، وتوْفيقِه للقلب، والتَّثبيتِ على طاعةِ الله، والإذْكارِ لجنتهِ وناره، قال ﷻ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾ [الفرقان:٣٢]، فأخبر أنَّ إنزاله أجزاءً ونُجوماً، وتكرارَهُ عليه في الأوقاتِ المتراخيةِ تثبيتٌ لرسول الله ﷺ وللمؤمنين؛ لأنَّهم إذا سمِعوا ما أخبرَ اللهُ ﷻ مِن إهلاكه العاصينَ وتنجيَته المؤمنين كانوا أقربَ إلى طاعته وأشدَّ انزجاراً عن معصيته.(٢)

---

(١) **البرهان في علوم القرآن** (٣/ ٢٧-٢٨). يُنظر: **الانتصار للقرآن** للباقلّانيّ (٢/ ٨٠٣).

(٢) يُنظر: **الانتصار للقرآن** (٢/ ٨٠٠-٨٠٤).

الخاصّة الرّابعة، تداخل موضوعات القرآن الكريم وعدم تبويبها.

موضوعات القرآن الكريم متداخلةٌ غير مبوبةٍ، ينتقل مِن موضوعٍ إلى آخر مِن غير تمهيدٍ، أو يُدخل حدثاً في آخر مِن غير فصلٍ؛ لذلك قيل: قد **يُدْخلُ بين الكلامين** ما ليس مِن جنسِهما ولا قَبيلِهما، كقوله ﷻ: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾ [القيامة:١٦-١٧] **عَقيب** قوله: ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ﴾ [القيامة:١٤-١٥] **بين يدي** قوله: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ [القيامة:٢٠-٢١]. وليس ذلك **بالمُسْتحسَن ولا المختار** عند أهل البلاغة وأرباب البيان، بل الأحسن أنْ يكون الكلامُ **مفصَّلاً مقسوماً على أبوابه**. ولو كانت سورُ القرآن على هذا التَّرتيب، أخبارُ الأممِ وأقاصيصُهم في سورةٍ، والمواعظُ والأمثالُ في سورةٍ، والأحكامُ في أُخرى، لكان ذلك **أحسنَ في التَّرتيب**، وأعونَ على الحفظ، وأدلّ على المُراد...

وجواب ذلك: أنَّ القرآن نزل على هذه الصِّفة مِن **جمعِ أشياءَ مختلفةِ المعاني في السّورة الواحدة**، وفي الآية المجموعة القليلة العدد؛ **لتكْثُر فوائده، ويَعُمَّ نفعه**. ولو كان لكلِّ **بابٍ منه قَبيلٌ**، ولكلِّ معنىً سورةٌ مفردةٌ، **لم تَكْثرْ عوائده**، ولكان **الواحدُ مِن الكفَّار** والمعاندين المُنكرين له إذا سمع السّورة منه **لا تقومُ عليه الحجَّة إلَّا في النَّوع الذي تضمنته** تلك السّورةُ. لهذا كان **اجتماعُ المعاني الكثيرة** في السّورة الواحدة **أجدَى نفعاً مِن التَّمييز والتَّفريد. وليمتحنَ** الله ﷻ كذلك عبادَه، ويبلو طاعتَهم واجتهادَهم في **جَمعِ المتفرِّق** منه، وفي **تنزيلِه وترتيبِه**، لِيَرْفَع الَّذينَ آمَنوا وأُوتوا العلْم درجاتٍ.[1]

وثمَّة أمرٌ آخرُ، وهو أنَّ الغاية العظمى التي جاء القرآن لأجلها: **هدايةُ**

---

(١) **بيان إعجاز القرآن** (ص٤٠، ٥٤).

الخلقِ إلى الطّريق الحقِّ؛ فلو كانت **موضوعاتُه مُبوَّبةً** لاقتصر الكلامُ عنها في بابٍ واحدٍ، أمَا والأمرُ ليس كذلك، فإنَّ **التَّذكيرَ** بها تصريحاً، والإشارةَ إليها تلميحاً متناثرٌ بين موضوعات القرآن الكريم، ومتفرقٌ في سوره.(١)

الخاصَّة الخامسة، أداء فواصله دوراً وظيفيّاً.

جاءت فواصل الآيات متمكِّنةً غير قلقةٍ، لا يَحْسُن غيرها في موضعها، في أعْذَبِ مقطعٍ وأجمله، وأسهلِ موقفٍ وأحكمه.(٢) وفيما يأتي تعريفٌ بها، وبيانٌ لوظيفتها، مع التَّمثيل لها.

١) تعريف الفاصلة، في اللّغة: «فَصَلَ» كَلِمَةٌ تَدُلُّ على **تَمْييزِ الشَّيْء** مِن الشَّيْء وإِبانَتِهِ عنه. **والفاصِلةُ:** الخَرَزَةُ التي تَفْصلِ بين الخَرَزَتَيْنِ.(٣) وأَواخرُ الآيات في كتاب الله ﷻ فَواصِلُ، بمنزلة قَوافي الشِّعر، واحدتها فاصِلةٌ.(٤)

وفي **الاصطلاح**، عرَّفها **الزَّركشيّ** (ت٧٩٤هـ): بأنَّها كلمةٌ **آخِرَ الآيةِ**، كقافيةِ الشِّعر وقرينةِ السَّجعِ؛ لأنَّه ينفصلُ عندها الكلامان، وذلك أنَّ آخر الآية فَصْل بينها وبَيْنَ ما بعدَها.(٥) وأبو **عمرٍو الدَّانِيّ** (ت٤٤٤هـ): بأنَّها كَلِمَةٌ **آخِرَ**

---

(١) يُنظر: **من روائع القرآن** (ص ١٦٣) قال ابن جزي (**ت٧٤١هـ**): المقصود بالقرآن دعوة الخلق إلى عبادة الله ﷻ، وإلى الدّخول في دينه، ثُمَّ إنَّ هذا المقصد **يقتضي أمرين**، لا بدَّ منها، وإليهما ترجع معاني القرآن كلّه: **أحدهما**: بيان العبادة التي دُعي الخلق إليها، **والأخرى**: ذكر بواعث تبعثهم على الدَّخول فيها، وتردّدهم إليها، فأمَّا العبادة فتنقسم إلى نوعين، وهما أصول العقائد وأحكام الأعمال... **التّسهيل لعلوم التنزيل** (١/ ١٤).

(٢) يُنظر: **البرهان في علوم القرآن** (١/ ٤و٦٩).

(٣) **مقاييس اللّغة** (٤/ ٥٠٥). **المحكم والمحيط الأعظم** (٨/ ٣٢٩). **مختار الصحاح** (ص٢٤٠). **لسان العرب** (٥/ ٣٤٢٤).

(٤) **لسان العرب** (٥/ ٣٤٢٤).

(٥) **البرهان في علوم القرآن** (١/ ٥٣-٥٤).

الجُمْلَةِ. وهي ما يأتي بعد الكلام التّام المُنْفَصِل عمَّا بعده، سواءٌ كان رأس آيةٍ أو لم يكن. فكلّ **رأسِ آيَةٍ فاصلةٌ**، وليس كلّ **فاصلةٍ رأسَ آيَةٍ**، فالفاصلةُ **تَعمُّ النَّوْعَيْنِ**، وتجمعُ **الضَّربين**.(١) والمعنى **الأوَّل** هو **المُتبادَر** مِن المُصطلح، والمُراد عند الإطلاق، إلَّا أنَّ المعنى **الثَّاني لم يستبعده** العلماء عند بيانهم الأنواع والتَّمثيل لها، ما يعني أنّه **عند الإطلاق**، الفاصلةُ: هي **رؤوسُ الآيِ**، أيْ: نهايتها، وعند الشَّرح والبيان **تَعمّ النَّوْعَيْنِ**. وتظهر أهمية رأي **أبي عمرٍو الدّانيّ** في الآيات الطِّوال، كآية المُداينة، إذ تَكْثُر فيها الفواصل في مقاطع الآية، ما يستدعي توجيه المعنى وربطه بسياقه.

والفرق بين الفاصلة والسَّجع، بأنَّ الفواصلَ **حروفٌ متشاكلةٌ** في المقاطع توجبُ **حُسْنَ إفْهامِ المعاني**، والفواصل بلاغةٌ **تابعةٌ للمعاني**. **والأسجاعُ عيبٌ**؛ لأنَّ **المعاني تابعةٌ لها**، وهو خلاف ما توجبه الحكمة في الدَّلالة؛ إذ **الغرض** مِنها **الإبانة** عن المعاني التي تمسّ الحاجة إليها، فإذا كانت المُشاكلة **وصلةً إليه**، فهو بلاغةٌ، وإذا كانت في خلاف ذلك، فهو **عيبٌ ولُكْنةٌ**؛ لأنَّه **تَكَلّفٌ** مِن غير الوجه الذي توجبُه الحكمةُ.(٢)

٢) الدّور الوظيفي للفواصل، لفواصل آيات القرآن الكريم دورٌ وظيفيٌّ، مِن جهة لفظها ومِن جهة معناها. أمَّا **الوظيفة اللّفظيّة**: **فإيذانها بانتهاء الآية** وحُسنِ الوقوف عليها، وأداؤها **جمالاً إيقاعياً**؛ لذلك في الغالب **خُتِمَت بِحُروف المدِّ واللِّين**، وإلحاق **النُّونِ والميم** بها؛ للتَّمكينِ مِنَ **التَّطْريب بذلك**، فالعرب إذا **ترنَّموا** ألحقوا **الأَلِف والياءَ والنُّون**، **إرادة مدِّ الصّوت**، وتركوا ذلك

---

(١) **البيان في عدِّ آي القرآن** (ص١٢٦).

(٢) **النّكت في إعجاز القرآن**، الرّمانيّ (ص٩٧) ويُنظر: **إعجاز القرآن**، للباقلاني (ص٢٧٠).

إذا لم يترنَّموا. وقد جاءَ في القُرْآنِ على أسْهَلِ موْقِفٍ، وأعْذَبِ مَقْطَعٍ.[1] أمَا **الوظيفةُ المعنويةُ**: **فإضفاؤها معنى إضافيّاً** في الآية؛ إذ هي تبعٌ للمعنى، وليس العكس، كما في السَّجع المذمومِ، وهو ما كانت المعاني فيه تبعاً له.[2] وفيما يأتي تفصيلٌ لهذا الدّور من جهتيه: اللّفظيّة والمعنويّة.

أوَّلاً، الوظيفةُ اللفظيّةُ، الفواصل في القرآن الكريم على أنواعٍ، مِن جهة تماثل حروفها وتقاربها، ومِن جهة وزنها وتقْفِيتها.

١) مِن جهة تماثل الحروف وتقاربها، تنقسم إلى مُتماثلةٍ، ومُتقاربةٍ.

المُتَماثِلَةُ: ما اتفقت في الحرف الأخير، مِثْل: ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾ [طه:١-٣]، ﴿وَٱلطُّورِ ۝١ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ۝٢ فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ﴾ [الطور:١-٣].

المُتَقارِبَةُ: ما تجانست في مخرجها وجرْسِها، كالميم والنّون، في: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة:٢-٣] والدَّال والباء، في ﴿قٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾... إلى قوله: ﴿فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ﴾ [ق:١-٢].[3]

٢) مِن جهة وزنها وتقْفِيتها، تنقسم مِن الأعلى منزلةً إلى الأقلّ، وفق ما يأتي:

المُرَصَّعُ: أنْ تتَّفقا **وزناً وتقْفِيةً**، ويكون ما في الأولى **مُقابِلاً** لِمَا في الثَّانِيَةِ،

---

(١) **البرهان في علوم القرآن** (١/ ٦٩).

(٢) **خصائص التَّعبير القرآني وسماته البلاغيّة** (١/ ٢٢٥).

(٣) **النّكت في إعجاز القرآن** (ص٩٨). قال **الفخرُ الرَّازيّ**: "فواصِلُ القرْآنِ لا تخْرُج عن هذين القسمَيْنِ، بل تنحصِرُ في المتماثِلة والمُتَقارِبَة". **معترك الأقران في إعجاز القرآن** (١/ ٤٢).

نحْوَ: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾ [الغاشية:٢٥-٢٦] اتفقت الفاصلتان: «**إيابَهُمْ** و**حِسابَهُمْ**» وما في الأولى مقابلٌ لمَا في الثَّانية: «**إِلَيْنا** و**عَلَيْنا**» وزناً وتقْفِيةً.

المُتَوازي: أنْ **تتَّفِقا وزْناً وتَقْفيةً**، نحْوَ: ﴿فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ﴾ [الغاشية:١٣-١٤]، دون أنْ يكون ما في الأولى **مُقابِلاً** لِما في الثَّانِيَة في الوزْنِ والتَّقْفِيَة، فـ «سُرُرٌ وأَكْوابٌ» مُختلفتان وزناً وتقفية.

المُتَوازِنُ: أنْ **تتَّفِقا** في الوزن دونَ التَّقفية، نحْوَ: ﴿وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ﴾ [الغاشية:١٥-١٦]. فـ«مَصْفوفَةٌ و مَبْثوثَةٌ» **اتفقتا وزناً، واختلفتا** حروفاً.

المُطَرَّفُ: أنْ **تخْتَلِفا** في الوزن، **وتتّفِقا** في حروف القافية، نحْوَ: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ [نوح:١٣-١٤]. فـ «**وَقاراً** و**أَطْواراً**» مختلفتان وزناً: "فَعَالاً- أفْعالاً"، ومتفقتان حُروفاً.

المُتَماثِلُ: أنْ تتساويا في **الوَزْنِ دونَ التَّقْفيةِ**، وتكونَ أفرادُ الأولى مُقابِلَةً لِمَا في الثَّانيةِ، نحْوَ: ﴿وَءَاتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الصَّافات:١١٧-١١٨] فالكتابُ والصِّراطُ يتوازَنانِ، وكذا المُسْتَبِينُ والْمسْتَقيمُ، ويخْتَلِفان في الحرْفِ الأخيرِ.(١)

ثانياً، الوظيفة المعنوية للفواصل، وفيها بيانُ ائتلاف الفاصلة ومناسبتها مع ما يدلّ عليه الكلام، وذكرُ نُكاتٍ فيها.

١) ائتلاف الفواصل مع ما يدلّ عليه الكلام.

مِن المواضع التي يتأكد فيها إيقاعُ المناسبة، **مقاطعُ الكلام وأواخرهُ**،

(١) **البرهان** (١/ ٧٥ - ٧٦). **الإتقان** (٣/ ٣٥٦-٣٦٠).

وإيقاعُ الشَّيء فيها بما يُشاكله لابُدَّ أنْ تكون **مُناسبةً للمعنى المذكور أوَّلاً**، وإلَّا خرجَ بعض الكلام عن بعضٍ. وفواصل القرآن لا تخرج عن ذلك، لكنْ **منها ما يظهرُ** للعيان، ومنها ما **يُسْتخْرجُ بالتّأمل**. وهي منحصرة في أربعة أشياء: التَّمكين والتَّصدير والتَّوشيح والإيغال.(١)

أ- **التَّمكين**، أنْ يُمهدَ النَّاثرُ **للقرينة**، أو الشَّاعر للقافية تمهيداً تأتي به مُتمكّنةً **غير نافرةٍ ولا قلقةٍ، مُتعلِّقاً معناها** بما قبلها، **تَعلّقاً تامّاً**؛ بحيث لو **طُرِحت لاختلَّ المعنى**، واضطّرب الفهمُ، ولو سَكتَ عنها كمَّلَه السّامعُ بطبعه.(٢) وهذا الباب يُطلع القارئ على سرٍّ عظيمٍ مِن أسرار القرآن الكريم، **ومِن أمثلته:**

في قوله ﷻ: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ [الأحزاب:٢٥]؛ فلو اقتصر الكلام على قوله: ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾ لأوْهمَ ذلك - بعضهم - **موافقةَ الكفار** في اعتقادهم، أنَّ **الرِّيحَ** التي حدثت كانت **سبب رجوعهم** وعدم بلوغهم ما أرادوا. فأخبر ﷻ في **فاصلة الآية** عن نفسه بالقوة والعزّة؛ **ليُعْلمَ المؤمنين** ويزيدهم يقيناً وإيماناً على **أنَّه الغالبُ المُمْتنعُ**، وأنَّ حزبَه كذلك، وأنَّ تلك الرِّيح التي هبَّت **مِن إرساله** ﷻ على أعدائه، وأنَّه **يُنوِّع النَّصر** للمؤمنين؛ ليزيدهم إيماناً.(٣)

---

(١) **البرهان في علوم القرآن** (١/ ٧٨).

(٢) ويُسميه بعضهم ائتلاف القافية. **تحرير التّحبير** (ص٢٢٤). **خزانة الأدب** (٢/ ٤٤٦). **الإتقان** (٣/ ٣٤٥). **الكليات** (ص٣٠٢).

(٣) ينصرهم مرّة **بالقتال**، كيوم بدرٍ، وتارةً بالريح، كيوم الأحزاب، وتارةً بالرّعب، كبني النّضير، وطوراً **يَنْصرُ عليهم**، كيوم أُحدٍ؛ تعريفاً لهم أنَّ **الكثْرة** لا تُغني شيئاً، وأنَّ النَّصر مِن عنده، كيوم حُنين. **البرهان في علوم القرآن** (١/ ٧٩).

وقوله ﷻ: ﴿قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ [هود:٨٧]؛ فإنَّه لمَّا تقدَّم في الآية **ذِكْرُ العبادة**، وتلاه **ذِكْرُ التّصرّف في الأموال**، اقتضى ذلك **ذِكْرَ الحِلْم والرّشد** على التَّرتيب؛ لأنَّ **الحِلْمَ يناسبُ العبادات، والرّشدَ يناسبُ الأموال**.

وقوله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾ إلى قوله: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون:١٢-١٤]، ففي هذه الفاصلة **التَّمكينُ التَّام المناسب لِمَا قبلها**. وحين أملى رسول الله ﷺ على زيد بن ثابت: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾، بادر معاذٌ رضي الله عنه إلى القول: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾، فضحكَ رسول الله ﷺ، فقال معاذ: «مِمَّ ضَحِكْتَ يا رَسولَ اللهِ؟ قال: بِها خُتِمَتْ».(١)

وحُكِيَ أنَّ **أعرابياً** لمَّا **سمع** قارئاً يقرأ: ﴿فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ [البقرة:٢٠٩] ثُمَّ ختمها بـ «فاعْلَموا أَنَّ اللهَ **غفورٌ رَحيمٌ**»، ولم يكن يقرأ القرآن، **قال**: إنْ كان هذا كلامُ الله **فلا يقول كذا**. ومرَّ بهما رجلٌ، فأخبرهما أنَّ فاصلة الآية: ﴿فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ فقال: **هكذا ينبغي**، الحكيمُ **لا يذكر الغُفران عند الزّلل**؛ لأنّه إغراءٌ عليه.(٢)

ب- التَّصدير، أنْ تكون تلك **اللّفظة بعينها تقدّمت** في **أوَّل** الآية، ويُسمى أيضاً: ردَّ العَجُز على الصَّدر، وهو **ثلاثةُ أقسامٍ**:

الأوَّل، أنْ **يوافقَ آخرُ الفاصلة آخرَ كلمةٍ** في الصَّدر، نحو: ﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء:١٦٦].

---

(١) **المعجم الأوسط** (٤٨١٣). قال الهيثمي: فيهِ جابِرٌ الْجُعْفِيُّ ضَعيفٌ، وَقَدْ وُثِّقَ، وَبَقِيَّةُ رِجالِهِ ثقات. **مجمع الزّوائد** (٧/ ٧٢).

(٢) **الإتقان في علوم القرآن** (٣/ ٣٤٧).

الثَّاني، أنْ يوافقَ أوَّل كلمة منه، نحْوَ: ﴿وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾ [آل عمران:٨].

الثَّالث، أنْ يوافقَ بعض كلماته، نحْوَ: ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الأنعام:١٠] ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾ [نوح:١٠].

ج- **التَّوشيح**: أنْ يكون في أوَّل الكلام ما **يستلزمُ القافيةَ**. والفرق بينه وبين التَّصدير: أنَّ الأوّل **دلالتُه معنويةٌ**، والثّاني **لفظيةٌ**، كقوله ﷻ: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران:٣٣]؛ فإنَّ «**اصْطَفَى**» لا يدلّ على أنَّ الفاصلة: «**العالَمينَ**» **باللَّفظ**؛ لأنَّ لفظ «الْعالَمينَ» **غيرُ لفظ** «اصْطَفَى» ولكن بالمعنى؛ لأنَّ مِن **لوازم اصطفاء شيءٍ** أنْ يكون **مُخْتاراً** على جنسه، **وجنسُ** هؤلاء المُصْطَفَيْنَ **العالِمون. وكقوله** ﷻ: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾ [يس:٣٧]، فمن كان حافظاً لهذه السّورة، مُتفطِّناً إلى أنَّ مقاطع آيها «**النّون**» المُرْدَفةُ، وسمعَ في صدر الآية **انسلاخَ** النَّهار مِن اللّيل، **علم أنَّ الفاصلة**: «**مُظْلِمونَ**»؛[1] لأنَّ **مَن انسلخ** النَّهارُ عن ليله **أظلمَ**، أيْ: دخل في الظّلمة؛ ولذلك **سُميَ توشيحاً**؛ لأنَّ الكلام لمَّا **دلَّ أوَّله على آخره**، نُزِّل المعنى منزلةَ الوِشاح،[2] ونُزِّل أوَّلُ الكلام وآخره منزلة **العاتق والكشْح** اللَّذَيْن يَجول عليها الوِشاح.[3]

د- **الإيغال**: ختمُ الكَلام بما يُفيد نُكْتَةً **يتمّ المَعْنى دونِها** زيادةً في **المبالغة**،

---

(١) **تحرير التّحبير في صناعة الشّعر والنّثر** (ص ٢٢٨).

(٢) الكشح: ما بين الخاصرة إلى الضِّلع. والعتق: ما بين المَنْكب والعُنُق.

(٣) **الإتقان** (٣/ ٣٥٥). ويُنظر: **البرهان** (١/ ٩٥).

أو **التّوكيد**، أو **البيان** والوضوح.[1] مِن ذلك، قوله ﷻ: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٢٠ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾ [يس:٢٠-٢١]، فـ «**وَهُمْ مُهْتَدونَ**» **إيغالٌ**؛ لأنَّ **المعنى يتمّ دونه، إذ الرَّسولُ مهتدٍ لا محالة، لكن فيه زيادةُ مبالغةٍ في الحثِّ على اتِّباع الرّسل والتَّرغيب فيه. وقوله** ﷻ: ﴿وَلَا تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوۡاْ مُدۡبِرِينَ﴾ [النمل:٨٠]؛ فـ «**إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ**» **زائدٌ** على المعنى، **مبالغةً في** عدم انتفاعهم. وقوله ﷻ: ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكۡمٗا لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة:٥٠]؛ فـ «لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ» زائدٌ على المعنى **لمدح المؤمنين، والتَّعريض** بالذَّم لليهود، وأنَّهم بعيدون عن الإيقان.[2]

٢) مِن النّكات في فواصل الآيات:

أ- اجتماع الفواصل في موضعٍ واحدٍ والمخالفة بينها، مِن ذلك **قول** الله ﷻ: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖۚ قَلِيلٗا مَّا تُؤۡمِنُونَ ٤١ وَلَا بِقَوۡلِ كَاهِنٖۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الحاقة:٤١-٤٢] ختمَ **الأولى** بـ «تُؤْمِنونَ»، **والثَّانية** بـ «تَذَكَّرونَ»؛ **ووجهه** أنَّ

---

(١) **الصّناعتين** (ص٣٨٠). **الإيضاح في علوم البلاغة** (٣/ ٢٠٢). **خزانة الأدب** (١/ ٢٤٤). قد تختلط هذه الأبواب "الإيغال، والتّذييل، والتّمكين، والتّكميل" على بعضهم. أمَّا **الإيغال**، فلا يكون إلَّا في الكلمة التي فيها **الرّوي وما يتعلق بها**، وهو يأتي بعد تمام المعنى، كالتّكميل والتّذييل. **وأمَّا التَّمكين**، فيفارق هذه الأبواب مِن كونه عبارةً عن **استقرار القافية** في مكانها، من غير أنْ تزيد في المعنى، ومتى **حُذفت نقص المعنى**. أمَّا **التّكميل**، وإنْ أتى بعد تمام المعنى، فهو يفارق الإيغال مِن وجهين، **أحدهما**: كونه يأتي في الحشو والمقاطع، والإيغال والتّذييل لا يكونان إلّا **في المقاطع** دون الحشو. **والإيغال والتَّذييل** لا يخرجان عن معنى الكلام المُتقدِّم، **والتّكميل** لا بدّ أنْ يأتي بمعنى يُكمل الغرض. **والتّذييل يُفارق الإيغال**، لكونه يزيد على الكلمة التي تُسمى إيغالاً، ويستوعب غالباً عجز البيت. **تحرير التّحبير** (ص٣٩١).

(٢) **الإتقان** (٣/ ٣٤٥ - ٢٥٠).

مخالفةَ القرآن لنظم الشِّعر ظاهرةٌ لا تخْفى على أحدٍ، فقول مَن قال: شعرٌ، **كفرٌ وعنادٌ** محضٌ، فناسب ختمَه، بـ «**قَليلًا ما تُؤْمِنونَ**». وأمَّا مخالفته **لنظم الكُهان** وألفاظ السِّجع، **فتحتاج إل تَذكّر وتَدبّر**؛ لأنَّ كليهما نثرٌ، ومخالفتُه له ليست في وضوحها لكلّ أحدٍ، تظهر **بتدبّرِ ما في القرآن** مِن البلاغة والبدائع والمعاني الأنيقة، فحَسُن ختمُه بـ «قَليلًا ما تَذَكَّرونَ».

ب- ومِن بديعِ هذا النّوعِ، اختلافُ فاصلتين في موضعين، والمُحدَّثُ عنه **واحدٌ؛ لنُكتةٍ لطيفةٍ**، كقوله ﷻ في سورة **الجاثية**: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ [الجاثية:١٥]، وفي "**فُصِّلت**" ختمَ بـ ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت:٤٦]؛ **ونكتة ذلك** أنَّ **قبل الآية الأولى**، قوله ﷻ: ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِىَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [الجاثية:١٤]، فناسبَ **الخِتامَ بفاصلة البعث**؛ لأنَّ قبله **وصفهم بإنكاره**. وأمَّا **الثَّانية، فالختام فيها مناسبٌ**؛ لأنَّه لا يُضيعُ عملاً صالحاً، ولا يزيد على مَن عملَ شيئاً.(١)

ج- ومِن الفواصل ما يُشْكِلُ ظاهرُها، كما في قوله ﷻ: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [المائدة:١١٨]، فقوله: «**وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ**» الظّاهر يقتضي أنْ تكون الفاصلةُ: «**الغفور الرّحيم**». وقد **ذُكر في حكمته** أنَّ مَن **استحقّ العذاب لا يملك** أنْ **يغفر له** إلَّا مَن **ليس فوقه** أحدٌ **يردُ عليه حُكمَه، وهو العزيزُ** – الغالبُ – **والحكيم** الذي يضع الشّيء في محلِّه. ولأنَّ وجه الحكمة قد يخفى على بعضهم، كان في الوصف بـ "**الحكيم**" **احتراسٌ حسنٌ**،

---

(١) **البرهان (١/ ٨٧) الإتقان (٣/ ٣٥٢).**

أيْ: وإنْ تغفر لهم - **مع استحقاقهم العذاب** - فلا مُعترَضَ عليك لأحدٍ في ذلك، والحكمةُ فيما فعلتَه.[1]

الخاصّة السَّادسة، ارتباط آيه بعضها ببعضٍ.

أوَّلُ ما ينبغي البحثُ فيه، النَّظرَ في كلّ آية عن كونها مُكملةً لما قبلَها أو مستقلّةً، ثُمَّ المستقلّةُ، ما وجه مناسبتها لما قبلَها؟.[2] فالآيات مِنها **ما يظهر ارتباطها** بعضها ببعضٍ؛ **لتعلق الكلام** بعضه ببعضٍ وعدم تمامه بالأولى، أو لأنَّ **الثَّانية جاءت** على **جهة التَّأكيد** والتّفسير **للأولى**، أو **الاعتراض والتَّشديد**، وهذا واضحٌ لا كلام فيه. ومِنها **ما لا يظهر ارتباطها**، بل يظهر أنَّ كلّ آيةٍ **مستقلةٌ** عن الأُخرى. وهذا النّوع إمَّا أنْ يكون **الرَّابط فيه لفظياً**، وإمَّا أنْ **يكون معنوياً**.

القسم الأوَّل: ما كان الرَّابط فيه **لفظياً**، بأنْ تكونَ **الجُملةُ معطوفةً**، ولا بد أنْ تكون بينهما **جهةٌ جامعةٌ**، كقوله ﷻ: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ [سبأ:٢]، وقوله ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة:٢٤٥]، وفائدةُ العطف: **جعلهما كالنَّظيرين والشَّريكين**.

وقد تكون **العلاقة بينهما المُضَّادة**، كمناسبة **ذكر الرّحمة** بعد **ذكر العذاب**، **والرّغبة** بعد **الرّهبة**، **وعادة القرآن** العظيم إذا ذَكر أحكاماً، ذكر بعدها **وَعْداً ووعيداً**؛ ليكونَ ذلك **باعثاً على العمل** بما سبق، ثُمَّ يذكرُ آياتِ **التَوحيد والتّنزيه**؛ **لِيُعْلَمَ عِظَمُ الأمر والنَّهي**.

وقد تأتي الجملة **معطوفةً** على **ما قبلها**، **ويُشْكِلُ وجهُ الارتباطِ**، فتحتاج

---

(١) يُنظر: **البرهان** (١/ ٧٨-٩١) **الإتقان** (٣/ ٣٤٧-٣٥٢).

(٢) **البرهان** (١/ ٣٧).

إلى شرحٍ، مِن ذلك: قوله ﷻ: ﴿سُبْحَانَ ٱلَّذِيٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ إلى أنْ قال: ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ [الإسراء:١-٢]، فقد يُقال: **أيّ رابطٍ بين الإسراء** و﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾؟ **والتَّقدير: أطلعناه** على الغيب **عياناً، وأخبرناه** بوقائع مَن سَلَفَ **بياناً؛ لتقوم أخبارُه** على **معجزته بُرهاناً**. أيْ: سبحان الذي **أطلعك** على بعض **آياته؛ لتقُصّها ذكراً**، وأُخبرك بما جرى لموسى عليه السلام وقومه في **الكَرَّتين؛** لتكون قصّتهُما **آيةً أُخرى**.

ثُمَّ ذكر بعده: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء:٣]؛ **ليتذكرَ بنو إسرائيل** نعمةَ الله عليهم **قديماً؛** حيث نجّاهم مِن الغرق، **إذْ** لو لم **ينْجِ أباهم** - مِن أبناء نوحٍ عليه السلام - **لَما وُجِدوا**. وأخبرهم أنَّ نوحاً كان **عبداً شكوراً، وهم ذريتُه، والولد سرّ أبيه، فيجب** أنْ يكونوا **شاكرين كأبيهم**، ويسيروا سيرتَه، **فيشكُروا**.

وتأمل كيف **أثنى عليه**، وكيف **تليقُ صفته بالفاصلة؟** - ﴿عَبْدًا شَكُورًا﴾ - ويتمّ **النّظمُ بها**، مع خروجها **مخرجَ المرور** عن الكلام الأوَّل إلى ذكره **ومدحه**، وأنْ يعتقدوا **تعظيمَ تخليصه** إيَّاهم مِن **الطّوفان، بما حمَلهم عليه**، ونجَّاهم منه، حين أهلك غيرهم، **مُعرِّفاً إيَّاهم** أنَّه إنَّما يُؤاخذُهم بذنوبهم وفسادهم فيما سلَّطَ عليهم مَنْ قتَلَهم.

ثُمَّ ذكر الله جل جلاله بعد ذلك - في ثلاثِ آياتٍ - **معنى هذه القِصةِ**، بكلماتٍ **قليلةِ العددِ، كثيرةِ الفوائدِ**، مع ما اشتمل عليه مِن **التَّدريج والموعظة**، بقوله: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ [الإسراء:٧]، ولم **ينقطع** بذلك **نظام الكلام** إلى أنْ خرج إلى قوله: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾ [الإسراء:٨]، يعني: إنْ **عُدْتم إلى الطَّاعة** عُدْنا إلى العفو.

القسم الثَّاني: ما كان **الرَّابط فيه معنوياً**، بأنْ لا تكون **الجملةُ معطوفةً**، فحينئذٍ لابدَّ مِن **دعامة تُؤْذِنُ باتصال الكلام**، وهي **قرائنُ معنويةٌ** مُؤْذنةٌ بالرَّبط، تنزلُ الثَّانيةُ مِن الأولى منزلة **جُزئها الثَّاني، وله أسبابٌ**:

أحدُها: **التَّنظير**، وهو إلحاق **النَّظير بالنَّظير**، أيْ الشَّبيه، وهو مِن دأبِ العُقلاء. مِن أمثلته قوله ﷻ: ﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ﴾ [الأنفال:٥]، عَقِبَ قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗا﴾ [الأنفال:٤]؛ فإنَّ الله ﷻ أمرَ رسوله **أنْ يمضيَ لأمره في الغنائم** على كُرْهٍ مِن أصحابه، كما مضى لأمره **في خروجه مِن بيته** لطلب العير أو القتال **وهم كارهون. والقصد** أنَّ كراهتهم لِمَا فعله **مِن قسمة الغنائم، ككراهتِهم للخروج**، وقد **تبيَّن في الخروج الخيرُ** -مِن الظَّفر والنّصر والغنيمة وعزِّ الإسلام- فكذا **يكون فيما فعله في القسمة، فليُطيعوا** ما أُمروا به، **ويتركوا** هوى أنفسهم.[1]

الثَّاني: **المُضَّادة**، مِن الضِّدِّ، المخالف أو المعارض، كقوله ﷻ في سورة البقرة [آية:٦]: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾؛ فإنَّ أوَّل السّورة كان **حديثاً عن القرآن** الكريم، وأنَّ مِن شأنه كيتَ وكيتَ، وأنَّه لا يهدي القوم الَّذين مِن **صفاتهم كيتَ وكيتَ**، فرجع إلى **الحديث عن المؤمنين**، فلمَّا أكمله،[2] **عقَّب** بما هو حديثٌ عن **الكفّار**. فبينهما **جامعٌ وهميٌ بالتَّضاد** مِن هذا الوجه، وحكمته **التَّشويق والثّبوت على الأوَّل**، كما قيل: وبضدها تتبيَّنُ الأشياءُ. **فإنْ قيل**: هذا **جامعٌ بعيدٌ**؛ لأنَّ كونَه حديثاً عن المؤمنين **بالعَرَض لا بالذَّات، والمقصودُ بالذَّات** - الذي هو مساقُ الكلام - **الحديثُ عن الكتاب**؛

---

(١) **الإتقان** (٣/ ٣٧٢) وينظر: **البرهان في علوم القرآن** (١/ ٤٧).

(٢) وذلك قوله: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾... الآية [البقرة:٢-٣].

لأنَّه مُفتتحُ القول. **وجوابه**: لا يُشترط في الجامع ذلك، بل **يكفي التّعلق** على **أيِّ وجهٍ كان**، ويكفي في وجهِ الرَّبط ما ذُكِر؛ لأنَّ القصدَ تأكيدُ أمرِ القرآنِ، والعملُ بهِ، والحثّ على الإيمان به؛ ولهذا لمَّا فرغ مِن ذلك، قال: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ الآية [البقرة:٢٣]، فرجع إلى الأوَّل.

الثَّالث: الاستطراد، وهو ذِكرُ الشَّيء **في غير موضعه**.[١] مِن ذلك قوله ﷻ: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِي سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأعراف:٢٦] فهذه الآية واردةٌ على **سبيل الاستطراد، عَقِب ذكر** بُدو السّوءات، وخصف الورق عليها؛[٢] **إظهاراً للمنَّة** فيما خلق الله ﷻ مِن اللِّباس، ولِما في **العُري وكشفِ العورة** مِن **المَهانة والفضيحة**؛ وإشعاراً بأنَّ **السِّترَ بابٌ عظيمٌ** مِن أبواب التَّقوى.[٣]

ومِن **أوجه الرّبط المعنوية**:

الانتقال مِن حديث إلى آخرَ؛ **تنشيطاً للسَّامع**، والرَّبط بين الحديثين **باسم الإشارة**، ومثاله: أنَّه لمّا **تحدّث** عن بعض الأنبياء في سورة «ص»: ﴿وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾ **ختمَ**، بقوله: ﴿هَٰذَا ذِكْرٌ ۚ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ [٤٩]، فقوله: ﴿هَٰذَا ذِكْرٌ﴾ يشير به إلى **ذكر الأنبياء، ثُم يَشْرعُ في** ذكر الجنَّة: ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ﴾ [٥٠]، **وبعد ذلك** في ذكر النَّار، فيقول: ﴿هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا﴾ [٥٥-٥٦]. فقد أكدَّ تلك

---

(١) **التوقيف على مهمات التعاريف** (ص ٤٨).

(٢) وهو قوله: ﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٢٢].

(٣) **الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل** (٢/ ٩٧). **البرهان** (١/ ٤٩). **الإتقان** (٣/ ٣٧٣).

الإخباريات باسم الإشارة، تقول: أشيرُ عليك بكذا، ثُمَّ تقول بعده: **هذا الذي عندي،** والأمر إليك، أيْ: هذه هي الجنَّة ونعيمها، وتلك هي النَّار وجحيمها، فاختاروا أيّ الطّريقين شئتم.(١)

وَيقرُب منه حسنُ المْطلب، وهُوَ أَن يخرج إِلى الغَرَض **بعد تقدُّم الوسيلَة،** كقوله ﷻ في سورَة الفاتِحَة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، بعد أنْ قدَّم قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة:٢-٤].(٢)

وقد يكون اللّفظ متصلاً بالآخر والمعنى على خلافه، كقوله ﷻ: ﴿وَلَئِنْ أَصَٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ﴾ [النساء:٧٣]، فقوله: ﴿كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ﴾ منظومٌ بقوله: ﴿قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا﴾ [النساء:٧٢]؛ لأنَّه **موضع الشَّماتة.**

وممَّا يحتمل الاتصال والانقطاع قوله ﷻ: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ [النور:٣٦] يحتمل أنْ يكون متصلاً بقوله: ﴿فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ [النور:٣٥]، أيْ **المصباح في بيوتٍ،** ويكون تمامه: ﴿وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾، و«يُسَبِّحُ لَهُ فيها رجالٌ»: **صفة للبيوت.** ويحتملُ أنْ يكون- ﴿فِي بُيُوتٍ﴾ منقطعاً عمَّا سبقه - خبراً لقوله: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ﴾ [النور:٣٧].(٣)

---

(١) **البرهان** (١/ ٣٧). وُينظر: **الإتقان** (٣/ ٣٧٥). **الأصلان في علوم القرآن** (ص ٦٢).

(٢) **الإتقان في علوم القرآن** (٣/ ٣٧٥).

(٣) اختلف في تعليق الجار والمجرور: «في بُيوتٍ» لطول الفصل. قيل: متعلقان بصفة للمشكاة، وقيل: بصفة للمصباح، وقيل: متعلقان بالفعل "يوقد" وقيل: بمحذوف تقديره: «سبحوه في بيوتٍ». **الجدول في إعراب القرآن** (١٨/ ٢٦٨).

ولا يخفى انقطاع قوله ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ الآية [غافر:٧] عن قوله: ﴿أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ [غافر:٦]؛ لذلك ينبغي الوقف على "**النَّار**" ثُمَّ الابتداء بما بعده لئلَّا يوهم النَّعت.(١) ومثله قوله ﷻ: ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ﴾ [المائدة:٣١]، عن قوله: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ [المائدة:٣٢].(٢)

الخاصَّة السَّابعة، ضربُ الأمثالِ في القرآن الكريم.

المَثَلُ في الأصل بمعنى "المِثْل والنَّظير"، ثُمَّ أُطْلقَ على القولِ السَّائر الذي يتناقله النَّاس ويتداولونه، **واستعيرُ** لكلّ حالٍ أو صفةٍ أو قصةٍ لها **شأنٌ عجيبٌ** مِن غير أنْ يُلاحَظ بينها **وبين شيءٍ آخرَ تشبيهٌ**، ومنه قوله ﷻ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النَّحل:٦٠] أيْ: الوصفُ الذي له شأنٌ عظيمٌ وخطرٌ جليلٌ، وقوله ﷻ: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [الرعد:٣٥] أيْ قصتها العجيبةُ الشَّأن.(٣)

أوَّلاً، تعريف المثل، وفوائد ضربه، وأغراضه.

عُرِّف المثل، بأنَّه قولٌ شُبِّهَ مَضْرِبُهُ بِمَوْرِدِه. **ومَضْرِبُهُ**: هو الحالةُ المُشَبَّهَةُ؛ سُمِّيَتْ مَضْرِباً؛ لأنَّها بمنزلة مكان ضربِ ذلك القول، أي النّطق به. **وموْرِدُه**: هو الحالةُ المُشبَّهُ بها، وهي التي ورد ذلك القول عند حدوثها؛ سُمِّيَتْ مَوْرداً؛ لأنَّها

---

(١) **إبراز المعاني من حرز الأماني** (٢/ ٥٦٦) **النَّشر في القراءات العشر** (١/ ٨٠٦).

(٢) يُنظر: **البرهان** (١/ ٥١-٥٢) والمعنى: مِن أجل ذلك الذي ذكرنا في أثناء القِصةِ مِن أنواع المفاسد المُتولِّدةِ مِن القتل العمد العُدْوانِ شرعنا القَصاصَ في حقِّ القاتلِ. **مفاتيح الغيب** (١١/ ٣٤٣).

(٣) **إرشاد العقل السَّليم** (١/ ٥٠) ويُنظر: **المفردات في غريب القرآن** (ص ١٧٥٩).

بمنزلة مكان الماءِ الذي يَرِدُهُ المُسْتَقونَ.[1]

والأمثال أحدُ أساليبِ البيانِ وفنون التَّعبير، ذكرَ العلماءُ **فوائدَ** لضربِها في القرآن، **مِن ذلك**: التَّذْكيرُ والوَعْظُ والحَثُّ والزَّجْرُ والاعتبارُ والتَّقريرُ، وتعْليمُ البيان، وهُوَ مِنْ خَصائِصِ هذه الشَّريعَةِ. والمَثَلُ أعْوَنُ شَيْءٍ على البيانِ،[2] قال ﷻ: ﴿وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [إبراهيم:٤٥]، فامتنَّ علينا ﷻ بذلك لِما تضمنته مِن الفوائد.[3]

ومِن أغراضه في القرآن الكريم، **تَشْبيهُ شَيْءٍ بِشَيْءٍ** في حُكْمِه.[4] **وتُصَويرُ المعانِيَ بِصُورَةِ أشياءَ محسوسةٍ**؛ لأنَّها أثْبَتُ في الأذْهان؛ لاستعانته فيها بالحَواسِّ.[5] وكشْفُ المعاني. **وإدْناءُ المُتوَهَّمِ** مِنَ الشَّاهد. **وتَبْكِيتُ الخَصْمِ الألدِّ**. وقمعُ سَوْرَةِ **الجامِحِ الآبيّ**؛ لأنَّهُ يُؤثِّرُ في القلوب ما لا يُؤثر وصْفُ الشَّيْء في نفْسِه؛ لذلِك كَثُرَتْ في الكتب السَّماوية، وفشَتْ في كلامِ الأنبياءِ والحُكماءِ.[6]

ثانياً، أنواع الأمثال في القرآن الكريم. وهي ثلاثة أنواعٍ:

١) المُصرَّحةُ، وهي التي صُرِّح فيها بلفظ المثَل، أو ما يدلّ على التَّشبيه، وهي كثيرةٌ، مِنها قوله ﷻ في حقِّ المنافقين: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ

---

(١) **التَّحرير والتَّنوير** (١/ ٣٠٧).

(٢) **البرهان في علوم القرآن** (١/ ٤٨٧).

(٣) **الإتقان** (٤/ ٤٥).

(٤) **أمثال القرآن** (٢/ ٢). **إعلام الموقعين عن ربِّ العالمين** (١/ ١١٦).

(٥) **الإتقان** (٤/ ٤٥).

(٦) **الكشاف** (١/ ٧٢ و١٣٩).

نَارًا ﴾... إلى قوله: ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ ﴾ [البقرة:١٧-١٨]. ضرب فيها للمُنافقين مَثَلَيْن: بالنَّار وبالمطر.

٢) **الكامنةُ**، وهي التي لم يُصرَّح فيها بلفظ التَّمثيل، ولكنَّها تدلّ على معانٍ رائعةٍ في إيجازٍ، يكون لها وقعُها إذا نُقِلت إلى ما يُشبِهُها، ويُمثّلون لهذا النَّوع بأمثلةٍ، مِنها:

ما في معنى قولهم: "**خيرُ الأمور أوساطُها**": قولُه ﷻ في **البقرة**: ﴿لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ﴾ [البقرة:٦٨] وقولُه ﷻ في **النَّفقة**: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾ [الفرقان:٦٧]. وقولُه ﷻ في **الإنفاق**: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ ﴾ [الإسراء:٢٩].

ما في معنى قولهم: "**ليس الخبر كالمُعاينَة**": قولُه ﷻ في إبْراهيم عليه السلام: ﴿قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ﴾ [البقرة:٢٦٠].

ما في معنى قولهم: "**كما تَدينُ تُدان**": قولُه ﷻ: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ [النساء:١٢٣].

٣) **المُرسلةُ**، وهي جُملٌ أرسلت مِن غير **تصريحٍ بلفظِ التَّشبيه**. وهي جاريةٌ مجرى الأمثال. مِن ذلك: ﴿ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ﴾ [يوسف:٥١] ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾ [النَّجم:٥٨] ﴿قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ [يوسف:٤١] ﴿أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴾ [هود:٨١] ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ﴾ [فاطر:٤٣] ﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ ﴾ [الإسراء:٨٤] ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ [البقرة:٢١٦] ﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾ [المدثر:٣٨].

الخاصَّة الثَّامنة، التَّخييل والتَّصوير في القرآن الكريم.

التَّخييل: تصوير الشّيء حتّى يُتَوَهم أنَّه ذو صورةٍ لها مظهرٌ في العيان، كقوله ﷻ: ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ [الصافات:٦٥]، **فالبيان القرآنيّ لا** يقتصر على نقلِ معانٍ اعتباريّةٍ مجرَّدةٍ يدركُها العقلُ، بل يجعلها **صورةً حيَّةً** متحركةً **تمرُّ بخيال القارئ**، وتلامسُ أحاسيسَه. **وألفاظُ القرآن** الكريم ليست تلك الحروفُ التي لا تدلّ إلَّا على المعنى، بل هي **ينبوعٌ يفيضُ بالصّور** والأحاسيس والألوان.

والتَّصوير القرآنيّ يتدرجُ في مظاهرَ متعدّدةٍ، ووسائل مختلفةٍ، قد تجدها **مجتمعةً** في نصٍّ واحدٍ، وقد **تجدُ بعضها متفرقاً** في نصوصٍ متعدّدةٍ. وله ثلاثة مظاهر، ووسيلتان: قريبة وبعيدةٌ. **أمَّا مظاهره**، فهي:

١- **إخراجُ مدلولِ اللّفظِ** مِن دائرةِ المعنى **المجرَّد** إلى **الصّورة المحسوسة** والمتخيَّلة.

٢- **تحويلُ الصُّور** مِن شكلٍ **صامتٍ** إلى منظرٍ حَيٍّ **مُتحركٍ**.

٣- **تضخيمُ المنظر وتجسيمه** حين يقتضي المشهد ذلك.

أمَّا وسيلته القريبة، فلا تعدو أنْ تكون **استعارةً أو مجازاً مرسلاً، أو تشبيهاً وتمثيلاً**. وهذه الوسائل التي وضِع عليها علم البيان إنَّما هي **قواعدُ استُخْلصِت واستُنْبطت** مِن **التَّصوير** الذي انطوى عليه أسلوب القرآن الكريم؛ فهو **الأساس لهذه القواعد** وليس العكس كما قد يُتوهَّم.

أمَّا البعيدة، فهي **الكيفيّة اللّطيفة** التي **تتألفُ الكلماتُ على وفقِها**، وتتناسقُ **الحروف والحركات** وما يتبعها مِن **مدودٍ وشدّاتٍ** على أساسها، فتخرج الكلمة

والجملة في قالب مِن اللَّفظ وطريقةِ الأداء **يبثُّ** في الخيال **صورةً مجسّمةً** حيّةً للمعنى.[1] **ومِن مظاهر ذلك في القرآن الكريم:**

١) إخراجُ المعاني الذَّهنيّة في صورة حِسيّة، مِن ذلك:

يُريد أن يُبيِّن أنَّ **الذين كفروا** لن ينالوا **القبول** ولا الدّخول **في الجنّة**، وأنّهما **أمران مستحيلان**. هذه هي **الطّريقة الذّهنية** للتّعبير عن هذه **المعاني المجرّدة**. ولكنّ **أسلوب التّصوير** يعرضها في الصّورة الآتية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾ [الأعراف:٤٠]. ويدعك ترسم **بخيالك** صورةً **لتفتُّح أبواب السّماء**، وصورةً **لولوج الحبل الغليظ** في سَمِّ الخِياط؛ ويختار مِن أسماء **الحبل الغليظ** اسم "**الجمل**" خاصَّة في هذا المقام، ويدع **للحسِّ** أنْ يتأثر **بالخيال** عن طريق **الصّورتين**؛ ليستقرّ **معنى القبول ومعنى الاستحالة** في أعماق النّفس، وقد وردا إليها مِن طريق **العين والحسِّ** - **تخييلاً** - وعَبَرا إليها مِن **منافذ شتى**، في هينةٍ وتؤدةٍ، لا مِن **منفذ الذِّهن** وحده.

ويريدُ أن يبيِّن أنَّ الذي **يشركُ بالله** ﷻ **لا مَنبتَ له ولا جُذورَ، ولا بقاءَ له ولا استقرارَ، فيمثِّلُ** لهذا المعنى بصورةٍ **سريعة الخطوات**، عنيفة الحركات: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج:٣١]. هكذا في ومضةٍ **يخرُّ مِن السَّماءِ**، فلا **يستقرّ على الأرض لحظةً**. إنَّ **الطَّيرَ لتخطَفُه**، أو **الرِّيحَ لتهوي به** في مكان سحيقٍ حيثُ لا يدري أحدٌ، وذلك هو المقصود.[2]

---

(١) يُنظر: **من روائع القرآن** (ص١٧٠-١٧١).

(٢) **التَّصوير الفني**، سيد قطب (ص٣٧-٤٣).

٢) تصويرُ الحالات النَّفْسيّة والمعنويّة، مِن ذلك:

حالة **تَزَعْزُعِ إيمان** مَن **لا يستقرّ** على **يقينٍ**، ولا يجعلُ عقيدتَه في معزلٍ عن ملابسات حياته، وبعيداً عن **ميزانِ الرّبحِ والخسارةِ**، **يرسم القرآن** لها **صوراً تهتزُ وتَترنحُ**: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ﴾ [الحج:١١] حيث يكاد الخيال أنْ **يُجسِّم** هذا «**الحرف**» الذي يعبدُ اللهَ عليه هذا الصّنفُ مِن النَّاسِ، ويتخيّل **الاضطرابَ الحسّيّ** في **وقْفَتِهم** وهم **يتأرجحون** بين الثَّبات والانقلاب. و**ترسمُ** هذه الصّورة **حالةَ التَّزْعزعِ بأوضح ممَّا يؤديه وصفُه**؛ لأنَّها **تُطبعُ في الحسِّ**، وتتصلُ منه بالنَّفس.

٣) عرضُ صُورٍ مِن القَصَص الواقعيَة، مِن ذلك:

مَشهدٌ مِن **قِصةِ الطّوفانِ**: ﴿وَهِيَ تَجۡرِي بِهِمۡ فِي مَوۡجٖ كَٱلۡجِبَالِ﴾... الآية [هود:٤٢]. وفي اللّحظة العنيفة **تتنبّهُ** في نوحٍ عليه السلام **عاطفةُ الأبوةِ**، فهناك ابنٌ له **لم يُؤمن**، ويعلمُ أنَّه **مُغرقٌ** مع المُغرقَين، وها هو **الموج يطغى**، **فيتغلَّبُ الإنسان في نفس** نوحٍ عليه السلام على **النبيِّ**، **ويروح** في **لهفةٍ وضراعةٍ** يُنادي: ﴿يَٰبُنَيَّ ٱرۡكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾، لكنِ **البنوة العاقَّة لا تحفل بهذه الضّراعة**، **والفُتوّة العاتية** لا ترى الخلاص إلَّا **في قوتها**: ﴿قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِ﴾. ثُمَّ ها هي **الأبوّة الملهوفة** تُرسلُ **النِّداء الأخير**: ﴿لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾. وفي لحظةٍ **تتغيرُ صفحةُ الموقفِ**، فها هي ذي **الموجةُ العاتيةُ تبتلعُ** كلّ شَيءٍ: ﴿وَحَالَ بَيۡنَهُمَا ٱلۡمَوۡجُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُغۡرَقِينَ﴾ الآية [هود:٤٣]. إنَّ **السَّمعَ ليُمسكُ أنفاسَه في اللَّحظات** القِصار: ﴿وَهِيَ تَجۡرِي بِهِمۡ فِي مَوۡجٖ كَٱلۡجِبَالِ﴾. **ونوحٌ**

الوالدُ، يبعثُ **بالنِّداء تلو النِّداء، والابنُ الفتى المَغْرورُ** يأبى **إجابةَ الدّعاء، والموجةُ** العاتيةُ **تحْسمُ الموقفَ** في لحظةٍ **سريعةٍ خاطفةٍ**، وإنَّ الهولَ هنا **ليُقاسُ بمداه في النَّفس الحيّة** - بين **الوالد والمَولود** - كما يُقاسُ في مداه في الطَّبيعة - حيثُ **يطغى الموجُ** على الذّرى والوديان، وإنَّهما **لمُتكافِئتان** في الطَّبيعة **الصَّامتة وفي نفسِ الإنسان**.(١)

٤) **خلعُ الحياةِ على الموادِ الجامدةِ والظَّواهر الطَّبيعيّة والانفعالات الوُجْدانيّة**. هذه الحياةُ التي قد ترتقي **فتصبحُ حياةً إنسانيّةً**، تشملُ المواد والظَّواهر والانفعالات، **وتهبُ** لهذه الأشياء كلّها **عواطف آدميّةٍ، وخَلَجات إنسانيّةٍ، تشاركُ بها الآدميين**، وتأخذُ منهم وتُعطي، وتجعلهم يحسُّون الحياة في كلّ شيءٍ تقعُ عليه العين، أو يتلبَّس به الحسّ، فيَأنَسون بهذا الوجودِ أو يرهبونه، في توفّزٍ وحساسيةٍ وإرهافٍ.

فهذا هو **الصّبحُ يتنفَّسُ** ﴿وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ [التكوير:١٨]، يُخيل إليك هذه الحياة الوديعة الهادئة التي **تنفرجُ عنها ثناياه** وهو يتنفس، ويدب النَّشاط في الأحياء على وجه الأرض والسَّماء. **والليلُ يسْري** ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ﴾ [الفجر:٤] **فتحسّ سرَيانَه** في هذا **الكون العريض**، وتأنسُ بهذا **السَّاري على هِينةٍ واتئادٍ**. كما **يسرعُ في طلب النَّهار**، فلا يستطيعُ له دَرْكاً: ﴿يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ﴾ [الأعراف:٥٤]، ويدور الخيال مع هذه **الصّورة الدَّائبة** التي لا نهاية لها ولا ابتداء.

وهاتان هما **الأرضُ والسَّماء، يُوجه إليهما الخطاب**، فتسرعان بالجواب: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٞ فَقَالَ لَهَا وَلِلۡأَرۡضِ ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت:١١]. وهذه هي **الأرضُ هامدةٌ مرَّةً، وخاشعةٌ مرَّةً**، ينزل عليها الماءُ، فتهتزُّ

(١) **التَّصوير الفني** (ص٤٤-٥٨).

وتحيا: ﴿وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۢ بَهِيجٖ﴾ [الحج:٥].

وهكذا **تستحيلُ الأرضُ الجامدةُ كائناً حيّاً** بلمسةٍ واحدةٍ في لفظةٍ واحدةٍ.

٥) اجتماعُ التَّخييلِ والتَجسيمِ، كثيراً ما **يجتمعُ التَّخييلُ والتَّجسيمُ** في المثالِ الواحدِ مِن القرآن الكريم، **فيصورُ المعنوي** المجرَّدَ **جسماً محسوساً، ويُخيِّلُ حركةً** لهذا لجسم - أو حوله - مِن **إشعاعِ التَّعبيرِ. مِن ذلك:** ﴿بَلۡ نَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَى ٱلۡبَٰطِلِ فَيَدۡمَغُهُۥ﴾ [الأنبياء:١٨] ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَ﴾ [الحشر:٢] ﴿وَأَلۡقَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ﴾ [المائدة:٦٤] ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الفتح:٢٦] ﴿وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ﴾ [الإسراء:٢٤]. فكأنَّما **الحقّ** قذيفةٌ خاطفةٌ تصيبُ الباطلَ فتزهقَه، وكأنّما **الرّعبُ** قذيفةٌ سريعةٌ تنفذُ في القلوب مِن الرّعب لفورها، وكأنّما **العداوةُ والبغضاء** مادةٌ ثقيلةٌ تُلقى بينهم، فتبقى إلى يوم القيامة. **وكأنَّما السّكينةُ** مادةٌ **مثبتةٌ** تنزلُ على رسولِ الله ﷺ وعلى المؤمنين. وكأنَّما **للذّلِ جناحٌ يُخفضُ** مِن الرّحمةِ للوالدين. وفي كلِّ مثالٍ مِن هذه يجتمعُ التَّجسيم - **بإحالة المعنى جسْماً** - مع التَّخييلِ بحركة هذا الجسمِ المفروضةِ.(١)

والحمد لله ربِّ العالمين، والصّلاة والسّلام على المبعوث رحمةً للعالمين، وعلى آله وصحبه، ومن تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدّين.

تمّ بعون الله تعالى وفضله

---

(١) **التَّصوير الفني** (ص ٧٣ - ٨٥).

أهم المراجع

- الإتقان في علوم القرآن، عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين السيوطي (ت ٩١١هـ).
- الأسماء والصفات، أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي (ت ٤٥٨ هـ).
- إعجاز القرآن والبلاغة النّبوية، مصطفى صادق الرافعي (ت ١٣٥٦هـ).
- إعجاز القرآن، أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني (ت ٤٠٣هـ).
- أعلام النبوة، علي بن محمد أبو الحسن الماوردي (ت ٤٥٠هـ).
- إكمال المعلم بفوائد مسلم، للقاضي عياض (ت ٥٤٤هـ).
- البرهان في علوم القرآن، محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي (ت ٧٩٤هـ).
- بيان إعجاز القرآن، أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي (ت ٣٨٨هـ).
- البيان والتبيين، عمرو بن بحر، أبو عثمان، الشهير بالجاحظ (ت ٢٥٥هـ).
- تأويل مشكل القرآن، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (ت ٢٧٦هـ).
- التصوير الفني في القرآن، سيد قطب (ت ١٩٦٦هـ).
- تفسير الراغب الأصفهاني، الحسين بن محمد الراغب الأصفهاني (ت ٥٠٢هـ).
- تهذيب اللغة، محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي، أبو منصور (ت ٣٧٠هـ).
- جامع البيان عن تأويل آي القرآن، محمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ).
- الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله القرطبي (ت ٦٧١هـ).
- الحيوان، عمرو بن بحر، أبو عثمان، الشهير بالجاحظ (ت ٢٥٥هـ).
- دلائل الإعجاز في علم المعاني، عبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١هـ).
- الرسالة القشيرية، عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري (ت ٤٦٥هـ).
- الرسائل، عمرو بن بحر، أبو عثمان، الشهير بالجاحظ (ت ٢٥٥هـ).
- زاد المسير في علم التفسير، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي الجوزي (ت٥٩٧هـ).
- سر الفصاحة، عبد الله بن محمد بن سعيد الخفاجي الحلبي (ت ٤٦٦هـ).

- السيرة النبوية، عبد الملك بن هشام (ت ٢١٣هـ).
- الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، يحيى بن حمزة العلويّ (ت ٧٤٥هـ).
- فتح الباري بشرح البخاري، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ).
- فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب (حاشية الطيبي على الكشاف)، شرف الدين الحسين بن عبد الله الطيبي (ت ٧٤٣هـ).
- الفصل في الملل والأهواء والنحل، ابن حزم الأندلسي علي بن أحمد (ت٤٥٦هـ).
- فضائل الصحابة، أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني (ت ٢٤١هـ).
- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل، الزمخشري (ت٥٣٨هـ).
- لسان العرب، محمد بن مكرم بن علي، جمال الدين ابن منظور (ت ٧١١هـ).
- محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين، فخر الدين الرازي (ت٦٠٦هـ).
- المحكم والمحيط الأعظم، علي بن إسماعيل بن سيده المرسي (ت ٤٥٨هـ).
- معترك الأقران في إعجاز القرآن، جلال الدين السيوطي (ت ٩١١هـ).
- المعجزة الكبرى القرآن، محمد بن أحمد المعروف بأبي زهرة (ت ١٣٩٤هـ).
- معجم مقاييس اللغة، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا (ت ٣٩٥ هـ).
- معرفة أنواع علوم الحديث (مقدمة ابن الصلاح)، ابن الصلاح (ت ٦٤٣هـ).
- مفاتيح الغيب (التفسير الكبير)، فخر الدين الرازي محمد بن عمر (ت ٦٠٦هـ)
- المفردات في غريب القرآن، الحسين بن محمد الراغب الأصفهاني (ت ٥٠٢هـ).
- مناهل العرفان في علوم القرآن، محمد عبد العظيم الزُّرْقاني (ت ١٣٦٧هـ).
- موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، التهانوي (ت بعد ١١٥٨هـ).
- نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، فخر الدين الرازي محمد بن عمر (ت ٦٠٦هـ).

اللجنة العلمية:

أ. د. محمد فاروق العكام

أ. د. محمد الحسن البغا

أ. د. الدكتور علي عكام

المدقق اللغوي:

الدكتور أيمن الشوا

حقوق الطبع والنشر والترجمة محفوظة لمديرية الكتب والمطبوعات الجامعية

Damascus University